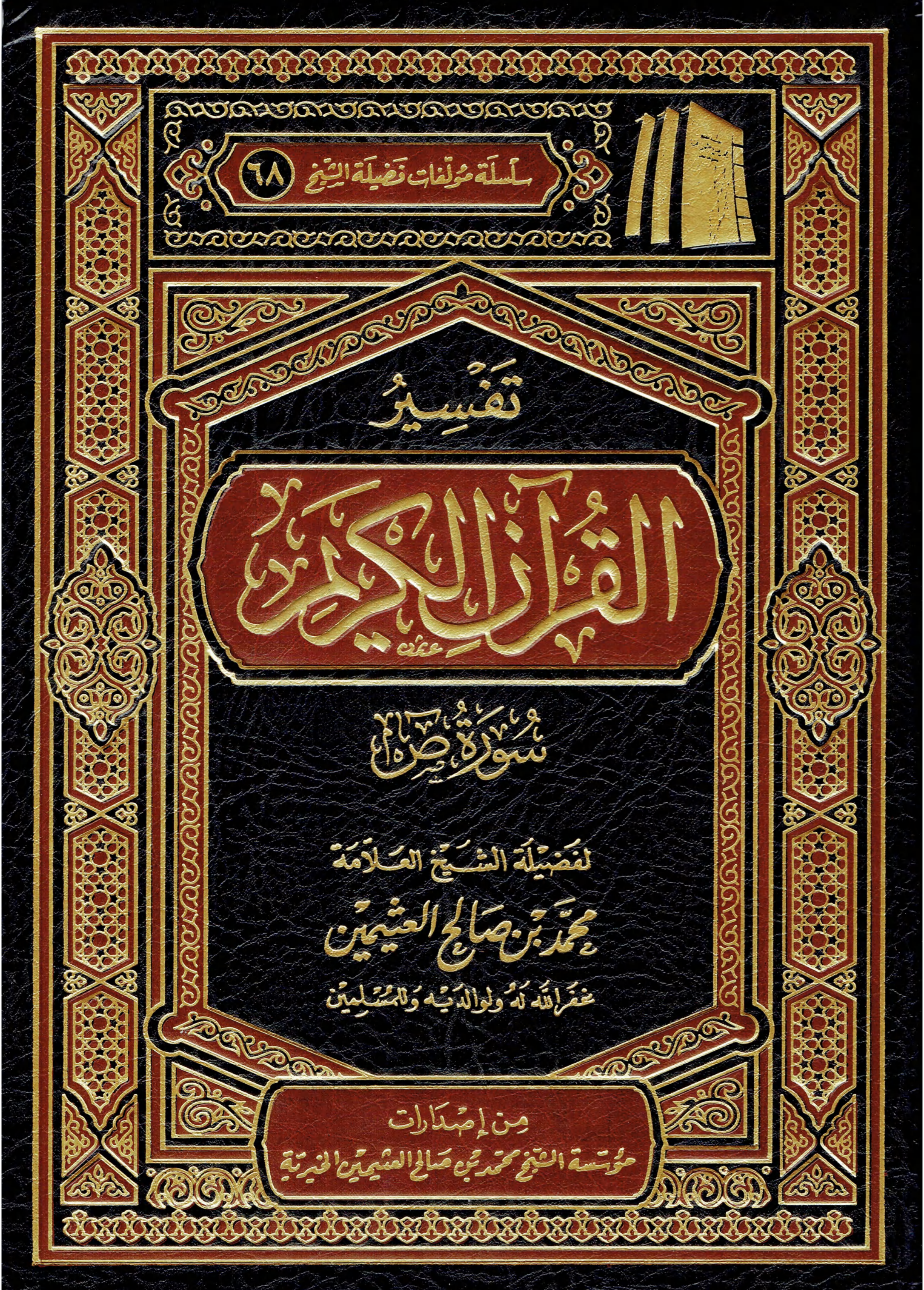
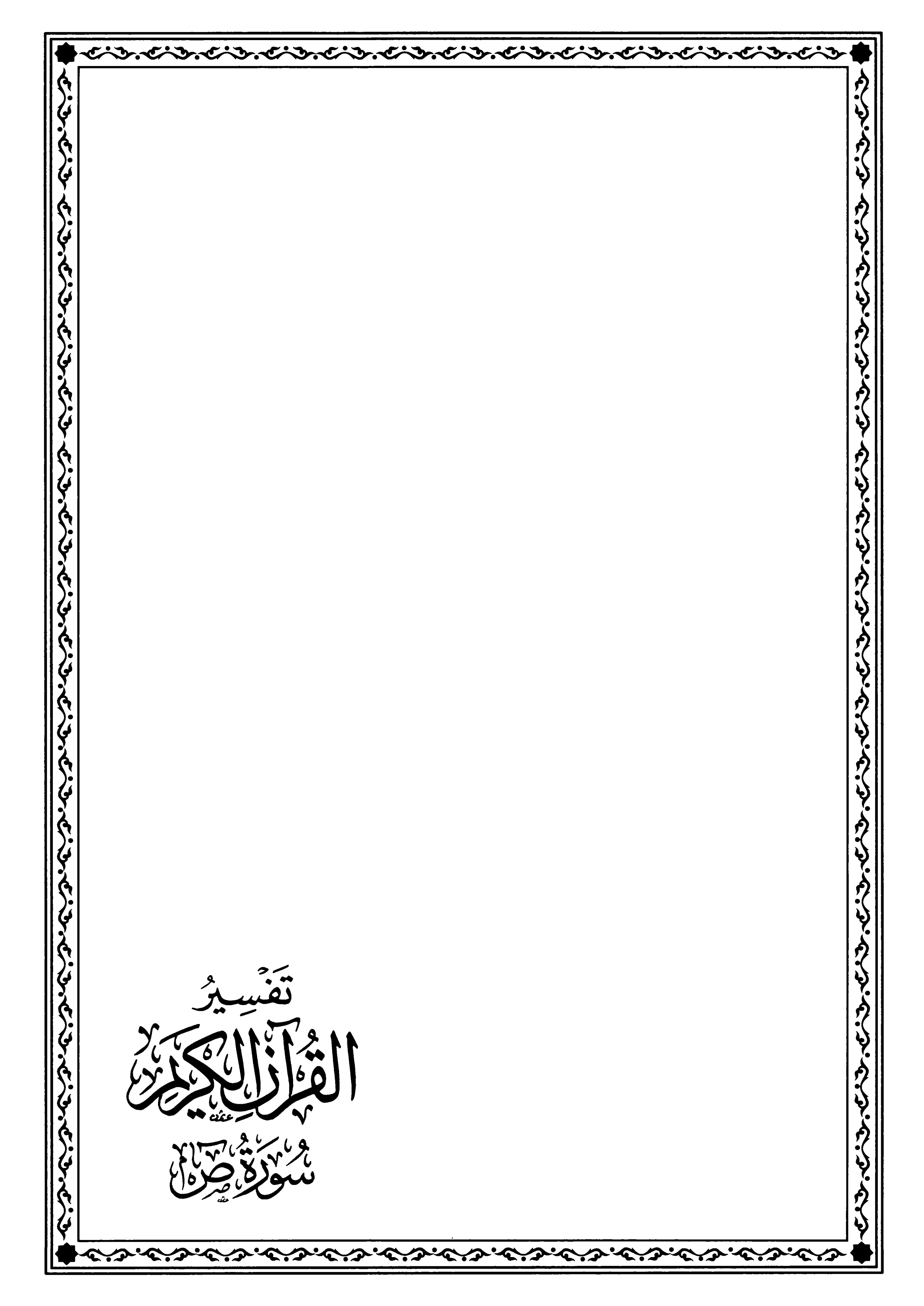

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ٦٨
تفسير
القرآن الكريم
سورة ص
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

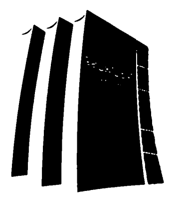

تفسير
القرآن الكريم
سورة ص

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة (ص). / محمد بن صالح العثيمين - ط ٧ - القصيم، ١٤٣٦هـ
٢٧٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٦٨)
ردمك: ١ - ٦٤ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - سورة (ص) - تفسير.
أ - العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٩٠٥٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٩٠٥٤
ردمك: ١ - ٦٤ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة السابعة
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٦٨)

تفسير القرآن الكريم

سورة ص

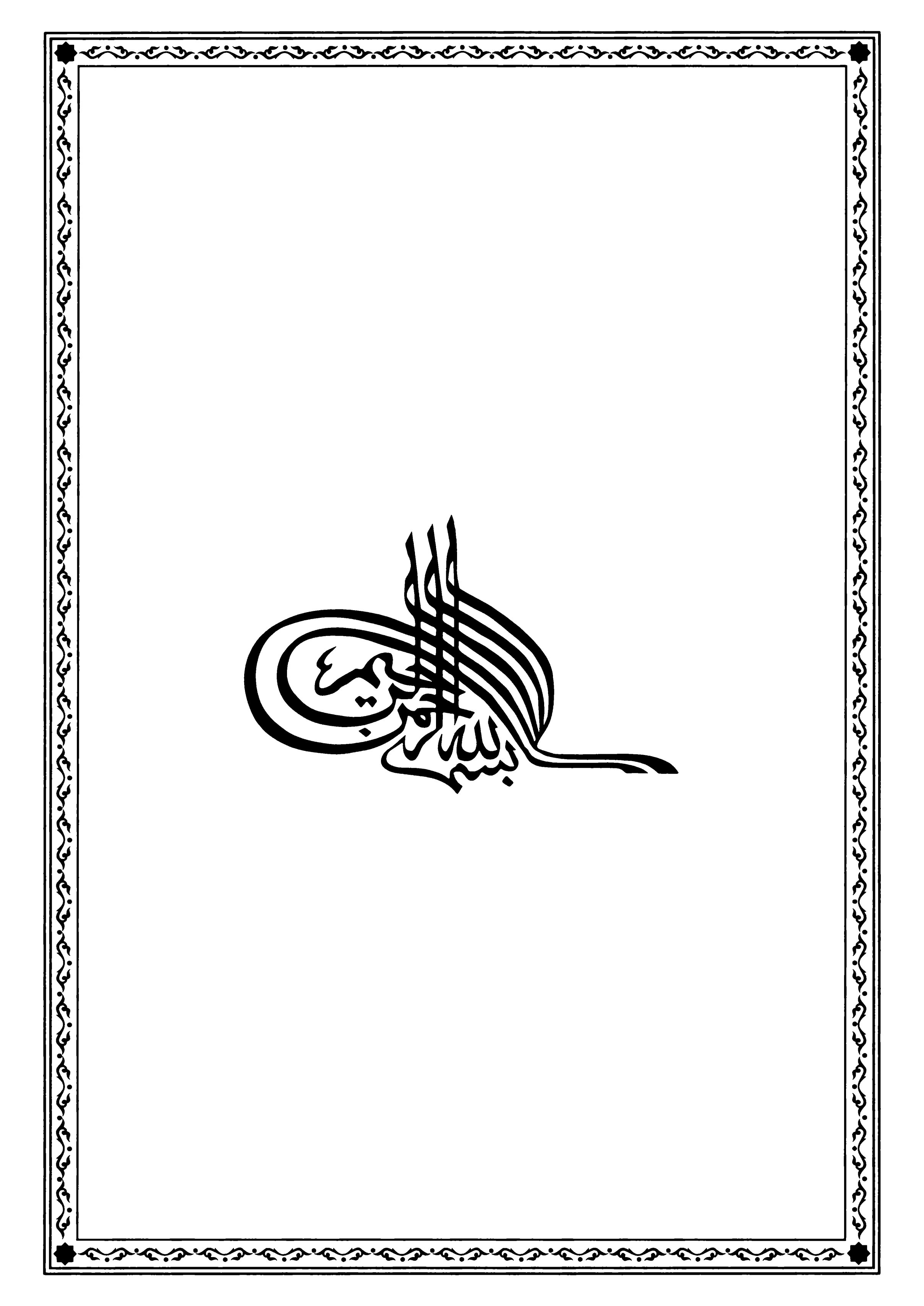
لفضيلة الشيخ العلامة

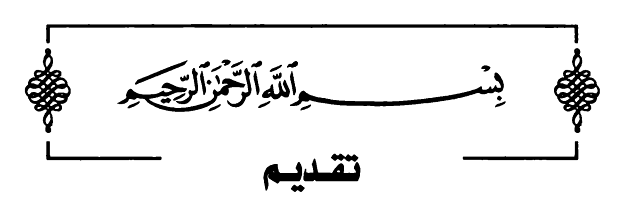
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

•• ❁ ••

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسِير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بن محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِقِ الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لِعبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

• • ❁ • •

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه ونَستعينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذ بالله من شُرورِ أَنْفُسِنا وسَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصْحابِهِ ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسْليمًا كثيرًا. أمَّا بعد:

فإنَّ من توفيقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يسَّر لفَضيلَةِ شَيْخِنا -تَغَمَّدَهُ الله بواسِعِ رَحْمَته ورِضْوانِه- تَفْسيرَ سُورَةِ (ص) في دُرُوسِهِ العِلْمِيَّةِ التي كان يَعْقِدُها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالجامِعِ الكَبيرِ في مَدِينَةِ عُنَيْزَةَ.

وقَدْ عَهِدَتْ مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّة إلى فَضيلَةِ الشَّيْخِ فَهْدِ بْنِ ناصِرِ بْنِ إبْراهيمَ السُّلَيْمان، أثابَهُ الله، بالعَمَلِ لإعْدادِ هذا الكِتابِ للنَّشْرِ، وتَخْريجِ أَحادِيثِهِ وآثارِهِ، فجزاه الله خيرًا.

نسأَلُ الله تعالى أنْ يَجْعَلَ هذا العَمَل خالِصًا لوَجْهِه الكريمِ، مُوافِقًا لمَرْضاتِهِ، نافعًا لعِبادِهِ، وأن يَجْزِيَ فضيلَةَ شَيْخِنا عن الإسلامِ والمُسْلمينَ خَيْرَ الجزاءِ، ويُضاعِفَ له المثوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَه في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَميعٌ قَريبٌ.

وصلَّى الله وسلَّمَ وبارَكَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وأصحابِهِ والتَّابعينَ لَهُم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

في مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صالِحِ العُثَيْمين الخَيْرِيَّة



سورة ص

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّـمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. **أَمَّا بَعد:**

قال الله تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قال المُفسِّر [1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سورة (ص) مَكِّيّة] والقُرْآنُ الكَرِيمُ مَكِّيٌّ ومَدَنِيٌّ، وأَصَحُّ الأَقوالِ في تَمْيِيزِ المَكِّيِّ من المَدَنِيِّ: أنَّ ما نزل قَبْلَ الهِجْرَةِ فهو مَكِّيٌّ، وما نزل بعدها فهو مَدَنِيٌّ وإن نَزَلَ في غَيْرِ المدينَةِ، فالحَدُّ الفاصِلُ زَمَنِيٌّ وليس مكانِيًّا، فما بعدَ الهِجْرَة مَدَنِيٌّ، وما قبلها مَكِّيٌّ.

قال: [ستٌّ أو ثمانٌ وثَمانونَ آيَةً] والآياتُ هي عبارَةٌ عن الفواصِلِ التي تكون بين جُمْلَةٍ أو جُمْلَتَيـنِ فأكْثَر، وسُمِّيَـتْ آيَةً؛ لأنَّها مُعْجِزَةٌ، فإنَّ القُرْآن -كما سبق- قد تحدى اللهُ فيه النَّاسَ أن يأْتوا بحديثٍ مِثْلِه وإن قَلَّ.

• • ❀ • •

---

(١) أخي الكريم: إذا مر بك: (قال المفسِّر)، فالمراد به جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المحلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة ٨٦٤هـ. في تفسيره المسمى (تفسير الجلالين)، وقد جعلت كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين معكوفتين هكذا [].



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

هذه البَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كتابِ الله يُؤْتَى بها في ابتداءِ كُلِّ سورةٍ إلا سُورَةَ بَراءَة فإِنَّهُ لا يُؤْتَى بها؛ وذلك أنَّ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا كَتَبوا المصْحَف أُشْكِل عليهم هل براءة بَقِيَّةُ الأَنفالِ، أو هي سُورَةٌ مُسْتَقِلَّة؟ فوضعوا فاصلًا دون بَسْمَلَة.

لأَنَّه لو جَزَموا بأَنَّها من الأنفالِ لم يَضَعوا فاصلًا، ولو جَزَموا بأنَّها مُسْتَقِلَّة لوضعوا البَسْمَلة، ولكن هذا الاجتهادُ منهم نَعْلَمُ أَنَّه هو المُطابِقُ للواقِعِ، وأَنَّهُم مُصيبونَ فيه قطعًا؛ وذلك لأنَّ البَسْمَلَة لو نَزَلَتْ بينَ الأَنفالِ وبَراءَة لَبَقِيَتْ؛ لأنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فلمَّا لم تَبْقَ باجتهادٍ من الصَّحابة عُلِمَ أَنَّهُم كانوا مُصيبينَ للواقِعِ.

والبَسْمَلَة: جارٌّ ومجْرُورٌ ومُضافٌ إليه وصِفَةٌ؛ أي: نَعْت. والقاعِدَة النَّحوِيَّة: أنَّ كلَّ جارٍّ ومجْرور لا بدَّ له من متعلَّقٍ؛ أي: من شيءٍ يتعلَّقُ به، والشَّيْء الذي يتعلَّقُ به الجارُّ والمَجْرور هو العامِلُ، والجارُّ والمجْرورُ مَعْمولٌ؛ ولِهَذا قال ناظِمُ الجمل:

لَا بُدَّ لِلْجَارِّ وَالمَجْرُورِ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ اوْ مَعْنَاهُ نَحْوُ مُرْتَقِي

وَاسْتَثْنِ كُلَّ زَائِدٍ لَهُ عَمَلْ ... كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّ

فكُلُّ حَرْفٍ أَصْليٍّ غَيْـرِ زائدٍ فلا بـدَّ له من مُتَعَلَّقٍ بفعلٍ أو بمـا كان بِمَعْنى الفِعْلِ؛ كاسْمِ الفاعِلِ واسْمِ المفعولِ.

إذَن: البَسْمَلَة لا بدَّ لها من متعلَّقٍ، فما هو هذا المُتَعَلَّقُ؟

أَصَحُّ ما قيل في متعلَّقِ البَسْمَلَة أَنَّه فِعْلٌ متأَخِّرٌ مناسِبٌ للمَقامِ، فإذا كُنْتَ تُرِيدُ أن تقرأَ كان التَّقْديرُ بِسْمِ الله أَقْرَأُ، وإذا أردْتَ أن تأْكُلَ كان التَّقْديرُ بِسْم الله آكُـلُ، وإذا أردْتَ أن تذبحَ ذبيحةً كان التَّقْديرُ بسم الله أَذْبَحُ؛ ولِهَذا قال الرَّسُول ﷺ وهو يَخْطُب في النَّاس يَوْم النَّحْرِ: **«مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»**(١).

وإنَّما يُقَدَّر فعلًا؛ لأنَّ الأَصْلَ في العَمَل هو الفِعْلُ؛ ولذلك يَعْمَلُ في مَعْمولِهِ بِدونِ شُروطٍ، وأَمَّا اسْمُ الفاعِلِ واسْمُ المفعولِ واسْمُ التَّفْضيل والمَصْدَرُ فلا يَعْمَل إلا بِشَرْطٍ.

ونقدِّرُهُ متأخِّرًا فنقول: بسم الله أَقْرَأُ لِسَبَبَينِ:

السَّبَبُ الأَوَّل: التَّبَرُّكُ بالبداءَةِ باسْمِ الله.

السَّبَبُ الثَّاني: إفادَةُ الحَصْـرِ؛ لأنَّ تأخيرَ العامِلِ يُفيد الحصْـرَ، فإنَّ من طُرُقِ الحَصْـرِ: تَقْديمَ ما حقُّه التَّأخير، وقدَّرْناه مُناسبًا للمَقامِ؛ لأنَّه أدلُّ على المقصود مِمَّا لو قدَّرناه فعلًا عامًّا كما لو قيل: إنَّ التَّقْديرَ باسْمِ الله أَبْتَدِئُ، أو بسم الله أَبْدَأ؛ لأنَّ بِسْم الله أَبْدَأ أو أبتدِئُ لم تُعَيِّنِ الفِعْلَ الذي ابتدَأْتَ به.

فالحاصِلُ: أنَّنا نُقَدِّرُ المتعلَّقَ في البَسْمَلة أنَّه فعل متأَخِّر مناسِبٌ للمقامِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٦٧٤)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّه يَنْبَغِي الابتداءُ بها في الأُمُور الهامَّة؛ ولهذا يَبْتَدِئ الله بها كلَّ سورةٍ إلا براءة، ومِنَ المَعْلومِ أنَّ السُّورَة من الأُمُور الهامَّة، وجاء في الحديث عن الرَّسُولِ ﷺ أنَّه قال: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**»[1] والحديثُ حَسَنٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الأُلُوهِيَّة لله في قَوْلِه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ أَسْماءِ الله؛ لِقَوْلِه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وهذا مُفْرَدٌ مضافٌ فَيَعُمُّ كُلَّ اسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولِهَذا يُفَسِّرُها بعض المُفَسِّرين بِقَوْلِهم: أي: بكلِّ اسْمٍ من أَسْماءِ الله أبتدِئُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّبَرُّك بِذِكْرِ اسم الله عَزَّوَجَلَّ، فتكونُ أَسْماءُ الله مِمَّا يُدعَى اللهُ به؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] ومِمَّا يُتبَرَّك به ويُسْتَعان به؛ لأنَّها تُقَدَّمُ بين يَدَيِ الأُمُور الهامَّة.

وإذا أردْتَ أن تعرِفَ مدى بَرَكَةِ هذه التَّسْمِيَة فانظُرْ إلى الذَّبيحَةِ يُسمَّى عليها فتكون طَيِّبةً حلالًا، ولا يُسمَّى عليها فتكون خَبيثةً حرامًا مع أنَّ الذَّابِحَ واحِدٌ، والآلَةَ المذبوحَ بها واحِدةٌ، ومكانَ الذَّبْحِ واحِدٌ، وإنْهارَ الدَّمِ واحِدٌ، كلُّ شيءٍ واحِدٌ، لكن لَمَّا فُقِدَت التَّسْمِية صارت خَبيثةً مَيْتَةً لا يَحِلُّ أَكْلُها، فإذا سُمِّيَ عليها صارَتْ طَيِّبَةً.

وإذا أتى الرَّجُلُ أَهْلَهُ فقال: «**بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وجَنِّبِ الشَّيْطَانَ**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**بذكر الله**».

مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»[1] وإن لم يُسمِّ بهذه التَّسْمِيَة كان عُرْضَةً لِأَنْ يُصابَ وَلَدُه بالشَّيطان ويُضَرَّ بِهِ.

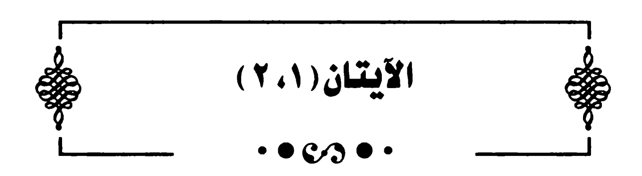
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ الرَّحْمَة لله تعالى في قَوْلِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأنَّها رَحْمَة واسِعَة؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لأنَّ الرَّحْمَةَ صِفَةٌ تَدُلُّ على السَّعَة والامْتِلاءِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ الأَسْماء الثَّلاثَة لله، وهي: الله والرَّحْمن والرَّحيمُ.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (١٤١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيتان (١، ٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:١-٢].

•••

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ به] وذلِكَ لأنَّ كَلِمَة (ص) حَرْفٌ هِجائِيٌّ لا يَدُلُّ على معنًى في اللُّغَة العَرَبِيَّة.

فذهب جماعَةٌ من العُلَماء إلى أنَّ هذه الحُروفَ الهِجائِيَّةَ التي ابتُدِئَتْ بها بعضُ السُّوَر رُمُوزٌ إلى مَعانٍ، وعيَّنَها كُلُّ إِنْسَانٍ بما يرى أنَّه مناسِبٌ.

وذهَبَ آخَرُونَ إلى أنَّها أَسْماءٌ من أَسْماءِ الله، أو مِنْ أَسْماءِ الرَّسُولِ ﷺ.

وذَهَبَ آخرون إلى ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ بأنَّها مَجْهولَةُ المَعْنى، لا ندري ما معناها.

ولكنَّ القَوْلَ الرَّاجِحَ ما ذهب إليه إمامُ المُفَسِّرينَ في عَهْدِهِ؛ مجاهِدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، أن نقول: ليس لها معنًى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] واللِّسانُ العَرَبِيُّ لا يُثْبِتُ معنًى لِهَذه الحُرُوف الهِجَائِيَّة، وعلى هذا فتكون هذه الحروف الهجائِيَّة مثل: ن، ق، ص، الـم، وما أَشْبَهَها ليس لها معنًى في اللُّغَة العَرَبِيَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

إِذَنْ: ليس لها معنًى في القُرْآن؛ لأنَّ القُرْآنَ باللُّغَة العَرَبِيَّة.

ولكن يُشْكِلُ على هذا القَوْلِ مع رُجْحانِه أنَّه يقْتَضِي أن يكون في القُرْآن كَلِماتٌ لَغْوٌ ليس منها فائِدَة!

والجَوَابُ عن هذا أن نقولَ: هي ليسَتْ لَغْوًا في سياقِهَا؛ فإنَّها جاءت لمغزًى عَظيمٍ، وهذا المَغْزَى أنَّ هذا القُرْآنَ العَظيمَ الذي أَعْجَز فُصَحاء اللُّغَة وأُمَراءَ البيَانِ لم يكن بِحُرُوف غيرِ مَأْلوفَةٍ عندهم حتى يقولوا: لا نَعْرِفُ هذه الحروف، بل كان بالحُروفِ التي يتكَوَّن منها كلامُهُم.

قال الذين ذهبوا هذا المَذْهَب: ودليلُ ذلك أنَّكَ لا تكادُ ترى سورةً مبدوءةً بحَرْف هِجَائِيٍّ إلا وَجَدْتَ بعد هذا الحَرْفِ ذِكْرَ القُرْآنِ: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]، ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١-٢]، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

فكُلُّ سُورَةٍ مَبْدوءَة بِهَذه الحُـروفِ الهِجَائِيَّة يأتي بعد الحُـروفِ الهِجَائِيَّة ذِكْرُ القُرْآنِ، ما عدا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم:١-٣]، و﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، ويمكن أن يُجاب عن ذلك بأن يُقال:

أَمَّا قَـوْلُه: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ فِلأنَّه ذَكَرَ صفَةً عَظيمَةً من صِفاتِ مَنْ تمسَّك بالقُرْآن وهي الصَّبْـر على الأذى في ذاتِ الله.

وأَمَّا الثَّانِيَة: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فقد ذَكَرَ شيئًا من خَصائِص الوَحْيِ، وهو عِلْمُ الغَيْب؛ فإنَّ كَوْنَ الرُّوم غُلِبَتِ الآن وستَغْلِب في بِضْع سنيـن، من الأَمْرِ الذي لا يَعْلَمُه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو من خَصائِص الوَحْي، وسواء كان هذا الجَوَابُ سديدًا مقبولًا أم لم يكن، فإنَّ النادِرَ لا حُكْمَ له.

قال الله تعالى: ﴿صٓ﴾ نَقول فيها: (ص) حَرْفٌ هِجَائِيٌّ ليس له معنًى، لكنْ جِيءَ به للإشارَةِ إلى أنَّ هذا القُرْآنَ الكريمَ الذي أَعْجَزَ العرب كان من هذه الحروف التي يتركَّبُ منها كلامُهُم.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواو هنا: حَرْفُ قَسَم؛ ولِهَذا جُرَّتِ الكَلِمَة التي بعدها (القُرْآن)، والواو حَرْفُ قَسَمٍ لا تَدْخُل إلا على الاسْمِ الظَّاهِر، ولا يُذْكَر معها فِعْلُ القَسَم، بخلاف باءِ القَسَم، فإنَّها تَدْخُل على الاسْمِ الظَّاهِر، وعلى الضَّمير، ويُذكَرُ معها فِعْلُ القَسَمِ، ويُحذَف، وتَدْخُل على كُلِّ اسم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام:١٠٩] فذُكِـرَ معها فِعْـلُ القَسَم، وتقول: ربِّي به لأَفْعَلَنَّ، أو أُقْسِمُ به لأَفْعَلَنَّ، فهنا دَخَلَت على الضَّمِير.

أَمَّا التَّاء فهي أخصُّ أدوات القَسَـم؛ لا تدخُـل إلا على لفْظِ الجـلالة (الله)، ولا يُذْكَرُ مَعَها فعلُ القَسَمِ، وقيل: تدخُلُ على لفظ الجلالة (الله) وعلى (ربِّ) قال ابن مالك: (وَالتَّاءُ للهِ وَرَبِّ)، وأكثَرُ ما يُقسَم اللهُ به الواو؛ وذلك لأَنَّها الأَكْثَرُ على الأَلْسُن، فجاءت الأكثر في القُرْآن.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: ﴿ذِى﴾ بِمَعْنى صاحِـب، وهي مجْرُورَة، لَكِنَّها مجْرُورَة بالحَرْفِ نيابَةً عن الكَسْرَة.

وقَوْلُه: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: البَيَانِ أَوِ الشَّـرَفِ] يعني: أنَّ القُرْآنَ ذو ذِكْرٍ؛ أي: ذو بيانٍ للنَّاس، يُذكِّرُهُم ويتَذَكَّرون به، أو ذو شَـرَف لشَـرَفِه وشَرَفِ من يعمل به؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤] فهو ذِكْرٌ: يُذكَرُ به ما ينفعُ النَّاس في معاشِهِم ومعادِهِم، وذِكر: يتذَكَّر به النَّاسُ ويتَّعِظون به، وهو أَعْظَم موعظةٍ، وذِكْرٌ: أي شَرَف لمن تمسَّك به.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجوابُ هذا القَسَمِ مَحْذوفٌ] إنَّما قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجـوابُ هذا القَسَم؛ لأنَّه ما مِنْ قَسَمٍ إلا وله جـوابٌ؛ إذ إنَّ القَسَم أركانُهُ أربعة: مُقسِمٌ، ومُقسَمٌ به، ومُقسَمٌ عليه، وصيغَة؛ فَكُلُّ قسَم لا بدَّ فيه من هذه الأَرْكان، والمقْسَم عليه هو جوابُ القَسَم.

إذن: لا بدَّ لِكُلِّ قَسَم من جواب، والجَوَابُ إن كان مذكورًا فهو مَعْلومٌ، وإن كان مَحْذوفًا فيُعَيِّنُه السِّيَاق.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور:٥٣]، الجَـوَابُ هنا مذكور ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، وفي قَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧] مذكورٌ، جَواب القَسَم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾.

وفي هذه الآيَة قد وُجِدَ المُقسَمُ به والصيغَةُ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ والمُقسِمُ هو الله عَزَّوَجَلَّ، بقي المُقسَمُ عليه، وهو جوابُ القَسَم؛ يقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ مَحْذوفٌ، وتَقْديرُهُ: ما الأَمْرُ كما قال كُفَّارُ مكَّةَ من تعدُّدِ الآلِهَـة] وحَسَـبَ هذا التَّقْديرِ يكونُ جوابُ القَسَم جُمْلَةً مَنْفِيَّة: ما الأَمْرُ كما قال كُفَّار مكَّةَ من تعدُّد الآلِهَة، لكنَّ الأَمْر أنَّ الإِلَهَ واحِدٌ، وهو الله.

وهذا التَّقْديرُ الذي ذكره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتعيَّنُ؛ يعني لو قال قائل: التَّقْديرُ:

والقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ إنَّ إلَهَكُم لواحِدٌ؛ لو قال قائل هكذا، حصل به ما حصل من قَوْلِ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما الأَمْر كما قال كُفَّارُ مكَّة من تعدُّد الآلهة.

وذهب بعض العُلَماء إلى أنَّ مِثْلَ هذا القَسَم لا يحتاج إلى جوابٍ؛ لأن جوابَه مَعْلوم منه؛ كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة:١-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥] جـواب القَسَمِ مَحْذوفٌ، فيكون المُقسَمُ به متضَمِّنًا للجوابِ، كيف يكون متضمِّنًا للجوابِ في هذه الجُمْلَة القَسَمِيَّة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؟

يعني أنَّكُم قد ذُكِّرْتُم بهذا القُرْآن الذي من جُمْلَة ما ذَكَّر به أنَّ اللهَ واحِدٌ؛ ولهَذا ذهــب ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (التِّبْيانُ في أَقْسامِ القُرْآنِ)[1] إلى أنَّ القَسَـمَ أحيانًا لا يَحْتاجُ إلى ذِكْرِ الجَـوَاب، بل ولا يُحْتاجُ إلى تَقْديرِهِ؛ لأنَّه يُعلَم من السِّـيَاق المُقْسَم عليه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾: ﴿بَلِ﴾ هنا للإِضْـرابِ، والإِضْرابُ نوعانِ: إبطاليٌّ وانْتِقاليٌّ؛ فالإِبْطاليُّ إبطالٌ لِمَا قد سبق كأنَّه مَسَحَهُ وأتى بِبَدَلِه، والانتقاليُّ إِقْرارٌ لما سَبَقَ، لكِنِ انتَقَلَ من شيءٍ إلى آخَرَ، وما قبل هذا الإِضْرابِ يبقى كما هو لا يُبْطَل.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أَهْلِ مَكَّة] وتَقْييدُ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للذين كفروا بأَهْلِ مَكَّةَ فيه نَظَرٌ، والأَوْلى الأخـذُ بالعُمُوم؛ وسُلوكُ هـذه الطَّرِيقِ؛ أعني أن يُخَصَّ القُرْآنُ بِبَعْضِ أفرادِ العامِّ، ليس بسَديدٍ ولا جيِّد؛ وذلك لأنَّه نَقْصٌ في

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص:١٠).

التَّفْسير، إلا أنْ يَقومَ دليلٌ على ذلك، فإذا قام دليلٌ على ذلك وَجَبَ الأَخْذُ بالدَّليل، أَمَّا إذا لم يَقُمْ دليلٌ على ذلك فالوَاجِبُ الأَخْذُ بالعُمُوم؛ لأَنَّه أعمُّ وأكثرُ معنًى.

فالذين كفروا من أَهْل مَكَّةَ وغيرهم إلى يَوْمِ القيامَة ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ ولكنَّها ليست عِزَّةَ غَلَبَةٍ كالعِزَّة التي في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] وإنَّما هي عِزَّةُ أَنَفَةٍ وكِبْرياءَ وعِنادٍ؛ ولِهَذا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي عِزَّةٍ﴾ حَمِيَّةٍ وتكبُّرٍ عن الإيمان] وهذه العِزَّة مَذْمومَةٌ؛ لأَنَّها عِزَّةٌ تَمنَع صاحِبَها من قَبولِ الحقِّ، وأَمَّا العِزَّةُ التي هي عِزَّةُ النَّصْر فهي تأييدٌ لصاحِبِها، وبينهما فرْقٌ كبير.

قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ يعني مُشاقَّةٍ؛ فالشِّقاقُ مَصْدر شاقَّ، كقِتالٍ مَصْدَر قاتَلَ، والمَعْنى: مُشَاقَّة لله ولِرَسولِه؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر:٤] وهنا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خِلافٍ وعَدَاوةٍ للنَّبيِّ ﷺ] وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ؛ لأَنَّه خصَّ الشِّقاقَ بالنَّبِيِّ ﷺ مع أنَّ الكافِرينَ يُشاقُّونَ الله ورسوله، فهم في أَنَفَةٍ وكِبْرياءَ وحَمِيَّةٍ ومُشاقَّةٍ لله ورسوله؛ يعني أَنَّهُم يُجانِبون ما أمَرَ الله به ورسوله، كأنما يكونون في شِقٍّ، وما جاء به الوَحْيُ في شِقٍّ آخَرَ.

ورُبَّما يقول قائِلٌ: إنَّهُم أيضًا في شِقاقٍ فيما بينهم، ولا سِيَّما اليَهودُ، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ بحَرْفٍ، تكَلَّم به بالحُروفِ العَرَبِيَّةِ التي يتكَلَّمُ النَّاسُ بِها ويَتَرَكَّبُ منها كلامُهُم؛ لِقَوْلِه: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة القُرْآنِ وشَرَفُه؛ حيث أَقْسَم الله به، ولا يُقْسِمُ الله إلا بالشَّيْءِ العَظيمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جوازُ الإِقْسامِ بالقُرْآنِ، من أين يُؤخَذُ؟ هل يؤخَذُ من القُرْآن؟

هذا خطأٌ ليس في القُرْآن دليل على جوازِ الإِقْسامِ بالقُرْآنِ؛ لأنَّ الله تعالى يُقْسِمُ بما لا يجوزُ أن يُقْسِمَ به المَخْلوقُ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشَّمْس:١]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١] فإذا أَقْسَمَ الله بشَيْءٍ فإنَّهُ لا يَلْزَم أن يجوز لنا الإِقْسامُ به؛ لأنَّ الله يُقْسِمُ بما شاء، لكنَّنا نُقْسِمُ بالقُرْآنِ بدليلٍ آخَرَ لا بهذه الآيَةِ، وهو أنَّ القُرْآن كلامُ اللهِ، فهو صِفَةٌ من صِفاتِهِ، والإِقْسامُ بصِفاتِ الله جائزٌ.

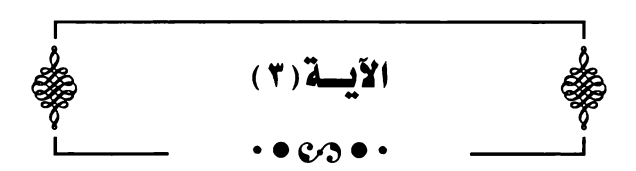
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القُرْآنَ ذِكْرٌ على الوُجوه التي ذَكَرْناها في معنى الذِّكْرِ، فهو مَوْعِظَة يُتذَكَّرُ به، وهو ذِكرٌ يَتَذَكَّر به الإِنْسَانُ ويتعَلَّم، وهو ذِكر يُنالُ به الشَّرَف، وهو ذِكْرٌ لله يُتعبَّدُ لله تعالى بتلاوته كما يُتعبَّدُ بِغَيْره من الأذكار؛ مثل: لا إِلَهَ إلا اللهُ، وسُبحان الله، والحَمْد لله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ ما في نُفوس الكُفَّار من الحَمِيَّة والأَنَفَة الباطِلَة؛ لِقَوْلِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الكُفَّار لا يَسْكُتون على كُفْرِهم ويَسْتَمِرُّون في طغيانهم وأَنَفَتِهم، بل يُحاوِلون أن يَصُدُّوا عبادَ الله عن دين الله؛ لأنَّهم في شِقاقٍ دائمٍ، يُشاقُّون اللهَ ورسولَه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ لنا أن نقول: إنَّهُم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ مع الحقِّ دائمًا، سواءٌ مع الله، أو مع الرَّسُولِ، أو مع وَرَثَة الرَّسُولِ وهم العُلَماء، أو مع أَتْباعِ الرَّسُولِ عُمُومًا وهم المُؤْمِنون، فَهُم في شِقاقٍ دائِمٍ مع الحَقِّ.

• • ❁ • •



الآيـة (٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

• • ● • •

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أمَّة من الأُمَمِ الماضِيَة] قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قَدَّرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِه: كثيرًا، وعلى هذا تكون كم تَكْثِيرِيَّةً، وهي في محلِّ نَصْبٍ على أنَّها مَفعولٌ مقدَّمٌ لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ متعلِّقٌ بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييزٌ لـ﴿كَمْ﴾؛ لأنَّ ﴿كَمْ﴾ اسْمٌ مُبْهَمٌ تَحْتاجُ إلى تَمْيِيزٍ؛ أي: إلى شَيءٍ يُبَيِّنها ويُميِّزها، فلو قيل: كَمْ أَهْلَكْنا مِن قَبْلِهم، لم يَتبيَّنِ الكَلامُ؛ ماذا أَهْـلَكَ؟ فإذا قال: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، تبيَّنَ الكَلامُ؛ ولهـذا نقول: إنَّ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تَمْيِيزٌ لـ﴿كَمْ﴾ مَجْرُورٌ بـ﴿مِّن﴾.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: مِن قَبْلِ الكُفَّارِ الذين كانوا في عهد النَّبِي ﷺ وقولُهُ: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أُمَّةٍ، والمَعْنى: أنَّ الله أَهْلَكَ كثيرًا من الأُمَم قبل هؤلاء، ومَنْ أَهْلَكَ كثيرًا من الأُمَمِ قبل هؤلاء فإنَّهُ حَرِيٌّ أن يُهلِكَ هؤلاء.

لكنَّ إهلاكَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ كان بعَذابٍ من الله، وإهلاكَ المُكَذِّبين لرَسولِ الله ﷺ كان بأيدي المُؤْمنينَ، فالحُروبُ والقِتالُ الذي وقع بينهم وبين الرَّسُولِ ﷺ كان عَذابًا لهؤلاء المُكَذِّبينَ، وكان على يَدِ النَّبي ﷺ وأصحابِه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٤-١٥] ولا شَكَّ أنَّ عَذَابَ الأعْـداءِ على يَدِ النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه أَشْفى لصُدورِهِم مِمَّا لو كان العَذَابُ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا شيء مُشاهَد؛ إذا كانت غَلَبَةُ عَدُوِّك على يَدِكَ، كان ذلك أَشْفى لِصَدْرِك، وأحيا لِنَفْسِكَ وأَقْوى وأعَزَّ مِمَّا لو أَهْلكه الله بعَذَابٍ مِن عنـدِهِ؛ فلِهَذا كان هـلاكُ المُكَذِّبينَ لرَسولِ الله ﷺ على يَدِ الرَّسُول ﷺ وأصْحابِهِ.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا﴾، الضَّمائِرُ تَعودُ على الألفاظِ باعْتِبارِ لفْظِها، ويجوز أن تعودَ على الألْفاظِ باعْتِبارِ معناها؛ ألم تروا إلى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات:٩] قال: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ ولم يَقُل: اقْتَتَلا، لو قال: اقْتَتَلا لكان الضَّمِيرُ عائدًا على اللَّفْظ ﴿طَائِفَتَانِ﴾، ولَمَّا قال: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ صار عائدًا على المَعْنى؛ لأنَّ الطائِفَة جماعَةٌ.

إذن: قوله: ﴿فَنَادَوْا﴾ أي: القَرْن، فأعادَ الضَّمِيرَ عليها باعْتِبارِ المَعْنى.

وقوله: ﴿فَنَادَوْا﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حينَ نُزُولِ العَذابِ بِهِم] ولكن نادَوْا مَنْ؟ هل المَعْنى نادى بَعْضُهم بعضًا؟ يَسْتَغيث بعضُهُم ببعضٍ، أو المَعْنى أنَّهم نادَوُا الله؛ أي: دَعَوْه أن يُغِيثَهم، أو المَعْنى أنَّه حصل منهم الأَمْران؟

القاعدة عندنا في التَّفْسيرِ متى كان اللَّفْظُ صالِحًا لمعْنَيَيْنِ فأكثر فإنَّهُ يُحْمَل عليهما جَمِيعًا، وعلى هذا يكون (نادَوْا) مَحْذوفَ المفعولِ من أجل المَعْلومِ؛ أي: إنَّ بَعْضَهم ينادي بعضًا: يا فلانُ أَغِثْني أَغِثْني، وكذلك يُنادونَ الله؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر:٨٤].

ولكنْ قال الله تعالى: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ لاتَ: (لا) النَّافِيَة زِيدَت عليها تاءُ التَّأْنيثِ لِتَأْنيثِ اللَّفْظِ، كما زِيدَت تاءُ التَّأْنيثِ في (رُبَّتَ) وفي (ثُمَّتَ) لتأنيثِ اللَّفْظ؛ تقول: رُبَّ رَجُلٍ لَقِيتُه، وتَقولُ: رُبَّتَ رَجُلٍ لَقِيتُه، وتقول: قام زيد ثُمَّ قام عَمْرٌو، وتقول: قام زيد ثُمَّتَ قام عمرٌو.

فإذَن: هي (لا) النَّافِيَة زِيدَت عليها تاءُ التَّأْنيثِ؛ لِتَأْنيثِ اللَّفْظِ فَتُصْبِح (لات)، و(لا) النَّافِيَة تَعْمَلُ عَمَلَ ليس، واسْمُها مَحْذوف في هذه الآيَة، وخَبَرُها: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والتَّقْديرُ: [أي: لَيْسَ الحينُ حينَ فِرارٍ] فسَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمَعْنى، فعليه تكون (لا) بِمَعْنى (ليس) واسْمُها مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ الحينُ، وخَبَرُها موجودٌ، وهو قوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والغالِبُ أنَّ خَبَرَ (لا) يكونُ زمانًا؛ نحو: لات حِينَ، ولات أَوَانَ؛ قال الشاعر(١):

نَدِمَ الْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ   وَالْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيهِ وَخِيمُ

يعني: ولَيْسَتِ الساعةُ ساعةَ مَنْدَمٍ.

وقوله: ﴿مَنَاصٍ﴾ المناصُ: الفِرارُ والنَّجاةُ؛ يعني: ليس الحينُ حينَ فِرارٍ ونجاة؛ لأنَّه بَعْدَ نزول العَذَابِ لا ينفَعُ نَفْسًا إيمانُها.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لَيْسَ الحينُ حينَ فِرارٍ، والتَّاء زائِدَة لِتَأْنيثِ اللَّفْظِ، والجُمْلَة حالٌ من فاعِلِ (نادَوْا)] وعلى هذا تكونُ في مَحَلِّ نَصْبٍ؛ لأنَّ الجُمْلَةَ الحاليَّة دائمًا في مَحَلِّ نصبٍ؛ يعني: نادَوْا في حالٍ لا مناصَ لَهُم مِمَّا نَزَلَ بهم؛ ولِهذا قدَّر

---

(١) ينسب إلى محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله، ويقال: مهلهل بن مالك الكناني، أو رجل من طيء. انظر: شرح الكافية الشافية (١/ ٤٤٣)، وشرح ابن عقيل (١/ ٣٢٠)، خزانة الأدب للبغدادي (٤/ ١٧٥).

المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: استغاثوا والحالُ أنْ لا مَهْرَبَ ولا مَنْجَى].

هذا ما قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في جُمْلَة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: إنَّها حاليَّة، فتكون مُقَيَّدَةً بحالِ مُناداتِهم، ولكن يجوزُ أن تكون اسْتِئْنافِيَّةً؛ فنادَوْا ثُمَّ يُخبِر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا الوَقْتَ ليس وَقْتَ مَفَرٍّ.

والفَرْقُ بين قَوْلِنا اسْتِئْنافِيَّة أو حالِيَّة: أنَّه إذا كانت حاليَّة صارت قيدًا للمُناداةِ؛ يعني: نادَوْا في حالٍ لا يَنْفَعُهم فيه النداءُ، وإذا كانت اسْتِئْنافِيَّةً تكون مُنْفَصِلَةً من حيث القَيْدِيَّة عما قبلها، فيكونُ الله قد أَخْبَرَ بأنَّهم نادَوْا، ثم أَخْبَر بأنَّهم في حالٍ ليسوا متمَكِّنينَ من الفِرارِ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وما اعْتَبَرَ بِهِم كُفَّارُ مَكَّةَ] وهذه الثَّمَرَةُ من ذِكْرِ أنَّ الله أهْلَكَ قرونًا كثيرةً فيما سبق، ومع هذا لم يَعْتَبِرْ بذلك أَهْلُ مَكَّةَ، بل كذَّبوا الرَّسُول ﷺ وآذَوْه وقالوا: إنَّهُ مجنون، وإنَّهُ ساحِرٌ، وإنَّهُ كذَّاب، وإنَّهُ شاعِرٌ، وإنَّهُ كاهِنٌ؛ وكلُّ وَصْف يُنفِّرُ النَّاسَ عنه وَصَفوه به ﷺ، ولم يَعْتَبِروا بمن سَبَقَ، بل زادوا على هذا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَسْلِيَة الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أنَّ الله تعالى أهْلَكَ المُكَذِّبين قبلهم فحَرِيٌّ أن يُهْلِكَ هؤلاء، وقد بَيَّنَّا أثناء التَّفْسيرِ أنَّ الله تعالى أَهْلَكَ هؤلاء لكِنْ على يَدِ الرَّسُول ﷺ وأصحابِهِ في الغَزَواتِ التي انتصر فيها، وقلنا: إنَّ هذا النَّصْر والتَّأْييدَ أَبْلغُ من النَّصْر الذي يأتي به الله مِن عنده؛ لأنَّ الله يُعَذِّب هؤلاء بأيدي عبادِهِ المُؤْمنينَ وحِزْبِه.

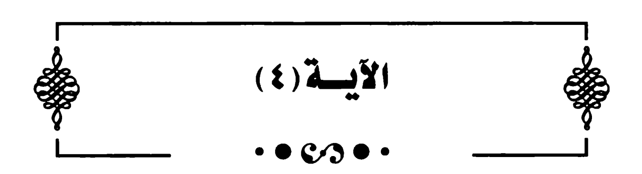
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحْذير هؤلاء المُكَذِّبينَ، وأنَّهم لن يُعْجِزوا الله في شَيْء كما لم يُعْجِزْه من سَبَقَهم مِمَّن كان قبلهم من الأُمَم التي أُهْلِكَتْ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّكْذيبَ للرُّسُلِ كان كثيرًا؛ لأنَّ إِهلاكَ القُرُون إنَّما كان بِسَبَبِ تَكْذيبِهِم، فإذا كَثُرت القُرونُ فلازِمُ ذلكَ أنْ يَكْثُرَ التَّكْذيبُ؛ أي: إذا كَثُرت القُرونُ المُهْلَكَة، كان لازِمُ ذلك أن يكْثُر التَّكْذيبُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ قُوَّة الله وعَظَمَتِه؛ حيث أَهْلك أُممًا كثيرةً وقرونًا عظيمةً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت:١٥-١٦] فبَيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الذي خلقَهم أشدُّ منهم قُوَّةً، وأنَّه عذَّبَهم بما هو أَلْطَفُ الأشياءِ، وهي الرِّيحُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأُمَمَ المُهْلَكَة إذا نزل بِهِم العَذَابُ لم يَسْتَفيدوا من الاسْتِغاثَةِ بالله ولا بِأَنْفُسِهِم؛ لِقَوْلِه: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني ليس هناك فِرارٌ من هذا العَذَاب الذي نزل بهم.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤].

•●๑●•

قال الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ العَجَبُ يكون له سَببان: السَّبَبُ الأَوَّلُ: الإنْكارُ، والسَّبَبُ الثَّاني: الاسْتِحْسانُ، يعني يقال: عَجِبَ من كذا؛ أي: اسْتَحْسَنَه، وعَجِبَ من كذا؛ أي: أنْكَرَه، فهو شَبيهٌ بأفعال الأضْدادِ؛ لأنَّ في اللُّغَة العَرَبِيَّة كلماتٍ تَدَلُّ على المَعْنى وضِدِّه، تسمَّى عند عُلَماء العَرَبِيَّة: الأضْدادَ في اللُّغَة.

فالعَجَبُ تارةً يكون استِحْسانًا، وتارة يكون اسْتِنْكارًا، فقَوْلُ عائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَامُنُ فِي تَنَعُّلِهِ وَتَرَجُّلِهِ»(١). المرادُ بالإعْجابِ هنا الاسْتِحْسانُ، وفي قَوْلِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ هذا عَجَبُ اسْتِنْكارٍ وردٍّ، وليس عَجَبَ رِضًا واستحسانٍ، وهذا نظيرُ قوله تعالى في سورة ق: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:٢].

قولُهُ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أنْ مَصْدَرِيَّة على تَقْديرِ مِنْ؛ أي: عَجِبوا مِنْ أن جاءهم، وقلنا: إنَّها مَصْدَرِيَّة؛ لأنَّ ما بعدها يُحَوَّل إلى مَصْدَرٍ؛ أي: عَجِبوا من مَجِيء المُنْذِرِ مِنْهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم (١٦٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره، رقم (٢٦٨)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

وقوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ المُنذِر: هو المُخبِر بالخَبَر للتَّخْويفِ؛ ولِهَذا نقول: إنَّ الإنذارَ خَبَرٌ مقرون بتَخْويفٍ، والنَّبِيُّ ﷺ كان مُنْذِرًا، وكان مُبَشِّرًا، ولكنَّ الكُفَّارَ يليقُ بحالِهِمُ الإنذارُ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف:٢] والتَّبْشيرُ يكون للمُؤْمِنينَ، وهنا قال: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنَّ هذا هو اللائِقُ بحالِهِم.

وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ نَسَبًا وجِنْسًا، فهو منهم جِنْسًا؛ لأَنَّه بَشَرٌ، ولم يُنزِلِ الله رسولًا على البَشَر من الملائِكَة، ونسبًا؛ لأَنَّه من قُرَيْشٍ فهو منهم جِنْسًا ونَسَبًا، ومع ذلك عَجِبوا.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رسولٌ من أَنْفُسِهِم يُنْذِرُهم ويُخَوِّفُهم النَّارَ بعد البَعْثِ] أي: بعد أن يُبعَثوا [هو النَّبِيُّ ﷺ] عَجِبوا عَجَبَ اسْتِنْكار ورَفْضٍ وردٍّ مع أَنَّهُم كانوا يَصِفون الرَّسُولَ ﷺ بالصَّادق الأَمينِ، ولَمَّا جاءهم بالرِّسالَة صار كاذبًا خائنًا -والعياذ بالله- إذن مُعاداتُهم له ليس لشَخْصِه، ولكن لِما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ المُضْمَر، ويكون الكَلامُ لو أُتِيَ بالمُضْمَرِ: وعَجِبوا أن جاءَهُم مُنْذِرٌ منهم، وقالوا: هذا ساحِرٌ كَذَّاب، لكن قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والفائِدَةُ من الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

أَوَّلًا: تَنْبيه المخاطَبِ؛ لأنَّ الكَلام إذا تَغَيَّرَ نَسَقُه أوجَبَ للسَّامِعِ أن يَنْتَبِه بخلافِ ما إذا كان على نَسَقٍ واحِدٍ؛ فقد يأتيه النَّوْمُ، لكن إذا اختلف انْتَبَهَ.

ثانيًا: التَّسْجيلُ على هؤلاء بالكُفْرِ؛ لأَنَّه لو قال: وقالوا هذا ساحِرٌ كذَّابٌ، لم نَعْرِف حُكْمَهم، أَمَّا إذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عرفنا أَنَّهم كافِرونَ.

ثالثًا: أنَّ الحامِلَ لهم على هذا هو الكُفْر، فلا يَبْعُد أن يأتِيَ مِنْ غَيْرِهِم مثلَ ما أتى منهم؛ لأنَّ العِلَّةَ واحِدةٌ، فمتى وُجِدَت هذه العلَّة حصل المعلولُ من أيِّ شخص كان، فهذه فَوَائِدُ الإظْهارِ في مواضِعِ الإضمارِ.

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يشيرون إلى المنْذِر منهم، وهو الرَّسُولُ ﷺ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ جَمَعوا بين وصْفَينِ ذَميمَيْنِ: ساحر؛ لأنَّه يَسْبِي عقولَ النَّاسِ، وكذَّاب؛ لأنَّ ما جاء به كَذِبٌ غيرُ مطابِقٍ للواقِعِ، فصار الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي هو أَصْدَقُ الخَلْق، صار عندهم كذَّابًا.

ولم يقولوا: كاذبًا؛ لأنَّ كذَّابًا تكون صفةً للمُتَّصِفِ بصِفَة الكَذب، كما تقول: نجَّار وحدَّاد وما أشبه ذلك مِمَّا يكون صفةً لازِمةً.

فهم قالوا: إنَّهُ ساحِرٌ لقُوَّة تأثيرِهِ على سامِعِه؛ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان إذا سَمِع النَّاسُ قراءتَه تأثَّروا بها تأثُّرًا عظيمًا، وكانت النِّساءُ والصِّبْيانُ يَجْتَمعون إلى بيتِ الرَّسُولِ ﷺ ليَسْمَعوا قراءَتَه، وكانوا يتأثَّرون بهذه القراءة، فكان كُفَّارُ قُرَيْش يقولون: إنَّ مُحَمَّدًا سَحَرَ أبناءنا ونساءنا، وإنَّه ساحِرٌ؛ لقُوَّة تأْثيره فيهم، وكذَّاب؛ يعني: أنَّ ما جاء به فهو كَذِبٌ لا حَقيقَةَ له، والكاذب هو المُخْبِر بخلاف الواقِعِ؛ فكُلُّ من أَخْبَرك بخلافِ الواقِعِ فقد كَذَبَكَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذا دليلٌ على سَفَهِ قُرَيْشٍ الذين كذَّبوا الرَّسُول ﷺ، واستنكروا ما جاء به، ووَجْهُ ذلك أنَّه لم يأتِهِم أحَدٌ غريبٌ عليهم لا في جِنْسِه، ولا في نَسَبِه، فالذي جاءهم جِنْسُه بَشَرٌ مِثْلُهم، ونَسَبُه منهم؛ من قُرَيْشٍ، ومع ذلك يَعْجَبون اسْتِنْكارًا مِمَّا جاءَهُم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقامَةُ الحُجَّةِ للرَّسُول ﷺ على هؤلاء؛ لِقَوْلِه: ﴿مُّنذِرٌ﴾ يعني لقد أقام عليهم الحُجَّة بالإنذار، وقد قامت الحُجَّة للرَّسُولِ ﷺ بأنَّه لم يُفَرِّط في رسالته، بل أَنْذَر وقام بما قام به من البَلاغِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هـؤلاء الذين عَجِبـوا اسْتِنْكارًا كُفَّارٌ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كُلَّ من قال مثل قولِهم وعَجِـبَ مِثْلَ عجبهم فإِنَّهُ كافِـرٌ؛ من أي جِنْسٍ كان من البَشَر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ قُوَّةِ تأثيرِ كَلامِ الرَّسُولِ ﷺ في نفوس القوم، لِقَوْلِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ والسَّاحِرُ يؤثِّر في المَسْحور.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كَذِبُهم في وَصْفِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث قالوا: إِنَّهُ ساحِرٌ كذَّاب، والحَقيقَة أنَّهُم هم الكذَّابون بما وصفوا به الرَّسُولَ ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أَعداء الرُّسُل لا يُعادونَهُم عداءً شَخْصِيًّا، ولكنَّهُم يعادونَهُم عداءً مَعْنويًّا؛ لِمَا جاؤوا به من الرِّسالَة.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: أنَّ الكافرينَ سيكونون أعداءً لِكُلِّ من يَتَّبِعُ الرَّسُولَ، كُلُّ من اتَّبَع الرَّسُـولَ سيَجِدُ له أعداءً من الكافرينَ والمُنافِقيـنَ، ويتفـرَّع على ذلك تَسْلِيَةُ من وَجَدَ عَداءً من أعداءِ الله لتَمَسُّكِه بكتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِهِ؛ فإِنَّهُ يقال: هذا العَداءُ الذي حصل لك قد حصل لِمَن هو خيرٌ منك؛ فلا تَعْجَبْ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أَعْداءَ الرُّسُلِ بل أعداءُ الرِّسالَةِ يُطْلِقون أَلقابَ السوء على من تمسَّك بالشَّرْع، يضعون أَلقابَ السُّوء لِكُلِّ من تمسَّك بالشَّريعَةِ؛ لِقَوْلِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وقد حصل هذا؛ فإنَّ أهْلَ التَّعطيلِ مثلًا يَصِفون أهْلَ الإثباتِ من السَّلَف بأنَّهم حَشَوِيَّة مُجَسِّمَة مُمَثِّلَة رِعاعٌ غوغَاء، وما أشبه ذلك من ألقابِ السُّوءِ؛ من أجل أن يُنَفِّروا النَّاسَ، والعَجَبُ أنَّ هؤلاء الذين يضعون ألقابَ السُّوء لو تأَمَّلْنا لوَجَدْنا هذا اللَّقَبَ الذي وضعوه للمُتَمَسِّكينَ بِشَريعةِ الله يَصْدُق عليهم هم!

ألم يَبْلُغْكُم قولُ المُنافِقينَ في الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابِهِ؛ قالوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَـؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، ولَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ مِنْ هَـؤُلَاءِ الْقُرَّاءِ[1]، وهذه الأوصافُ الثَّلاثَةُ تنطَبِقُ عليهم هم، فهم أَكْذَبُ النَّاسِ أَلْسُنًا، وأجْبَنُ النَّاس عند اللِّقاء، وأَرْغَبُ النَّاسِ بُطونًا، وليس لهم هَمٌّ إلا بطونُهُم.

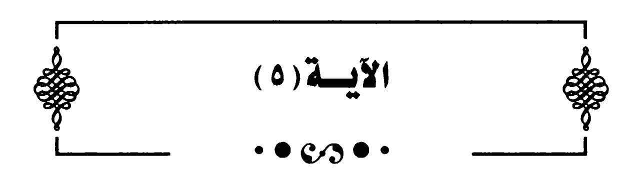
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هـؤلاء المُكَذِّبينَ للرَّسُـولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُقيموا عليه حُجَّةً فيما كذَّبوه فيه، وليس عندهم إلا السبُّ والعَيْبُ، وهذا يدلُّ على ضَعْفِ حُجَّةِ من ناوَأَكَ.

فإذا وَجَدْتَ الذي ناوَأَكَ ليس عِنْدَه إلا الصُّرَاخُ والعَوِيلُ ولَطْمُ الخَدِّ ونَتْـفُ الشَّعْر وما أشبـه ذلك، فاعلَمْ أنَّه ليس له حُجَّةٌ، إنَّما يريدُ أن يُشَوِّشَ عليك؛ لعلَّكَ تَنْهَزِمُ، وإلا فصاحِبُ الحُجَّةِ يُدْلي بِحُجَّتِه بِهُدوءٍ وبِدونِ إثارَةٍ، أَمَّا أن يَسُبَّ ويَشْتُمَ ويَثُورَ فإنَّ هذا دليلٌ على أنَّه مهزومٌ ومَخْـذولٌ، وأنَّه يريدُ أن يتَّخِذَ من هذا السِّلاحِ مَهْرَبًا ومَخْلَصًا مِمَّا هو عليه من الضِّيقِ الذي عجز أن يدفَعَ به حُجَّةَ خَصْمِهِ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآية (٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا مَصَبُّ الإنْكار، هذا الاسْتِفْهامُ يَحْمِل مَعْنَيَينِ:

المَعْنى الأَوَّل: التَّعَجُّب الاسْتِنْكارِيُّ.

والثَّاني: الإنْكارُ البَليغُ على رسول الله ﷺ؛ حيثُ جعل الآلِهة إلَهًا واحدًا.

هنا قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جعل: نَصَبَتْ مَفْعولَيـنِ: الأَوَّل: الآلِهة، والثَّاني: إلَهًا واحدًا؛ يعني: أَصَيَّرَ مُحَمَّدٌ الآلِهة إلَهًا واحدًا! وهم يَعْبُدون آلِهَة مُتَعَدِّدة: اللَّاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ وهُبَلَ وغيرها من الأصنام، كيف يأتي مُحَمَّد ويقول: ليس هناك آلِهَةٌ إلا اللهُ، هذا عندهم من أكبَرِ الكَذِب؛ حيث قال لهم: «**قولوا: لا إلَهَ إلا الله**» أي: كيف يَسَعُ الخَلْقَ كُلَّهُم إلهٌ واحدٌ؟

وهذا من جهْلِهِم وغباوَتِهِم؛ أن يُنْكِروا كَوْنَ الآلِهة إلَهًا واحدًا، فنقول لهم: مَن الخالِقُ؟ وكم؟ يقولون: الخالِقُ هو الله؟ وإنَّهُ واحِدٌ، فإذا كان الخالقُ هو الله، وهو واحِدٌ كما تُؤمِنون به، فإنَّهُ لا غرابَةَ أن يكون الإلهُ هو الله، وهو واحِدٌ، ومَنْ وَسِعَ الخَلْقَ خلقًا وَسِعَهُم تعبُّدًا، فإذا كانت الآلِهةُ لم تَخْلُقْ شيئًا بإقْرارِكُم، فكيف تستحِقُّ أن تكون آلِهَةً؟ وإذا كان يُمْكِنُ انحصار الخَلْقِ في واحد، فإنَّهُ يمكن أن تنحصِرَ العِبادَةُ

في واحد؛ ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

إنَّ هذا: المشارُ إليه جَعْلُه الآلِهَةَ إلَهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عَجيبٌ، لكن كَلِمَةُ (عُجاب) أَبلَغُ من كَلِمَة عجيبٍ؛ لأنَّها تدلُّ على المبالَغَةِ؛ أي: لَشَيْءٌ يَتَعَجَّبُ منه الإِنْسَانُ عَجَبًا عظيمًا كثيرًا؛ ولهذا عدلوا عن عجيبٍ إلى عُجابٍ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ لم يُذْكَر مكانُ الانطلاقِ؛ ليَعُمَّ كُلَّ مكان يَجْتَمِعون فيه ويَذْكرونَ مثلَ هذا الشَّيْءِ، فكلَّما اجْتَمَعوا في مكانٍ وتَذاكَروا فيما بينهم ما جاء به الرَّسُولُ ﷺ من التَّوْحيدِ، انطَلَقوا من هذا المكانِ وهم يَتَواصَوْن بالباطِلِ والصَّبْرِ عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ والملأُ هم الأشرافُ والكُبَراء والوُجَهاء، وهم الذين كانوا يُقابِلون الرُّسُلَ بالرَّدِّ والرَّفْضِ خوفًا على مكانَتِهم من أن تَزولَ باتِّباعِ الرُّسُل.

ولو تأمَّلْتُم القُرْآنَ لَوَجَدْتُم أنَّ الذين يقومون في وجوهِ الرُّسُل هم الملأُ والأَشْرافُ، أَمَّا الضُّعَفاءُ من النِّساءِ والأَوْلادِ والفُقَراءِ فهم الذين يكونون أوَّلَ من ينقادُ للرُّسُل.

وأَمَّا قولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ من مَجْلِس اجْتِماعِهِم عند أبي طالب وسَماعِهِم فيه من النَّبِيِّ ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله»[1]] فهذا تقييد لِمُطْلَق، وقد ذكرنا أن تَفْسيرَ القُرْآن بما هو أَخَصُّ تَفْسيرٌ قاصِرٌ؛ لأنَّه يَقْصُر المَعْنى المطْلَق على هذا المَعْنى المقيَّد، أو المَعْنى العامَّ على المَعْنى الخاصِّ، وهذا نقْصٌ بلا شَكٍّ، إلا إذا قام الدَّليلُ على ذلك، فلْيُتَّبَعِ الدَّليلُ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، رقم (٣٢٣٢)، والإمام أحمد (١/ ٢٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] هذا عامٌّ، ولكن إذا طبَّقْنا هذا الكَـلامَ على الواقِعِ وَجَدْنا أنَّ المرادَ بالنَّاسِ الخاصُّ. ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ القائل واحِدٌ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ أيضًا ليس كُلُّ النَّاسِ قد جَمَعوا لرسولِ الله ﷺ، الذين لم تَبْلُغْهم الدَّعوة لم يَجْمَعوا له، فيكون تَفْسيرُنا النَّاسَ بخاصٍّ في هذه الآيَة تَفْسيرًا دلَّ عليه الواقِعُ، أَمَّا إذا لم يكن دليلٌ فإنَّ الواجِبَ إبقاءُ القُرْآن على عُمُومه إن كان من العامِّ، وعلى إطلاقه إن كان من المُطْلَق.

هنا نقول: إنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الانْطِلاق من مَجْلِسٍ خاصٍّ، وهو المجْلِس الذي اجتمعوا فيه مع رسولِ الله ﷺ عند أبي طالبٍ حين قال: «**قولوا: لا إلهَ إلا اللهُ**» ولكنَّ الأَوْلَى أن نَجْعَلَهُ عامًّا يشْمَل هذا المجلِسَ وغيرَه.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أنِ امْشُوا واصْبِروا هل المراد هنا المشْيُ بالقَدَمِ؟ أو المرادُ المَشْيُ على الطَّرِيقَةِ؛ بِمَعْنى سِيروا على طَريقَتِكم واصْبِروا على آلهتكم؟

مَنْ نظَرَ إلى الانْطِلاق: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قال: إنَّ المرادَ بذلك المَشْيُ بالقَدَمِ؛ بِمَعْنى أنَّهُم إذا انطلقوا حثَّ بَعْضُهم بعضًا على المَشْي والسير؛ لئلَّا يعودوا فيُعَرِّجوا على ما انْطَلَقوا منه، كأنَّهم إنَّمـا ينطلقون فرارًا، فيوصِي بَعْضُهم بعضًا بالمَشْيِ، وإذا نَظَرْنا إلى المَعْنى أو إلى عُمُوم أحْوالِهِم قلنا: إنَّ المرادَ بذلك المَشْيُ على الطَّرِيقَة؛ يعني سيروا على طريقَتِكم ولا يُهِمَّنَّكُم أَحَدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني: احْبِسـوا أنفُسَكم عليها لا تَحيدوا عنها، وهذا من باب التَّواصِي بالباطِلِ، يقول بعضُهُم لبَعْضٍ: امْشُوا واصْبِروا على آلِهَتِـكم واثْبُتوا على عبادَتِها، إن هـذا المذكورَ من التَّوحيـدِ لَشَيْءٌ يُرادُ ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ

ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني: اثْبُتوا عليها في عبادَتِها والدِّفاعِ عنها وعدم قَبولِ كُلِّ شيءٍ يُبْطِلُها، اصْبِروا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ هذا المشارُ إليه، ما جاء به النَّبِيُّ ﷺ من التَّوْحيدِ.

﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُريدُه من جاء به، وهـذا يدلُّ على صِـدق الرَّسُولِ ﷺ؛ معناه أنَّ هذا الرَّجُل قال قولًا يُريدُه، فهو جادٌّ في قَوْلِه، والشَّيْءُ الذي يُرادُ لا بدَّ أن يسعى مريدُه ليُحَقِّقَه، بخلاف الإِنْسَان الذي يقول القَوْلَ باللِّسَان لا بالقَلْب؛ ولهذا تَجِدُ الذي يقول القَوْلَ بلِسانِه وقَلْبه، يُصَمِّم ويَعْزِمُ على أن يُنَفِّذَ ما قال، لكن الذي لا يريدُ يكونُ قولُه بلسانِهِ سطحيًّا.

فقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريدُه قائِلُه وهو النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإذا صدر القَوْلُ عن إرادةٍ فهذا يعني أنَّ صاحِبَه مُصَمِّم عليه، وعلى غَلَبَتِه، وأن يكون هذا القَوْلُ هو القولَ السَّائِدَ الذي يمشي عليه النَّاسُ، بخلاف من قال قولًا لا يريده؛ مثل أن يقول القَوْلَ مُجامَلَةً، أو من أجل إمضاءِ الوَقْتِ، أو ما شابه ذلك؛ فإنَّهُ لا يكون عنده العَزْمُ الصَّادِقُ على تنفيذ ما قاله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يدعو هؤلاء إلى تَوْحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ في أُلُوهِيَّته وهو مع هؤلاء يجادِلُهم في أُلُوهِيَّته تعالى، ويدعوهم إلى تَوْحيدِ الأُلُوهِيَّة؛ لأنَّ تَوحيدَ الرُّبُوبِيَّة عندهم ثابِتٌ مُقِرُّون به، يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] لا يُنْكِرون تَوْحيدَ الرُّبُوبيَّة، لَكِنَّهم يُنْكِرون تَوْحيدَ الأُلُوهِيَّة؛ ولذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ فكان الصِّراعُ بين الرَّسُول ﷺ وبين كُفَّارِ قُرَيْش على تَوْحيدِ الأُلُوهِيَّة، أَمَّا تَوْحيدُ الرُّبُوبِيَّة فقد أقرُّوا به.

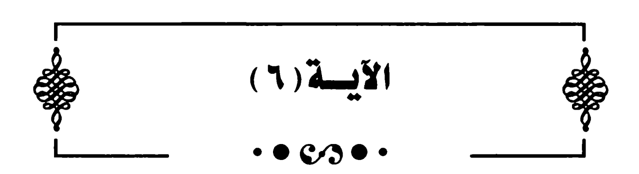
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وُجوبُ تَقْديمِ الأَهَمِّ فالأَهَمِّ في الدَّعْوَة إلى الله؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ أوَّلَ ما دعا هؤلاء إلى التَّوْحيدِ لم يَقُلْ: صَلُّوا ولا زَكُّوا ولا صوموا ولا حُجُّوا، بل دعاهم إلى التَّوْحيدِ، وهذا هو شأن القُرْآنِ، وهذا هو شأْنُ سُنَّة الرَّسُولِ ﷺ العَمَلِيَّة، فإنَّهُ لَمَّا بَعَثَ معاذًا إلى اليَمَنِ أَمَرَه أن يدعوَهم أوَّلَ ما يدعوهم إليه إلى شهادةِ أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسول الله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مُكابَرَةُ هؤلاء الذين أنْكَروا تَوْحيد الأُلُوهِيَّة؛ حيث ادَّعَوْا أنَّ الدَّعْوَة إليه من الأُمُورِ العَجيبَةِ جدًّا؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وكما قلتُ آنفًا: إنَّ مَن وَصَف الحقَّ بأوصافِ الباطِلِ فإنَّ حَقيقَتَه أن تَعُودَ هذه الأوصاف إليه، فأيُّهما أشدُّ عَجَبًا: رجلٌ يَدْعو إلى تَوْحيدِ الله، وآخر يدعو إلى الإشْراكِ به ونَفْيِ التَّوْحيدِ؟ أيُّهما أَعْجَبُ؟ ولِهَـذا نقول: والله إنَّ الشَّيْءَ العُجابَ أن تُنْكِروا تَوْحيدَ الله، وأن تَدَّعُوا أنَّ لله شريكًا. هذا هو الشَّيْء العُجابُ، أَمَّا رَجُل يدعو إلى تَوْحيدِ الله الذي دلَّتْ عليه الفِطْرَة، ودلَّتْ عليه الآياتُ الكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة، فإنَّ هذا ليس بعُجاب، بل العُجاب فِعْلُكم أنتم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اسْتِعْمالُ المؤَكِّداتِ في الكَلامِ، وأنَّه من الأَساليبِ اللُّغَوِيَّة؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ﴾ فهم أكَّدوا هذه الجُمْلَة بِمُؤَكِّدَينِ بـ(إنَّ) واللام ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

• • ❁ • •



الآية (٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيةِ دليلٌ على تَخَوُّف هؤلاء من تأْثِيرِ دَعْوَة الرَّسُولِ ﷺ فيهم؛ ولِهَذا كانوا يَتَوَاصَوْن بالصَّبْـر على آلِهَتِهم، وكانوا يَتَواصَوْن بالبَقاءِ والثَّباتِ على طَرِيقَتِهِم، وكانوا يَتواصَوْن بالهُروبِ من الأماكن التي يُدْعى فيها إلى التَّوْحيدِ، كُلُّ هذا يؤخَذُ من قوله: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ أهْلَ الباطِلِ يَحُثُّون على باطِلِهم، ويُحافِظون عليه ويَخافون مِن تَزَعْزُعِه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ وهكذا أهْلُ الباطِلِ تَجِدُهُم دائمًا يَحوطون باطِلَهُم بالسِّيَاجِ الذي يَمْنَع من الوصولِ إليه على وَجه يُمَزِّقُ هذا الباطِلَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ للاجْتِماعِ على الشَّيْء تأثيرًا في بقائِهِ وثَباتِهِ؛ تُؤْخَذ من التَّواصي بالثَّباتِ على ما هم عليه، والصَّبْر على آلِهَتِهم، ولا شَكَّ أنَّ العَمَل الجماعِيَّ أكثَرُ تأثيرًا من العَمَل الفردِيِّ مهما كان الفَرْدُ في القُوَّة؛ ولِهَذا أمر النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأن نتزَوَّج

الوَدُودَ الوَلُودَ من أَجْلِ كَثْرَةِ الأُمَّةِ[1]، فإنَّ الكَثْرَة لها تأثيرٌ عظيم.

ولِهَـذا امْتَنَّ الله بها في كتابِهِ على بني إسْـرائيلَ؛ حيـث قال: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِـيرًا﴾ [الإسراء:٦]، وذكَّر شُعَيبٌ قَوْمَهُ بها؛ حيـث قال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، والعامَّة يقولون: الكَثْرَةُ تَغْلِبُ الشَّجاعَةَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقول قولًا يعني به ما يقول؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإِنْسَانَ إذا عَنَى ما يقول فإنَّ تَأْثيرَه في المخاطَـبِ أكْثَرُ؛ لأنَّ الخِطابَ يكونُ باللِّسَانِ، واللِّسَانُ وَسيلَةٌ للتَّعْبيرِ عمَّا في القَلْبِ، ثم إنْ كان اللِّسَانُ يَعَبِّرُ عمَّا في القَلْبِ حَقيقَةً، فإنَّ الوَسيلَةَ التي تتَلَقَّى هذا القولَ، وهي الآذان، تُوَصِّل ما تسمع إلى القَلْب؛ ولِهَـذا يقول العامَّة: إذا خرج الكَلامُ من اللِّسَانِ فلنْ يَتَجاوَزَ الآذانَ، وما خرج مِنَ القَلْبِ نَفَذَ إلى القلب.

وهذا صحيحٌ؛ أنَّ القولَ الخارِجَ من القلب يؤثِّر أكثَرَ بكثيرٍ من القَوْلِ الخارِجِ من اللِّسَانِ، وأَضْـرِبُ لذلك مثلًا: لو قام رَجُلان يَعِظانِ النَّاسَ؛ أَحَدُهُما يَعِظُ من قلبٍ، وتَشْعُر أنَّه يتكلَّمُ من أعماق قَلْبِه، ويَظْهَر أثَرُ قَوْلِه على صفحات وَجْهِه، والآخَرُ أَبْلَغُ منه وأشدُّ تَرْصيعًا للكلامِ وتَنْميقًا له، لكنَّ قَوْلَه يَخْرُج من لسانِهِ فقط، وقَلْبُه على خلاف ذلك، أو على الأقل لا يُؤْمِنُ بما يقول، فالأَوَّلُ أشدُّ تأثيرًا.

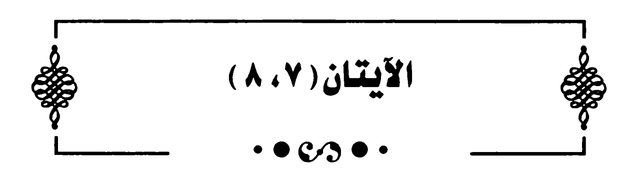
ولو قام عاميٌّ يتكَلَّمُ بكلام عامِّيٍّ لكن من أعماقِ قَلْبِه تأثَّر النَّاسُ به أكثر مِمَّا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم (٢٠٥٠)، والنسائي: كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، رقم (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٥٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لو تكلَّم رجلٌ فصيحُ اللِّسان قويُّ البيَانِ، لكنْ قلْبُهُ خالٍ مِمَّا يقول، وهـذا الشَّيْء مُشاهَدٌ؛ ولهـذا قال الكافرونَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يعني: يُقال ويُرادُ حَقيقَةً، فَهُمْ لقُـوَّةِ إرادَةِ النَّبيِّ ﷺ لِما يقـول، كانوا يخافون من هـذه الإرادَةِ ويقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ والله أعْلَمُ.

• ● ❁ ● •



الآيتان (٧، ٨)

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٧-٨].

•●○●•

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حاكيًا عن قُرَيْشٍ ما كانوا يَتَواصَوْن به من الصَّبْر على آلِهَتِهم والثَّباتِ عليها، نقل عنهم من جُمْلَة كلامِهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ما سَمِعْنا بهذا، والمشارُ إليه التَّوْحيدُ؛ أي: أنَّه لا إلَهَ إلا اللهُ ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ المِلَّة: هي الدين الذي يكون عليه الإِنْسَانُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣]، وتُطْلَقُ المِلَّة على الحقِّ وعلى الباطِلِ، فالكُفَّارُ على مِلَّةٍ، والمسلمون على مِلَّةٍ، وفي كلام أَهْلِ الفِقْهِ في الفرائِضِ: لا يَتَوارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْـنِ، وجاء في ذلك حديثٌ عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]، فالمِلَّةُ هي الدِّينُ الذي يكون عليه المَرءُ من عقائِدَ وعِباداتٍ وأخلاقٍ.

قوله: ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مِلَّةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ] لأنَّ عيسى هو آخِرُ الرُّسُلِ قبل مُحمَّدٍ ﷺ، لم يكن بَيْنَه وبين محمَّدٍ ﷺ نبيٌّ، وما قيل عن نُبُوَّة بعضِ العَرَبِ؛ مثل خالِدِ بنْ سِنان أو غَيْره فإنَّهُ لا صِحَّةَ له؛ وذلك لأنَّ العَرَبَ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٨)، وأبو داود: كتاب الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر؟، رقم (٢٩١١)، وابن ماجه: كتاب الفرائض، باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، رقم (٢٧٣١)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ليس فيهم رسولٌ إلا إسماعيلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومُحَمَّدٌ ﷺ، وما سوى ذلك فكُلُّ ما يُدَّعَى من أنَّ في العَرَب رسولًا أو نبيًّا فهو كَذِبٌ.

يقول: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ﴾ أي: مِلَّة عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذلك أنَّ الذي سَمِعوه في مِلَّة عيسى هو أنَّ الله ثالِثُ ثَلاثَةٍ، وهذا ليس بتَوْحيدٍ، والعَجَبُ من ضَلالِ النَّصارَى؛ حيث يقولون: إنَّنا نوحِّدُ الله، وهم يقولون: إنَّ الله ثالِثُ ثلاثَةٍ، فأينَ التَّوْحيد في ثلاثَةٍ، لا يُمْكِنُ أن تجعل الثَّلاثَةَ واحدًا؟!

ولِهَذا يُعْتَبَر هذا من أضَلِّ ما ضَلَّ فيه النَّصارى، وهم -كما هو مَعْلومٌ- ضالُّونَ، ولكنَّ هذا من أشَدِّ ما يكون من الضَّلالِ، كيف تقول: إنَّكَ مُوَحِّدٌ وأنت تقول: إنَّ اللهَ ثالِثُ ثلاثةٍ: مَريَم وابْنها والله، فالعَرَبُ الذين في عَهْدِ الرَّسُول ﷺ ما سَمِعوا في مِلَّة عيسى تَوْحيدًا، وإنَّما سَمِعوا فيها تَثْليثًا، فكأنَّهم يقولون: أنتَ يا مُحَمَّدُ، أتَيْتَ بمِلَّةٍ لم تكُنْ لِمَن قبلك؛ فالذين من قَبْلِك آخِرُهم المِلَّة النَّصْرانِيَّة، وهم لا يقولون بالتَّوْحيدِ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ إنْ: يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] وعلى هذا فَهِي نافِيَة، وعلامَةُ (إن) النَّافِيَة أن يأتي بعدها الإثباتُ بـ(إلَّا) أو نَحْوِها، وهنا أتى بعدها الإثباتُ بـ(إلَّا).

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: ما هذا إلا اخْتِلاقٌ، و(إنْ) تأتي في اللُّغَة العَرَبِيَّة على أوجه: نَافِيَة، وزائِدَة، وشَرْطِيَّة، ومُخَفَّفة من الثَّقيلَة، فهنا (إنْ) نافِيَة، وفي قولك: إنْ أَكْرَمْتَني أَكْرَمْتُك؛ شَرْطِيَّة، وفي قَوْلِه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢] نافِيَة؛ إذا أَثْبَتَّ (إلَّا) فهي نافِيَة، وفي قول الشَّاعِرِ[1]:

---

(١) البيت للطرماح بن حكيم الطائي، ديوان الطرماح (ص:٢٨٠)، انظر: شرح الكافية لابن مالك (١/ ٥٠٩).

أَنَا ابْنُ أُبَاةِ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

إنْ مالِكٌ: مُخَفَّفَةٌ من الثَّقيلَةِ، وفي قول الشاعر(١):

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبًا وَلَا صَرِيفًا وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: [﴿إِنْ﴾: ما ﴿هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: كَذِبٌ] هذا المشارُ إليه ما جاء به الرَّسُولُ ﷺ من التَّوْحِيدِ، وقولُهُ: ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي إلَّا كَذِبٌ، يقال: اخْتَلَق الكَلام؛ أي: افْتَراه وكَذَبَه، وهذا بناءٌ مَبْنِيٌّ على قوله فيما سبق: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، والكَذِبُ لا يأتي إلا بالكَذِب والاخْتِلاق.

ولَمَّا أنْكَروا التَّوْحيدَ أَنْكَروا الرِّسالَةَ أيضًا، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هذا الاسْتِفْهامُ للنَّفْيِ، لكِنَّه أتى بِصيغَة الاسْتِفْهامِ مُبالغةً في نَفْيِه، كأنَّهم يتعجَّبون كيف يُنْزَل عليه الذِّكْرُ من بيننا ولم يُنْزَل على أحدٍ غَيْرِه؟! وهذا كقوله تعالى حكايةً لِقَوْلِهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] القَرْيَتَيْنِ: هما مَكَّةُ والطَّائِفُ.

يقولون: لولا نُزِّل هذا القُرْآنُ على رجلٍ من الأَكابِرِ والأَشْرافِ، لا على هذا الغُلامِ الذي يُعْتَبَرُ من أصْغَرِ القَوْمِ، فكيف يُنْزَلُ عليه الذِّكْرُ من بيننا؟

وقوله: ﴿أَءُنزِلَ﴾ ذكر المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فيها قراءاتٍ؛ قال: [بتحقيق الهَمْزَتَينِ] أي: همزةِ الاسْتِفْهامِ وهَمْزَة الفِعلِ، والتَّحْقيقُ أن تَقْرَأَه هكذا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [وتَسْهيلِ الثَّانية] تسهيلُ الثَّانية بأن تَمُرَّ عليها مرًّا فلا يظهر أَنَّكَ حَذَفْتَها ولا أَنَّكَ بيَّنْتَها،

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

[وإدخالِ أَلِفٍ بينهما على الوَجْهَينِ] أي: وَجْهَيِ التَّحْقيقِ والتَّسْهيلِ، أَلِف بينهما؛ أي: بين الهَمْزَتيـنِ؛ فتقول على قـراءة التحقيق (أَأُنْزِلَ) وعلى قـراءة التسـهيل «آانْزِلَ» فالقراءات إذن أَرْبَعٌ: تحقيقُ الهَمْزَتَيـنِ بلا أَلِفٍ، وتحقيقُ الهمزَتَيـنِ بأَلِفٍ، وتسهيلُ الثَّانية بدون ألفٍ، وتسْهيلُها مع أَلِفٍ.

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ عليه: على مُحَمَّدٍ ﷺ الذي جاء بهذا القُرْآنِ الذي يُذَكِّرُهم به. ﴿ٱلذِّكْرُ﴾: القُرْآنُ، وهذا إِقْرار منهم بأن القُرْآن ذِكْرٌ، وإن كان يُحتَمَل أن يكونوا قالوه على سبيل الاسْتِهْزاء والتَّهَكُّم، وأَنَّهم لا يُؤْمِنون بأَنَّه ذِكْر، وأَيًّا كان فالمقصودُ بذلك نفْيُ أن يكون مُحَمَّدٌ ﷺ هو الرَّسُولَ.

يقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وليس بأَكْبَرِنا ولا أَشْـرَفِنا] ويريدون أن يكون نزولُ القُرْآنِ على أكْبَرِهم وأَشْرَفِهم، ولكن الذي نَتيَقَّنُ أَنَّه لو نزل على أَشْرَفِهم وأَكْبَرِهم لكَذَّبوا أيضًا، لكَذَّبوا كمـا قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام:٨-٩].

فهم معانِدون لا يُريدونَ الحَقَّ، ونعلم أَنَّه لو نُزِّلَ على غَيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ لطلبوا أن يكون نُزِّلَ على غَيْرِه؛ لأَنَّهم لم يَنْفُوا الرِّسالَةَ حَقيقَةً من أجل شخصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فإِنَّ شَخْصِيَّتَه عندهم من أفضَلِ الشَّخْصِيَّات، وأقواها أمانةً، وأَحْسَـنِها خُلُقًا، ولكن يقولون هذا على سبيل العِنادِ والمُكابَرَة، فهو كقولهم لما حُدِّثوا بالبَعْـثِ: ﴿قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥].

وهذا مكابرة منهم؛ لأَنَّهم لم يُحدَّثوا بالبَعْـثِ الآن، وإِنَّما حُدِّثوا بالبَعْـثِ يَوْمَ القيامة، فلم يأتِ الموعِدُ الذي حُدِّد للبَعْث حتى يتحَدَّوْا بهذا التَّحدِّي، فيقال لهم:

إنَّ الله يُميتُكم ثم يُحْييكم ثم يَجْمَعُكم إلى يَوْمِ القيامة، والرُّسُلُ ما قالت لهم: إنَّكم تُبْعَثون الآن حتى تقولوا: هاتوا آباءَنا، وإنَّما يقولون: ستُبْعَثون يَوْم القيامة، وسيأتي الله بآبائهم ومَن سَبَقَهم.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليس بأَكْبَرِنا ولا أَشْرَفِنا]؛ أَمَّا قوْلُهم: ليس بأَكْبَرِنا، إن كانوا قالوه فهم صادِقون، فالرَّسُولُ ليس بأَكْبَرِهم سِنًّا، فيهم من يكبُرُه سِنًّا، وأَمَّا قوْلُـهم: ولا أَشْرَفِنا، فهم كاذبون؛ فإن مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَفُ الخَلْقِ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَـةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَـةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] فلم يجعلْ رسالَته إلا في أحَقِّ النَّاس بها، وأَجْدَرِهم بها، وأَوْلَاهم بها.

يقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لم يُنْزَلْ عليه] هذا تَفْسيرٌ للاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: إنَّ الاسْتِفْهامَ للنَّفْيِ، لَكِنَّه جاء على سبيل الاسْتِفْهامِ للتَّعَجُّب والاسْتِبْعادِ من أن يُنْزَل عليه الذِّكْرُ من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ بل: إِضْـرابٌ لإبطالِ ما ادَّعَـوْه من كَوْنِهِم يريدون أن يُنَزَّل القُرْآنُ على أَشْرَفِهم، يقول: هم في شكٍّ مِن ذِكْري، فكيف يقولون: لو نُزِّل على أَشْرَفِنا، لو نُزِّل على غير مُحَمَّدٍ، والشَّاكُّ في الأَصْلِ لا يَطْلُب الفَرْعَ أصلًا، فإذا كانوا في شكٍّ من نزول هذا الذِّكْر، بِقَطْعِ النَّظَر عن كَوْنِهِ من مُحَمَّدٍ ﷺ فكيف يقولون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ وعلى هذا فقَوْلُهم ليس مَبْنِيًّا على أصلٍ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بنحوه.

يعني أنَّهُم لم يُؤْمِنوا بهذا الذِّكْر أصلًا فضلًا عن أن يكون أُنْزِلَ على مُحَمَّد أو غيره.

﴿مِّن ذِكْرِى﴾ قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَحْيِي؛ أي: القُرْآنِ؛ حيث كذَّبوا الجائِيَ به]، فإنَّ مَن كَذَّب من جاء بالشَّيْء فإنَّهُ مُنْكِر للشَّيء؛ لأنَّه لو قال لك قائِلٌ: قَدِم فلانٌ اليَوْم، فقُلْتَ: أنت كاذِبٌ، هل تكون مُؤْمِنًا بقدومه؟

لا، لا تكون مُؤْمِنًا بقُدُومِه، وكيف تكون مُؤْمِنًا بقدومه وهو لم يأْتِكَ إلا من هذا الطَّريقِ الذي زَعَمْتَ أنَّ صاحِبَها كذَّاب؟ ولهذا إذا كان هذا الذِّكْر لم يأتِ إلا عن طَريقِ مُحَمَّـدٍ ﷺ، وقالوا: إنَّهُ كاذِبٌ، وإنَّهُ ليس برسولٍ، وليس له حَقٌّ في الرِّسالَة؛ لأنَّه يوجد مَن هو أحَقُّ منه، فكيف تقولون بأنَّه ذِكْرٌ؛ إِذَن هم في شَكٍّ من هذا الذِّكْر، وهل هذا الشَّكُّ حَقيقَةٌ أو على سبيل العِناد؟

الظَّاهِر -والله أعلم- أنَّه على سبيل العِنادِ، لكنَّ منهم من يشكُّ لقُوَّةِ الدِّعايَة المُضادَّة، ولا سيما إذا جاءت من أكابِرَ، فسوف يلحَقُ العامَّةَ شَكٌّ من هذا القَوْلِ.

وقوله: ﴿مِّن ذِكْرِى﴾ أي: من الذِّكْرِ الذي أَنْزَلْـتُ، وهو القُرْآنُ؛ والشَّكُّ هو التَّرَدُّد وعدَمُ الجَزْمِ.

وقد قيل: إنَّ الإدْراكَ يَنْقَسِم إلى خَمْسَة أقسامٍ: إدراكُ الشَّيْء على ما هو عليه إدراكًـا جازِمًا، وإدراكُ الشَّيْء على خِـلافِ ما هو عليه، وإدراكُ الشَّيْء بِرُجْـحانٍ، وإدراكُ الشَّيْءِ بِمَرْجُوحِيَّة، وإدراكُ الشَّيْءِ على السَّوَاء، فهذه خَمْسَة أقسامٍ.

فإدراك الشَّيْء على ما هو عليه إدراكًا جازِمًا يُسَمَّى عِلْمًا؛ كَإِدْراكِنا أنَّ الواحِدَ نِصْفُ الاثْنَيْنِ، هذا عِلْمٌ.

وإدْراكُ الشَّيْءِ على خلاف ما هو عليه جَهْلٌ مُرَكَّبٌ؛ مثل: أن تُدْرِك أنَّ غَزْوَةَ

بَدْرٍ مثلًا في السَّنَةِ الثَّالِثَةِ للهِجْرة، هذا نُسَمِّيهِ جهلًا مرَكَّبًا، وعدم إِدْراكِهِ بالكُلِّيَّة هذا جَهْلٌ بَسيطٌ.

وإدراك الشَّيْءِ مع رُجْحان ظَنٌّ، وإدراكُهُ مع المَرْجُوحِيَّـة وَهْمٌ، وإدراكه مع التَّساوِي شَكٌّ.

فهذه سِتَّةُ أقْسامٍ: إدراكُهُ على ما هو عليه، وعلى خلافِ ما هو عليه، وعَدَمُ الإدراكِ بالكُلِّيَّة، والإدراكُ بِرُجْحانٍ، والإدراكُ بِمَرْجُوحِيَّة، والإدراك بالتَّساوي.

والشَّكُّ أحيـانًا يُراد به التَّسـاوي، وأحيانًا يُطْلَق على الرَّاجِـح والمرجـوح والمُساوي، وهذا ما يكون في كـلامِ الفُقَهَاء عندما يتحدَّثون عن الشَّكِّ في الحَـدَث أو الشَّكِّ في نَجاسَةِ الطَّاهِر، فإنَّهُم يريدون الشَّكَّ الرَّاجِحَ والمرجوحَ والمُساوِيَ؛ أي: بِمَعْنى أنَّه إذا شكَكْتَ في نَجاسَةِ الماءِ الطَّاهِرِ ولو غَلَـبَ على ظَنِّـكَ أنَّه نَجِسٌ فهو طاهِرٌ، وإذا شَكَكْتَ هل أحدَثْتَ، ولو غَلَبَ على ظَنِّكَ أنَّكَ أَحْدَثْتَ فأنتَ طاهِرٌ، وعلَّلوا ذلك بأن الرَّسُولَ ﷺ قال: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»[1] يعني حتى يتيَقَّنَ، ولا عِبْرَة بالظَّنِّ.

يقول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بل: للإِضْراب الانْتِقاليِّ لا الإِبْطاليِّ ﴿لَمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [لَمْ] وهذا تَفْسيرٌ بِبَعْضِ المَعْنى؛ لأنَّ (لَمَّا) و(لَمْ) تشتركان في النَّفْيِ لَكِنَّهما تختلفان فيما عداه؛ لأن (لَمْ) لنفي غير المتَوَقَّع، و(لَمَّا) لنَفْيِ المتوَقَّع القريبِ، فإذا قلْتَ: لَمَّا يَقُمْ زَيْدٌ، فهو نفيٌ لقيامِهِ على وَجْهٍ يُتَوَقَّعُ منه القيامُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث..، رقم (٣٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن قُربٍ، وعلى هـذا فقوله: ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لم يذوقوه ولكن سيذوقـونَه قريبًا.

قالوا: و(لمَّا) على أوجه: تأتي نافِيَةً فتَجْزِمُ الفعل المضارِعَ كما تجزِمُه (لم)، وتأتي بِمَعْنى حينَ، وتأتي شَرْطِيَّة، وتأتي استثنائية.

هذه أربعةُ أَوْجُه؛ تأتي نافِيَة كنَفْيِ (لم) لَكِنَّها تَخْتَلِفُ عنها بأنَّ منفِيَّ (لم) لا يُتوَقَّع، ومَنْفِيَّها يُتوَقَّع قريبًا؛ مثل هذه الآيَة، وتأتي شَرْطِيَّة؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود:٨٢]، وتأتي اسْتِثْنَائِيَّة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْها حافِظٌ، وتأتي بِمَعْنى (حيـن) فتقول: قَدِمْتُ البَلَدَ لمَّا طَلَعَتِ الشَّمْس؛ أي: حينَ طَلَعَتِ الشَّمْس.

قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ يَذوقوا أَصْلُها يَذوقونَ لكن حُذِفَتِ النُّون للْجَزْمِ؛ لأن (لمَّا) من حروف الجَزْمِ.

وقوله: ﴿عَذَابِ﴾ قد يُشْكِلُ على طالِبِ العِلْمِ، وهو أنَّ الفِعْلَ واقِعٌ عليه، وهو مع ذلك لم يُنصَبْ؛ أي لم يُقَلْ: بل لمَّا يَذوقـوا عَذَابًا، فكيـف توجيهُ ذلك؟ كيـف لم يَنْصِبْ ﴿عَذَابِ﴾ مع أنَّ الفِعْلَ واقِعٌ عليها؟

والجَوَابُ عن ذلك أن نقول: إنَّ ﴿عَذَابِ﴾ أصلها: عَذَابِي بالياء، والمُضافُ إلى ياءِ المُتكلِّم تُقَدَّر عليه الحركاتُ؛ ولذلك لا بدَّ أنْ يُكْسَرَ من أجل مناسَبَةِ الياءِ، فتكون الحركاتُ مُقَدَّرة عليه، وعلى هذا فنقولُ: عَذَابِ: مَفعولُ (يَذوق) مَنصوب بفتحة مُقدَّرة على ما قبل ياءِ المُتكلِّم المَحذوفَة تَخْفيفًا، مَنَعَ من ظهورها اشتِغالُ المَحَلِّ بِحَرَكَة المناسَبَة، والياء هنا حُذِفَت للتَّخْفيفِ، وهذا كثيرٌ في القُرْآن واللُّغَة العَرَبِيَّة؛ أن تحذِفَ

ياءَ المُتكلِّم للتَّخْفيفِ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] والتَّقْديرُ: المُتعالِي، ومن والِي.

وقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ العَذَابُ ليس مطعومًا يُذاقُ، ولكنَّ الإصابَةَ به ذَوْقٌ، وذَوْقُ كُلِّ شيء بِحَسَبِه، فإذا أعطيتُك قطعةَ لَحْم ومَضَغْتَها فهذا ذَوْقٌ، وإذا ضَرَبْتُك وأحْسَسْتَ بالضَّرْب فهذا ذَوْقٌ، فذَوْقُ كُلِّ شيء بحَسَبِه، وليس ذوقُ العَذَابِ كذوق الطَّعام والشَّراب، بل هو ذَوْق مُناسِب له.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولو ذاقوه لصدَّقوا النَّبِيَّ ﷺ فيما جاء به] ولكنَّ هذا التَّصْديقَ لا يَنْفَعُهم؛ لأنَّه إذا صَدَّقَ الجاحِدُ بعد نزول العَذَاب به، فإنَّ ذلك لا ينفَعُه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المُكَذِّبين للرَّسُولِ ﷺ فيما جاء به من التَّوْحيدِ ليس عندهم دليلٌ إلا ما كان عليه آباؤُهُم؛ لِقَوْلِهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء مُكابِرون مُعانِدون؛ فمع كَوْنِهم لا دليل عندهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كُلَّ إِنْسَان ليس عنده عِلْم شرعِيٌّ فإنَّهُ يلجأ إلى ما كان النَّاسُ عليه في العادة، وهذا كما هو فيمَن سبق فهو فيمَن حَضَر؛ كثير من النَّاس تنهاه عن المُنْكَر، فيقول: هذا الذي مشى عليه النَّاس، وهذا ليس بحُجَّة، وهذا كما أنَّه سابِقٌ

فهو أيضًا لاحق، فمن النَّاس من إذا أَنْكَرْت عليه المُنْكَر، قال: هـذا ما زال النَّاس عليه، أو يقول: ما سَمِعْنا بهذا، ومنه قَوْلُ بعض العامَّة إذا نُبِّهوا على شيء لم يكونوا يَعْرِفونه، قالوا: هـذا دينٌ جَديدٌ، ما سَمِعْنا بهذا، وهـذا ليس بحُجَّة. وإنَّما الحُجَّة الدَّليلُ القائِمُ من كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاء يريدون أن يكون الشَّرْع تابعًا لأَهْوائِهِم؛ يأتي الوحيُ من يشاؤون، ويمتنع عمَّن يشاؤون؛ لِقَوْلِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ صاحِبَ الباطِلِ لا يعرف أنَّ حُجَّتَه حُجَّةٌ عليه؛ لأنَّ قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هي حُجَّة فيما لو نزل الذِّكْر على من يشاؤون؛ لأنَّه لو نزل على من عَيَّنوه وأرادوه، لقال غيرهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: كُلُّ مُبطِلٍ يَحْتَجُّ بِحَقٍّ لكنَّ اسْتِدْلالَه به باطِلٌ، فإنَّهُ لا حُجَّة له.

ومن ذلك ما يَحْتَجُّ به أَهْلُ التَّحْريف في باب الصِّفات أو غيـرها من الأَدِلَّـة الصَّحيحَة التي ليس لهم فيها اسْتِـدْلال، فمثلًا أَهْلُ التَّعْطيل يستـدِلُّون لتَعْطيلِهم بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ومـن المَعْلوم أنَّه عنـد التأمُّل يكون هذا الدَّليلُ حُجَّةً عليهم؛ لأنَّ نَفْيَ المماثَلَةِ يدل على ثُبُوتِ أَصْلِ المَعْنى، ولو لم يكن أصلُ المَعْنى ثابتًا لم يكن لنَفْيِ المماثَلَة فائِـدَة. وهكذا: كُلُّ مُبْطِلٍ يَحْتَجُّ لباطله بحُجَّة صَحيحَة لكنَّ اسْتِدْلالَه بها غيرُ صحيحٍ، نَجِدُ أنَّ هذه الحُجَّة حُجَّةٌ عليه.

وقد ذكر شَيْخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (دَرْءُ تَعارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ): المَعْروفُ بالعَقلِ والنَّقْلِ أنَّه مُلْتزَم بأنَّه ما مِن صاحِبِ باطِلٍ يَحْتَجُّ بآيَةٍ أو حديثٍ صَحيحٍ إلا كان دليلُه حُجَّةً عليه وليس له.

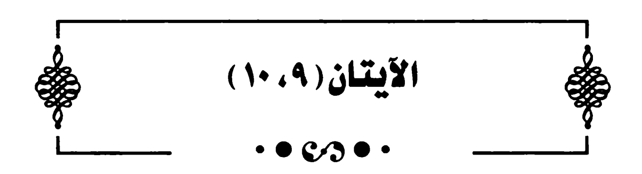
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاء الذين اقترحوا هذا الاقْتِراحَ وأَنْكَروا أن يُنْزَلَ الوَحْيُ على النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هم في شَكٍّ مِمَّا يدَّعون، فإذا كانوا في شَكٍّ فكيف يَقْتَرِحون؟ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المُكَذِّبين للرُّسُلِ يُوشِكُ أن يَنْزِلَ بهم العَذابُ؛ لِقَوْلِه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ العَذابَ إذا نزل فإنَّهُ يكون ماسًّا للإِنْسَان مؤَثِّرًا فيه؛ لأنَّه عبَّر عن ذلك بِقَوْلِه: ﴿يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الكَلِماتِ تُفَسَّر بحَسَب السِّيَاق، فالذَّوْق في الأصل إنَّما هو للطَّعام والشَّراب، ولكنْ قد يُراد به ما أصاب الإِنْسَان إصابةً مباشِرَةً فإنَّهُ يُسَمَّى مَذُوقًا.

• • ۞ • •



الآيتان (٩، ١٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص:٩-١٠].

قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾، هذا كقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. قال بعدها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢] حتى يقولوا نَجْعَلُ النُّبُوَّةَ في فلان دون فلان، وهنا لَمَّا قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ قال بعدها: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾.

يعني: هل هم الذين يَقْسِمون هذه الخَزائِنَ فيَجْعَلون الرِّسالَةَ في فلان دون فلان، و(أم) هنا بِمَعْنى (بل) والاسْتِفْهامُ يُرادُ به النَّفْيُ، وعلى هذا فتَقْديرُ الكَلام: بل أَعِنْدهم خزائِنُ رَحْمَةِ ربِّكَ؛ أي: ليست خزائِنُ رَحْمَةِ الله عندهم حتى يقولوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ولماذا لم يَنْزِل على فلان أو فلان؟

قوله: ﴿خَزَآئِنُ﴾ جَمْعُ خَزينَة، والخَزينَة: مُسْتَوْدَعُ الشَّيْء يُسَمَّى خَزينة، والرَّحْمَة: رَحْمَةُ ربِّكَ؛ أي: ما يكون بِرَحْمته من الأرزاق الحِسِّيَّة والمَعْنوِيَّة؛ والجَواب: لا، ليس عندهم خزائِنُ رَحْمَة ربك.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الغالِبِ] ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ أي: الكثيرِ الهِباتِ،

وهي العطايا. قال: ﴿رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ فأضاف الرَّحْمَةَ إلى رَب، ثم أضاف الرُّبُوبِيَّةَ إلى النَّبِيِّ ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ اعتناءً به وبيانًا أنَّ ما حصل له من الرِّسالَة فهو بِمُقْتَضى رُبُوبِيَّة الله الخاصَّة له.

ولهذا نقول: أخَصُّ أنْواع الرُّبُوبِيَّة ما كان للرُّسُلِ؛ كما أن أخَصَّ العُبودِيَّة عُبودِيَّةُ الرُّسُلِ؛ ولهذا أضاف الرُّبُوبِيَّة إليه؛ لأن أخصَّ الرُّبُوبِيَّة رُبوبِيَّة الله عَزَّوَجَلَّ لِرُسُلِه وعلى رأْسِهِم مُحَمَّد ﷺ؛ فكأنَّه يُشيرُ إلى أنَّ رِسالَةَ الله للرَّسُولِ ﷺ من رَحْمَتِه به.

وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ فيه مناسَبَةٌ عَظيمَة، العزيز لمُقابَلَةِ هؤلاء الذين كانوا في عِزَّةٍ وشِقاقٍ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ عِزَّةَ الله فوق عِزَّتِهم وأَنَفَتِهم وحَمِيَّتِهم، وأنَّه غالِبٌ لهم وقاهِرٌ لهم، والوَهَّاب بالنسبة للرَّسُولِ ﷺ؛ يعني أنَّه وَهَبَه النُّبُوَّة.

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّهُ الغالِبُ، وهذا أحَدُ مَعانيهِ، ولكنَّ اللَّفْظ يَشْتَمِل على معانٍ أكثَرَ؛ فالعزيزُ يدُلُّ على ثلاثة أنْواعٍ من العِزَّة: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة الامْتِناعِ، وعِزَّة القَهْر.

فعِزَّةُ الامْتِناع: تعني امْتِناعَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن كُلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ، فهو عَزيزٌ يَمْتَنِعُ عليه كُلُّ نَقْص وعَيْب.

وعِزَّةُ القَدْرِ: تعني عِزَّةَ الشَّرَف والسِّيادَة؛ فالسِّيادَة المُطْلَقَة لله عَزَّوَجَلَّ، والعِزَّةُ المُطْلَقَة لله عَزَّوَجَلَّ؛ يقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

والثالِثُ: عِزَّةُ القَهْر: وهي عِزَّة الغَلَبَة؛ أي: إنَّه غالِبٌ لِكُلِّ أَحدٍ، فعِزَّةُ القَهْر تعني عِزَّةَ الغَلَبَة وأنَّه غالِبٌ لِكُلِّ أَحدٍ، ومن أشعار الجاهلية[١]:

---

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

أَيْــنَ المَفَــرُّ وَالْإِلَــهُ الطَّالِــبْ وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِـبْ

فإِذَن: يكونُ تَفْسيرُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ للعَزيزِ بالغالِبِ تفسيرًا للَّفْظِ ببعْضِ المعانِي، وهو تَفْسيرٌ قاصِرٌ؛ لأنَّنا ذَكَرْنا فيما سَبَقَ أنَّ كُلَّ من فَسَّر القُرْآن ببعض ما يدلُّ عليه فإنَّ تَفْسيرَه قاصِرٌ، لكن أحيانًا يُفَسَّر القُرْآنُ بِبَعْضِ ما دلَّ عليه تَمْثيلًا لا حَصْرًا.

كَتَفْسيرِ بَعْضِهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢] فسَّـرَ الظَّالِمَ لِنَفْسِـه بأنَّه الذي يُؤَخِّرُ الصَّلاة عن وقتها، والمُقْتَصِد الذي يُصَلِّيها في آخِرِ الوَقْتِ، والسَّابِق بالخَيْراتِ الذي يُصَلِّيها في أوَّلِ الوَقْتِ.

وبَعْضُهُم فسَّر الظَّالِم لنَفْسِه بالذي لا يُزَكِّي، والمقْتَصِد بالذي يُزَكِّي ولا يَتَصَدَّق، والسَّابِق بالخَيْرَاتِ بالذي يزَكِّي ويتَصَدَّق.

فهذا التَّفْسيرُ نقول: لا شَكَّ أنَّه قاصِرٌ، لكن لم يُرِدِ المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المَعْنى مُنْحَصِر في هذا، وإنَّما أراد بذلك التَّمْثيلَ؛ يعني: مَثَلُ الظَّالِمِ لنَفْسِه مَثَلُ الذي لا يُزَكِّي، والمقْتَصِد مِثْل الذي يُزَكِّي ولا يتصَدَّق، والسَّابِقُ بالخَيْراتِ مِثْل الذي يُزَكِّي ويتَصَدَّق.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ من النُّبُوَّةِ وغَيْرِها، فيُعطونَها من شاؤوا؟] هذا مُفَرَّعٌ على النَّفْيِ؛ يعني: هل عندهم خَزائِنُ الله من النُّبُوَّة وغَيْرِها فيُعطونَها من شاؤوا ويَمْنَعونَها من شاؤوا؟ الجَوابُ: لا.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أم هنا للإِضْرابِ، فهي بِمَعْنى بل والهَمْزَة، يعني بل أَلَهُم مُلْكُ السَّموات والأَرْض؟ وهذا الاسْتِفْهامُ للنَّفْيِ؛ يعني ليس لهم ملك السَّموات والأَرْض، وقوله: ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السَّمواتُ:

جَمْع سَماءٍ، وهو في اللُّغَة العَرَبِيَّة كُلُّ ما علا، فَكُلُّ ما علاك فهو سَماء، ولكنَّ المرادَ به هنا السَّمَواتُ المَعْروفَةُ المَحْفوظَة.

والمَعْروفُ أنَّها سَبْعُ سَمواتٍ كما صرَّحَ الله به في عِدَّة آياتٍ، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي هذه الأَرْضُ المَعْروفة، وهي سَبْعُ أَرَضينَ كما هو ظاهِرُ القُرْآن في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] فإنَّ المِثْلِيَّةَ هنا في العَدَدِ لا في الحَجْم ولا في الكَيْفِيَّة، وكما جاءت السُّنَّة بذلك صريحًا في قولِ النَّبي ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[1].

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بينَ السَّماء والأَرْضِ من المَخْلوقاتِ العَظيمَة؛ كالشَّمْسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والكَواكِب وغَيْرِها مِمَّا لا يَعْلَمُه إلا الله، وجَعْلُ ما بين السَّمَواتِ والأَرْضِ قَسيمًا لهما يدلُّ على أنَّ ما بينهما مَخْلوقاتٌ عَظيمَةٌ تُقابِلُ السَّمَواتِ والأَرْضَ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن زعموا ذلك] أي: أنَّ لهم مُلْكَ السَّموات والأَرْض فهل يَمْلِكون ذلك؟ لا، لا يُمْكِن.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن زَعَموا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾] كأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جَعَلَ قَوْلَه: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جَوابًا لشَرْطٍ مُقَدَّر؛ يعني إن زعموا أنَّ لهم مُلْكَ السَّموات والأَرْض، ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [المَوَصِّلَة إلى السَّماء، فيأْتُوا بالوَحْيِ، فَيَخُصُّوا به من شاؤوا].

قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾ الفاء واقِعةٌ في جوابِ شَرْط مُقَدَّر؛ أي: فإنْ زعموا ذلك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَلْيَرْتَقوا، واللامُ: لامُ الأَمْرِ، وسُكِّنَتْ لوُقوعِها بعد فاءِ العَطْفِ؛ لأنَّ لامَ الأَمْرِ تُسَكَّن إذا وَقَعَت بعد الفاءِ وثُمَّ والواوِ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] هذه بَعْدَ ثُمَّ، ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] هذه بعد الواو، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥] هذه بعد الفاء، بخلاف لامِ التَّعْليلِ فإنَّ لامَ التَّعْليلِ تكون مَكْسورَة ولو وقعت بعْدَ هذه الحُروفِ، كما قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [العنكبوت:٦٦] ولم يَقُلْ: وَلْيَتَمَتَّعُوا؛ لأنَّ اللامَ لِلتَّعْليل.

فلامُ التَّعْليلِ تكون مَكْسورَة دائمًا، ولامُ الأَمْرِ تكون مَكْسورَة إلَّا إذا وَقَعَت بعد الواو والفاء وثُم؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥] فاللامُ هنا للأَمْر.

والظَّاهِرُ أنَّ المُرادَ بالأَمْرِ هنا التَّحَدِّي؛ يعني إن كانوا صادقين فلْيَرْتَقُوا في الأسباب.

والأسباب: جَمْعُ سَبَب وهو كُلُّ ما يُوصِلُ إلى المَقْصود، وهذه الآيَةُ نَظيرُ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥] أي: بِشَيْء يُوصِلُه إلى السَّماء كالحَبْلِ ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥] فهنا قال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فَلْيَجْعَلوا أسبابًا يَرْتَقون بها ويَصِلُون إلى السَّماء. ومَعْلوم أنَّ هذا التَّحَدِّيَ لا يُمْكِن لهم أن يُحَقِّقوهُ.

ثم قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الموصِلَة إلى السَّماء، فَيَأْتُوا بالوَحْي فيَخُصُّوا به من شاؤوا] بناءً على قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني إِذَن فارْتَقُوا إلى السَّماء، وأَنْزِلُوا الوَحْيَ، وخُصُّوا به من شِئْتُم.

ثم قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و(أم) في المَوْضِعَين بِمَعْنى هَمْزَةِ الإنْكارِ]، الإنْكار

الذي بِمَعْنى النَّفْي، ثم قال: ليسَ عِنْدَهم خزائِنُ الله وليس لهم مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ، بل هم خالونَ من هذا كُلِّه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إبطالُ حُجَّةِ هؤلاءِ الذينَ قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وذلك لأنَّ إنزالَ الوَحْيِ على شخصٍ ما هو مِن فَضْلِ الله عليه ومن خزائِنِ رَحْمَته، وهذا لا يَمْلِكُه هؤلاء المقْتَرِحون؛ لأنَّ الأَمْرَ والفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتيهِ من يشاءُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ من أَسْماءِ الله: العزيز والوَهَّاب، وإثباتُ ما تضَمَّناه من صِفَةٍ.

فالعزيز تضَمَّنَ صِفَةً هي العِزَّة، وأقسامها ثلاثة كما مَرَّ علينا في التَّفْسير.

والوَهَّاب تضَمَّن صفة هي الهِبَة الكَثيرَة، وما أكثَرَ هباتِ الله عَزَّوَجَلَّ! وتضَمَّن القُدْرَة؛ لأنَّه لا يَهَبُ إلا القادِرُ، وتضَمَّنَ الغِنَى؛ لأنَّ مَن لا شَيءَ عنده لا يُمْكِنُ أن يَهَبَ، وتضَمَّن الكَرَم؛ لأنَّ البَخيلَ لا يَهَبُ.

ودَلالَةُ الوَهَّاب على الهِبَة من بابِ دَلالَةِ التَّضَمُّن، وعلى الهِبَة والوَهَّابِ من باب دَلالَة المُطابَقَة، وعلى القُدْرَة والغِنى والكَرَم من باب دَلالَة الالْتِزامِ.

فإذَن: في هذا الاسم أَنْواعُ الدَّلالَة الثَّلاثَة، وهي الالْتِزام والمُطابَقَة والتَّضَمُّن، والفَرْقُ بين هذه الثَّلاثَة أنَّ دَلالَة اللَّفْظِ على جَميعِ معناه دَلالَةُ مُطابَقَةٍ، وعلى جُزْءِ مَعْناه دَلالَةُ تَضَمُّن، وعلى اللازِمِ الخارِجِ الذي لا يَدُلُّ عليه بِلَفْظِه لكنْ من لَوازِمِه دَلالَةُ الْتِزامٍ، وأَضْرِبُ لها مثلًا في أَمْرٍ حِسِّيٍّ لِيَتَبَيَّنَ به الأَمْرُ المَعْنَوِيُّ.

هذا بيتٌ يَشْتَمِل على غُرَفٍ ومَجالِسَ وبَراحاتٍ؛ أي: أحواشٍ. دَلالَةُ هذا

البَيْتِ على جَميعِ ما فيه من الغُرَف والمجالِسِ والأَحْواشِ دَلالَة مُطابَقَةٍ، ودَلالَتُه على كُلِّ حُجْرةٍ وَحْدَها، وكُلِّ مَجْلِس وحدَه، وكُلِّ حَوْشٍ وحده، دَلالَةُ تَضمُّن، ودَلالَتُه على أنَّ له بانِيًا دَلالَةُ الْتِزامٍ؛ لأنَّ البَيْتَ لا بدَّ له من بانٍ، فنقول: هذا قد بناه بانٍ، ما هو الدَّليلُ؟ لأنَّ البَيْتَ لا بدَّ له من بانٍ.

فالوهَّابُ مثلًا دَلالَتُه على الاسْمِ والصِّفَة التي هي الهِبَة دَلالَة مُطابَقَةٍ، وعلى الاسْمِ وَحْدَه أو الهِبَة وَحْدَها دَلالَة تَضمُّنٍ، وعلى القُدْرَة والغِنَى والكَرْم دَلالَةُ الْتِزامٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مراعاةُ فواصِلِ الآياتِ لسِياقِ الآيَةِ؛ لأنَّ العزيزَ الوَهَّابَ يُناسِبُ قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ومناسَبَةُ فواصِلِ الآيات لَمِضْمونِ الآيَة دَليلٌ على البلاغَةِ، ولا يَشِذُّ عن هذا شيءٌ؛ ولهذا لما قرأ رَجُلٌ عند أعرابيٍّ: (والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بما كَسَبَا نَكالًا مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) اسْتَغْرَبَ الأعرابيُّ كيف يقول: نكالًا مِنَ اللهِ، ثم يقول: والله غفورٌ رحيمٌ؟ المغْفِرَة والرَّحْمَةُ لا تتناسبان مع النَّكَالِ، فقال الأعرابيُّ للقارئ: أَعِدْ، قال: (والسَّارِقُ والسَّارِقةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بما كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال: أَعِدْ؛ ما هكذا الآيَةُ، قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] قال: الآن؛ عزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ ما قطع، سبحانه وتعالى.

ولهذا قال الله تعالى في سورَةِ المائِدَةِ في الذين يُحارِبونَ الله ورسوله ويَسْعَوْنَ في الأَرْض فسادًا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] فأخذ العُلَماءُ من هذه الآيَةِ أَنَّهُم إذا تابوا قَبْلَ القُدْرَة عليهم سَقَطَ عنهُمُ الحَدُّ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فإذا غَفَرَ لهم ورَحِمَهم، فإنَّهُم لا يُقامُ عليهم الحَدُّ.

وفي هذه الآيَة ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ مُناسَبَة ظاهِـرَة؛ لأنَّ الله ذو رَحْمَة، وذو عِزَّة وغَلَبَة، وذو هِبَة وعطاء، فيُعطي من شاء بما تَقْتَضيه عِزَّته من خزائِنِ رَحْمَتِه.

لكنَّ بعضَ الآياتِ تكـونُ فواصِلُها مخالِفَةً لَمضمونِها فيمـا يَظْهَر، مثل قـولِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدٗا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨].

فهنا جاء قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ جوابًا لِقَوْلِه: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وكان المُتوَقَّع أن تكون الآيَةُ: وإن تَغفِرْ لهم فإنَّكَ أنْـتَ الغفورُ الرَّحيمُ، فاسْتَشْكَلَ بَعْضُ العُلَماءِ هذا، قالوا: كيف يقول: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ولم يَقُلْ: وإنْ تَغْفِرْ لهم فإنَّكَ أَنْتَ الغفور الرَّحيمُ؟

وأُجيـبَ عن ذلك بأنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يَقْتَصِـر على ذِكْـرِ المَغْفِرَة، بل ذَكَـرَ المَغْفِرَةَ والتَّعْذيـبَ، قال: إن تُعَذِّبْهم، وإن تَغْفِرْ لهم، فكان الحُكْمُ الآن متـرَدِّدًا بين المَغْفِرَة والرَّحْمَة، إن نظرنا إلى قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وبين العِزَّةِ والحِكْمَة والحُكْم إذا نظرنا إلى قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾، فصار خَتْمُ القَوْلِ بِقَوْلِه: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَنْسَبَ؛ لأنَّ المغْفِرَة إن حصلت فهي من عِزَّة وحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخَلْقَ لا يملكون خَزائِنَ رَحْمَةِ الله، ولا يَمْلكون السَّمواتِ والأَرْضَ وما بينهما؛ لأنَّ ذلك لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»[1] فخَزائِنُ رَحْمَةِ الله لا يَمْلِكُها أحَدٌ، الذي يملكها هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي حديث ابنِ عبَّاسٍ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»[2].

ويتفرَّعُ على هذه الفائِدَةِ: أنَّه لا يَنْبَغي للإِنْسان أن يُعَلِّقَ رجاءه إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُعَلِّقَ رجاءه بمَخْلوق إلا في الحُدودِ الضَّعيفَة المرسومَة؛ يَجْعَلُ الرَّجاء كلَّه والتَّعَلُّق كلَّه بالله عَزَّوَجَلَّ، وإذا جعل هذا في الله سَخَّرَ الله له المَخْلوقاتِ، حتى البَشَر يُسَخِّرُهم له، لكن إذا تعلَّقَ بِغَيْر الله وُكِلَ إلى مَن تَعَلَّقَ به وَضَاعَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ مِلْكِيَّة الله للسَّموات والأَرْض وما بينهما؛ لأنَّ نَفْيَ مِلْكِ هؤلاء لها دليلٌ على ثبوت المِلْكِيَّة لغيرهم، ولا مالِكَ لهذه إلا الله.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عِظَمُ ما بين السَّماء والأَرْض، ووَجْهُه أنَّ الله جعل ما بينهما قَسيمًا لهما، والقَسيمُ لا بدَّ أن يكون مُعادلًا أو مُقارِبًا لقَسيمِه، لا يُمْكِنُ أن تأتِيَ بِشَيْءٍ عظيمٍ تقارِنُ بينه وبين شيء بعيدٍ منه في العِظَم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحَدِّيهِ هؤلاء المُكَذِّبينَ أن يأتوا بها يدلُّ على أنَّ لهم شيئًا من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

مُلْك السَّموات والأَرْض؛ لِقَوْلِه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّه لا يَنْبَغي التَّحَدِّي إلا بما لا يَسْتَطيعُه الْمُتحدَّى، لماذا؟ لأَنَّكَ لو تَحَدَّيْتَه بِشَيْء يَسْتَطيعُه ثم قام به بَطَلَت حُجَّتُك نهائِيًّا، وهذا يفيدُكَ في باب المُناظَرَة، وفي باب النَّظَر؛ لأنَّ النَّاس ناظِرٌ ومُناظِرٌ، فالنَّاظِرُ هو الذي يتأمَّلُ الأَدِلَّة من ذاتِ نَفْسِه ويحكم عليها، والمُناظِرُ هو الذي يُناقِشُها مع غيره.

فمن فَوَائِدِ النَّظَر والمناظرة أنَّ الإِنْسَانَ لا يَفْرِض شيئًا على وَجْه التَّحَدِّي إلا إذا عَلِمَ أَنَّه غيـر مُمْكِن للمُتحدَّى؛ لأَنَّه لو فَـرَضَ شيئًا يتحدَّى به ثم أتى به المُتحدَّى، بَطَلَت حُجَّتُه وانهارَتْ، وانهارت قُوَّة المُدافعَة والمُهاجَمَة، كما هو مَعْلوم من أن يَرْتَقُوا إلى السَّماءِ، والله أعلم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ بَعْضَ العُلَماء أَخَذَ منها أَنَّه لا يُمْكِن الوُصُولُ إلى القَمَر؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ ثم قال: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ﴾ ومَعْلومٌ أنَّ القَمَر في السَّماءِ، فإذا كان هـؤلاء الذين يُحاوِلون أن يَرْتَقـوا في الأَسْبابِ إلى السَّماءِ جُنْدًا حَقِيرينَ مَهْزومينَ، فإِنَّهُ لا يُمْكِن أن يَصِلوا إلى القَمَر، فهل يُمْكِنُ أن يُؤخَذُ هذا من هذه الآيَة؟

ظاهِرُ الآيَة أَنَّه مُمْكِنٌ أن نأخُذَ من هـذه الآيَة دليلًا على أنَّ النَّاس يَصِلون إلى القَمَر، إذا كان هذا ظاهِرُ الآيَة فمعناه أنَّ الآيَةَ دلَّتْ على إمكانِ الوُصُولِ إلى القَمَر، وهذا عَكْسُ ما استدَلَّ به بعضُ النَّاسِ، والحَقيقَة أَنَّه لا يُمْكِنُ أن يكون فيها دليلٌ على الامْتِناعِ من الوصول إلى القَمَر؛ لأنَّ القَمَر في السَّماءِ، التي بِمَعْنى العُلو، وليس في السَّماء التي جُعِلَت سقفًا محفوظًا، وهذا أمر مُؤَكَّد لا يَخْتَلِف فيه اثنانِ.

وإذا كان السَّحابُ في السَّماءِ، ويُطْلَقُ عليه سَماء، كما قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد:١٧] والنَّاس الآن يَصْعَدون فَوْقَ السَّماءِ الذي هو السَّحابُ. كثيرٌ مِنْكُم رَكِبَ الطَّائِرَة وهي فوقَ السَّحابِ، والسَّحابُ تَحْتَها، فكذلك القَمَرُ في السَّماء، قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١] فلا شَكَّ أنَّ القَمَر في السَّماء.

ولكن: هل هو في السَّماءِ التي هي السَّقْفُ المحْفوظُ الذي لا يَدْخُلُ إليه أَشْرَفُ الملائِكَة وأَشْرَفُ البَشَرِ إلا باسْتِئْذانٍ؟

لا، قطعًا، بل هو تحته بكثيرٍ.

إذن نقول: إنَّهُ ليس في الآيَة دليلٌ على اسْتِحالَة الوُصولِ إلى القَمَر، كما أَنَّهُ ليس فيها دليلٌ على إمكانِ الوُصُولِ إلى القَمَر، ويُتْـرَكُ هذا الأَمْر للواقِع، فإذا صَحَّ أَنَّهم وصلوا إلى القَمَر فإنَّ الشَّرْع لم يَقُل باستحالة ذلك، وإذا لم يَصِحَّ فإنَّ الشَّرْع لا يُثْبِتُه. فإذا قالوا: وَصَلْنا إلى القَمَرِ وَثَبَتَ ذلك، قلنا: الحَمْدُ لله، هـذا لا يعارِضُ شَرْعَنا، لا يعارِضُ كتابَ الله ولا سُنَّة رَسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

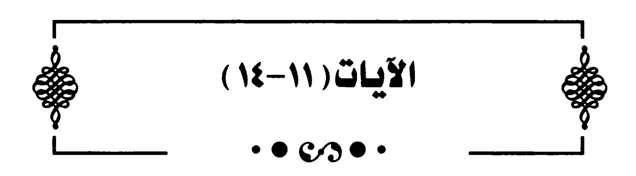
ومَعْلومٌ أنَّ القَمَر تحتَ النُّجومِ، والنُّجُومُ قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥] لكنَّ القَمَر تحتها، وأنا وغيري شاهَدْنا أنَّ القَمَرَ حَجَبَ النُّجُوم، وأنا شاهَـدْتُ ذلك بِعَيْني، كان القَمَـرُ يُسايِرُ النَّجْمَة التي تُسمَّى نَجمَـة الصباح، ومَعْروفٌ أنَّ القَمَر يتأَخَّر فإذا بها تَخْتَفي، لم نَعُدْ نُشاهِدُها، فصار كما لو جاءت سحابَةٌ فحالت بيننا وبين القَمَرِ. وَحَدَّثَني من أَثِقُ به، قال: إن هذا قد وقع أحيانًا ونُشاهِدُه.

إِذَن: القَمَر ليس في السَّماءِ التي هي السَّقْفُ المحْفوظُ، فإذا ثبتَ أَنَّهُم وصلوا إليه فلا غَرابَةَ في ذلك. إِذَن ليس في الآيَةِ دليلٌ على انْتِفاءِ الوُصُولِ إلى القَمَرِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيانُ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الجنـودَ، مهما عَظُموا، حَقيـرونَ بالنِّسْبَة إلى قُوَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ وعِزَّته، مَهْزومونَ أمام قوَّتِه؛ ولِهَذا قال: ﴿مَهْزُومٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه يَجِبُ على هؤلاء الْمُكَذِّبين للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَعْتَبِروا بمن سَبقَهم؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: هم جُنْدٌ حَقيرونَ مَهْزومون كما هُزِمَ غَيْـرُهم من الأحزاب. قالـت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

• ● ❁ ● •



الآيات (١١-١٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١١-١٤].

•●◯●•

ثم قال تعالى: [﴿جُندٌ مَّا﴾ أي: هُم جُنْدٌ حقيرٌ ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تَكْذِيبِهِمْ لك ﴿مَهْزُومٌ﴾ صِفَةُ جُنْد ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ صِفَة جُنْد أيضًا].

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ جُنْدٌ: خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، والتَّقْديرُ: هم جُنْدٌ، وما: نكرة واصِفَةٌ؛ لأنَّ (ما) لها عَشَرَةُ معانٍ جُمِعَت في قول الشاعر:

مَحَامِلُ مَا عَشْرٌ إِذَا رُمْتَ عَدَّهَا	فَحَافِظْ عَلَى بَيْتٍ سَلِيمٍ مِنَ الشِّعْرِ
سَتَفْهَمُ شَرْطَ الْوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا	بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زَيْدِ تَعْظِيمِ مَصْدَرِ

نوضِّح ذلك: ستفهم: اسْتِفْهامِيَّة، شَرْط: شَرْطِيَّة، الوَصْل: موْصُولَة، فاعْجَبْ: تَعَجُّبِيَّة، لِنُكْرها: نَكِرَة سواءٌ واصِفَة أو موصوفة، بكَفٍّ: كافَّة، ونفْي: نافِيَة، زِيدَ: زائِدَة، تَعظيم: للتَّعْظيم، مَصْدَر: مَصْدَرِيَّة.

﴿جُندٌ مَّا﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُمْ جُنْدٌ حَقيرٌ] فعلى هذا تكون (ما) هنا واصِفَة؛ يعني: موصوفٌ بها، لكنَّ المراد بهذا التَّحْقيرُ، والدَّليلُ على ذلك التحقيرِ قولُه: ﴿مَهْزُومٌ﴾ والمهزومُ حقيرٌ.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا إشارَة للمكان، واللام للْبُعْد، والكافُ حَرْفُ خِطاب، هُنالِكَ؛ أي: في ذلك المكانِ، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [أي: في تكْـذيبِهم لك] فجَعَلَ الظَّرْفية المكانِيَّة هنا التَّكْذيبَ، ولكن يبدو أنَّ الأَمْرَ على خلاف ما قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنَّ المشارَ إليه المكانُ الحِسِّيُّ، لا المكانُ المعْنَوِيُّ؛ أي: إنَّهم إنِ ارْتَقَـوْا في الأسباب، فسوف يُهْزَمُونَ، فيكـون هنالِكَ؛ أي: في المكانِ الذي يَرْتَقـونَ إليه، فإذا قُدِّرَ أنَّهُمُ ارْتَقَوْا إلى السَّماء فهل ستكونُ لهم الغَلَبَة؟

أبدًا بالعَكْسِ، حتى لو ظَنُّـوا أنَّهم لو وَصَلُوا إلى السَّماء، وصعدوا إلى السَّماءِ أنَّهم انْتَصَروا، وصارت لهم العِزَّةُ، فالأَمْرُ بالعكس. هـذا هو الذي يظهر من الآية الكريمة. أَمَّا جَعْلُ الظَّرْفِ هو التَّكْذيبَ فهذا بعيدٌ، بل التَّكْذيبُ سَبَبٌ للخِذْلانِ.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾: ﴿مَهْزُومٌ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صِفَة جُنْـد] صفةٌ ثانِيَةٌ، والأُولى (ما) ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ صِفَةُ جُنْد أيضًا، يعني: جُنْدٌ مِنَ الأحزابِ مَهْزومٌ.

واعلم أنَّه إذا تكَرَّرَتِ الصِّفَة للنَّكِرة فإن ما بعد الصِّفَة الأولى يجوز أن يكون حالًا، فإذا قُلْتَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ عظيمٍ كريمٍ شُجاعٍ، جاز لك أن تقول: مَرَرْتُ برجلٍ عظيمٍ كريمًا شُجاعًا، ولكنَّ الأَوْلى أن تكون صِفَةً؛ أي: نعتًا؛ لتناسُقِ الكَلام، وكَوْنِه على وَتيرَة واحِدَة، فهنا عندنا ثلاثُ صفاتٍ لِجُنْد: (ما) و(مهزوم)، و(من الأحزاب)، ما الذي يجوز أن يكون مَنْصوبًا على الحال؟

مهزومٌ، لكن لا يُمْكِن هنا لأنَّ حركة الإعرابِ ظَهَرَت على أنَّه مرفوعٌ؛ صفة، وكذلك من الأحزاب مِثْلُه؛ يعني: يجوز أن يكون صفةً وهو الأصل، ويجوز أن نجعله في موضِعِ نَصْبٍ على الحالِ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كالأجنادِ من جِنْس الأحزاب المتحَزِّبينَ على الأَنْبِيَاء قبلك، وأولئكَ قد قُهِروا وأُهْلِكوا فكذلك نُهْلِكُ هؤلاء] يعني أنَّ هؤلاء جُنْدٌ من الأجناد الأخرى، والأجناد الأخرى الأحزابُ الذين كذَّبوا الرُّسُل كان مآلُهُم الهلاكَ والدَّمارَ، وقد مَـرَّ علينا في أول السُّورَة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

ثم بدأ الله عَزَّوَجَلَّ الإشارَةَ إلى قصَّةِ أولئك الأجنادِ أو أولئك الأحزابِ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبلَ الذين كذَّبوك من قُرَيْشٍ ومن اليهود وغيرِهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ ونوحٌ هو أَوَّلُ رسول أرسله الله عَزَّوَجَلَّ بدَلالَةِ القُرْآنِ والسُّنَّة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، ولو كان أحدٌ قبل نوحٍ لخَرَجَ من ذُرِّيَّتِهما، وبه نعرف أنَّ ما يُوجَدُ من شجرة الأَنْبِيَاءِ التي كُتِبَ فيها أن إدريسَ قبل نوحٍ خطأ، فإنَّ إِدْريسَ بعد نوحٍ بلا شَكٍّ.

أَمَّا السُّنَّة فصريحةٌ في ذلك؛ فإِنَّهُ ثَبَتَ في حديث الشَّفاعَةِ الطَّويلِ: «**أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُـولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ**»[1] وهـذا صريحٌ، وبه أيضًا نَعْرِف أنَّ ما يُذْكَر في كتب التاريخ من أنَّ إدريس جَدٌّ لنوحٍ فهو خطأ بلا شَكٍّ، فإدريسُ فيما يظهر -والعلم عند الله- من أَنْبِيَاءِ بني إسرائيل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود:٢٥]، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بُعِث إلى البشر حين اختلف النَّاس، وكان النَّاسُ في الأوَّلِ على مِلَّة واحِدَةٍ، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلا خمسينَ عامًا، وهو يدعوهم إلى الله، ويأتيهم بالآياتِ، ويتحَدَّاهم، ولَكِنَّهم -والعياذ بالله- كُلَّما دعاهم ازدادوا عُتُوًّا ونُفورًا، قال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] ولَمَّا أذن الله تعالى بهلاكِهِم دعا نوحٌ ربَّه ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠] فانتصَرَ الله له ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١١-١٤] وأَمَرَهُ الله أن يَحْمِل معه مَنْ آمَنَ من قَوْمِه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

فتصوَّروا أيُّها الدُّعاة كيف لَبِثَ فهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا وهو رسول، والنَّاسُ لم يَكْثُروا بعدُ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليلٌ، حتى أَحَدُ نسْلِه قد كفر به وهو ابنه الذي كان من المغْرَقِينَ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تأنيث (قوم) باعْتِبار المَعْنَى] هل قومٌ مُؤَنَّـثٌ؟ أو الفعل الذي كان القوم يفعلونَه هو الذي أُنِّـثَ؟ نقول: الفِعْلُ هو الذي أُنِّث ﴿كَذَّبَتْ﴾، أمَّا قومٌ فليس فيها تاء التَّأْنيثِ، لكن من المَعْلوم أنَّ الفِعْلَ إذا أُنِّثَ فالفاعل مؤنَّثٌ، فإذا وقع الفاعل لِفِعْلٍ مُؤَنَّث فهو مُؤَنَّث، لكن هذا اللَّفْظ هل هو مُؤَنَّث لفظًا أو باعْتِبارِ المَعْنى؟ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باعْتِبار المَعْنى، وهنا نسأل كيف يكون مُؤَنَّثًا باعْتِبار المَعْنى؟

لأنَّ القومَ جماعَةٌ، وكلُّ جَمْعٍ يجوز تأنيثه، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَالتَّاءُ مَعْ جَمْعٍ سِوَى السَّالِمِ مِنْ مُذَكَّرٍ كَالتَّاءِ مَعْ إِحْدَى اللَّبِنْ

إحدى اللَّبِنْ: هي لَبِنَة، لَبِنَة يجوز فيها التَّذكيرُ والتَّأنيث، لكنَّ التَّأنيثَ أرجح، كذلك جَميعُ الجُمُوعِ ما عدا جَمْعَ المذَكَّرِ السَّالِمِ يجوز فيه وجودُ التَّاءِ في الفعل.

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ عادٌ قومُ هودٍ، كانوا بالأحقافِ، وكانوا ذَوِي شِدَّة وقُـوَّة، من أَشَدِّ النَّاس قُوَّة، فأُعْجِبـوا بقُوَّتِهم واسْتكْبـروا وعَصَوْا رَسـولَهم ﷺ، وافتخروا بما أعطاهم الله من القُوَّة، كمـا قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [افصلت:١٥].

فتأمَّلْ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ لأنَّ فيها إِشارَةً إلى أنَّهُم ضُعفاءُ أمام خالقِهِم، ولم يَقُل: أَوَلَم يروا أنَّ الله الذي خلقَ السَّمـواتِ، قال: خَلَقَهم، فهم مَخْلوقونَ، والخالِقُ أعلى من المَخْلوق، وأشد منه قُوَّة ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥] فأَهْلكهم الله.

أَهْلكهم الله، وعلى حِينِ طَمَعٍ في رَحْمَته، أرسل الله عليهم رِيحًا عَظيمَة، ولما رَأَوْا ما تحمِلُه الرِّيحُ من الرِّمالِ العَظيمَة ظَنُّوا أنَّ ذلك سحابٌ؛ لما رأوا هذا قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥] فعَصَفَتْ بهم الرِّيحُ العَقيمُ حتى كانت تَحْمِلُ الواحِدَ مِنْهم إلى جَوِّ السَّماء ثم تَقْلِبُه على رَأْسِه، فصاروا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]،

(١) الألفية (ص:٢٥).

أعجازُ النَّخْل؛ يعني: أُصولها وجُذُوعها؛ خاوِيَة مُنْتَكِسَة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، ومع ذلك ما آمن معه إلا نفرٌ قليل.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كان يَتِدُ لِكُلِّ من يَغْضَبُ عليه أربعَةَ أَوْتَادٍ يَشُدُّ إليها يَدَيْه ورِجْلَيْه ويُعَذِّبُه] فرعون الذي أُرْسِلَ إليه موسى، وكان مَلِكًا قاهرًا لِمِصْر جبَّارًا عنيدًا، استعبد أَهْلَ مِصْر وقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وسَخِرَ بموسى، وقال لهم: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، وفَخَرَ بما أعطاه الله تعالى من الأنْهار، قال لهم: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، وكَذَّبَ موسى وحاربه، لكن ليس بالسِّلاحِ بل بما جَمَعَ له من السحرة؛ لأنَّه أَوْهَمَ النَّاسَ أنَّ موسى كان ساحِرًا، قال: هذا ساحِرٌ يرمي العَصا في الأَرْض فتكون حَيَّةً، ويُدْخِلُ يَدَهُ في جَيْبِه فتَخْرُج بيضاءَ مِن غَيْرِ سوءٍ، هذا ساحر.

وجُمِعَ السَّحَرة، وأَلْقَوْا ما عندهم من السِّحْر العظيم الذي أرهب النَّاس، حتى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رَهِبَ وخاف، فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه:٦٨-٦٩] فأَيَّدَه الله، وألقى ما في يَمينِه وهي العصا، فصارت حيَّةً عَظيمَةً التَهَمَت الحبالَ والعِصِيَّ التي ملؤوا بها الأَرْض، وصار يُخَيَّلُ للنَّاسِ أنَّها حيَّاتٌ وثعابينُ تسعى، فالْتَهَمَتْها كُلَّها، وسبحان الله، كيف هذه الحيَّة التي كانت عصًا تَلْتَهِم كُلَّ هذا؟! هذا من آيات الله.

فلما رأى السَّحَرَة هذا الأَمْر دُهِشوا، وعَلِموا أنَّ هذا ليس بساحِرٍ؛ لأنَّ السَّاحِرَ لا يُمْكِن أن يأتِيَ بمثل هذا الأَمْر، بل هو حَقيقَةٌ، وهو آية أَيَّدَ الله بها موسى، فآمنوا كُلُّهُم، وسجدوا لله ذُلًّا وعِبادَةً، وقالوا مُعْلِنينَ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ

مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] فماذا يكون تأثيرُ هؤلاء القومِ الذين انتصر بهم فِرْعَون بينَ النَّاس؟

سيكون تأثيرُهُم بين النَّاس كبيرًا عظيمًا. أرأَيْتُم لو أنَّ أحدًا من الملوك جَمَع أكْبَر ما عنده من المهَنْدسينَ في حَشْدٍ عظيم، ثم أقرُّوا وأَذْعَنوا لخُصُومِ هـذا الملِكِ، ماذا يكون شعورُ النَّاس؟ سيكون شعورُهُم أنَّ الملِكَ مَهْزومٌ.

ولهـذا لما حصل إيمـانُ السَّحَرة لجأ فِـرْعون إلى القُوَّةِ والقَهْرِ، وهدَّدَهم بأنَّه سيُقَطِّع أَيْدِيَهم وأَرْجُلَهم من خِلافٍ، ويَصْلُبهم على جُـذوعِ النَّخْل حتى يذوقـوا العَذَابَ، ولكِنَّهم بإيمـانهم قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢-٧٣].

فصمدوا أمامَ هذا الطاغِيَة العنيد؛ لقد كانوا في أوَّلِ النَّهارِ مِنَ السَّحَرَة الكَفَرَة، وصاروا في آخِرِ النَّهارِ من المُؤْمِنين البَرَرَة، وبقي فرعَوْنُ مستمرًّا على طغيانه -والعياذ بالله- حتى أَهْلكه الله بالغَرَقِ بِجِنْس ما كان يَفْتَخِر به على قَوْمِه وعلى موسى، حين قال: ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١] فأُهْلِكَ بالماء الذي كان يَفْتَخِرُ به.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال: [كان يَتِدُ...] إلى آخره، الذي يظهر أنَّ هذا ليس سَبَبَ الوَصْفِ بذي الأَوْتادِ، وإنَّما السَّبَبُ الحَقيقِيُّ أن يرادَ بالأَوْتادِ القُوَّةُ التي ثَبَّتَ بها مُلْكَه، كأوتادِ الخَيْمَة تُثَبَّت بها الخَيْمةُ، ولا يَبْعُد أن يكون من جَبَرُوته أن يَضَعَ أوتادًا أربعةً يَصْلُب عليها الإِنْسَانَ ويُعَذِّبُه، لكن هذا لا يُمْكِن أن يُمْتَدَح به فرعونُ على أنَّه ذو قُوَّة، بل الصَّحيحُ المرادُ بالأوتادِ هنا ما كان عليه مِنَ القُوَّةِ التي ثبَّتَ بها مُلْكَه، كأوتادِ الخَيْمَة تُثَبَّتُ به الخَيْمة.

قال الله تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾، قوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ مَعْطوفَة على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ يعني: وكذَّبَتْ قبلهم ثمودُ أصحابُ صالِحٍ، وهم في مكانٍ يقال له: الحِجْرُ، وتُسَمَّى الآن بمدائِنِ صالِحٍ.

أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليهم ولَكِنَّهم كَفَرُوا به، ولم يُؤْمِن معه إلا قليلٌ، وآتاهم الله تعالى آيَةً عَظيمَةً؛ وهي ناقَةٌ يَحْلِبونَها يَوْمًا وتَشْرَب الماء يَوْمًا آخر.

وقيل: إنَّ الواحِدَ منهم يأتي إليها فَيَسْقيها ويأخُذُ من لَبَنِها بِقَدْرِ ما أسقاها، والله أعلم.

والمهِمُّ: أنَّ هؤلاء القومَ عندهم قُوَّةٌ مكَّنَتْهُم من أن يتَّخِذوا من الجبال بيوتًا، ولا تزال آثارُهُم باقِيَةً إلى اليَوْم، وقد مَرَّ النَّبِي ﷺ بها وهو ذاهِبٌ إلى تبوك، فقنَّعَ رأْسَهُ ﷺ -يعني غطَّاه- وأَسْرَعَ في السَّيْرِ، وقال: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هُؤَلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»[1].

قال: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطٌ: ابنُ أخِي إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أرسله الله إلى قَوْمِهِ، وكانوا قد ارْتَكَبوا الفاحِشَةَ -والعياذ بالله- فكانوا يأتونَ الرِّجالَ ويَدَعُونَ النِّساء، فوبَّخهم لوطٌ على ذلك، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦] فأنتم الآن تَرَكْتُم الحلالَ إلى الحَرامِ، وتَرَكْتُم النَّزيهَ إلى الخَسيسِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولَكِنَّهم أَبَوْا واسْتَكْبَروا؛ حتى إنَّ زَوْجَته كانت منهم، فأمره الله أن يَسْرِيَ بأَهْله، وأَرْسَلَ على قومه حجارةً مِنْ سِجِّيلٍ، حتى جعل عالِيَها سافِلَها، وهذا من المناسَبَة بوضوحٍ، فإن هؤلاء لَمَّا انْقَلَبُوا عن الحَقيقَة، ونَزَلوا إلى أَسْفَلِ الأَخْلاقِ، جعل الله أعالِيَ قَرْيَتِهِم سافِلَها.

واختلف العُلَماء في معنى هذا، فقال بَعْضُهم: إنَّ الأَرْض حُمِلَت ثم نُكِّسَت فصار عالِيْها سافِلَها، وقال بَعْضُهُم: بل إنَّها تَهَدَّمَت من الحجارة التي أُرْسِلَتْ عليهم حتى صار أعاليها سافِلَها[1].

قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ والأَيْكَةُ فيها قراءتان[2]، قالَ المُفسِّر: [﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغَيْضَة وهم قومُ شعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ] والغَيْضَة: هي الأَشْجارُ الملْتَفُّ بَعْضُها إلى بعض، وكانوا في نَعيمٍ ولَكِنَّهم عَصَوْا شعَيْبًا وسَخِروا منه ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] يسخرون منه، وقال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء:١٨٩].

قال أَهْلُ العِلْم: إنَّهُم أُصيبوا بحرٍّ شديدٍ جدًّا، فأَرْسَلَ الله غَمامَةً لها ظِلٌّ، فَتَنادَوْا إليها يَسْتَظِلُّون بِظِلِّها، فكان ظِلُّها أكثَرَ إحراقًا من الشَّمْسِ -والعياذ بالله- فَأُتُوا من حَيْثُ أَمِنُوا.

---

(١) انظر تفسير سورة الصافات لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) الأولى: (لَيْكَةَ) بلام مفتوحة من غير همز قبلها ولا بعدها، ونصب التاء، على أنَّه اسم غير منصرف للعلمية والتأنيث كطلحة، والثانية: (الأيكةِ) بإسكان اللام وهمزة وصل قبلها، وهمزة قطع مفتوحة بعدها، وجر التاء على أنَّها مضاف إليه. الكشف عن وجوه القراءات لمكي (٢/ ٣٢).

هـؤلاء يقول الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ يعني: أولئك الأحـزابُ العُظماءُ الذين طَغَوْا واسْتكبَروا وكَذَّبوا الرُّسُلَ، فالإشارَةُ هنا بِصيغَةِ البُعْدِ إما لدُنُوِّ مَنْزِلَتِهِم وبُعْدِها عن الصَّـوابِ، وإما لعُلُـوِّها باعْتِبارِ حالِهم التي كانـوا عليها من الطُّغْيانِ والعُتُوِّ؛ وذلك لأن (أولئك) لا يُشارُ بها إلا إلى الشَّيْءِ البَعيدِ عُلُوًّا، أو نزولًا أو مساحَةً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ جمع حزب، والحِزْب هو الطَّائِفَة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢] أي: كُلُّ طائِفَـةٍ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ يُحتمَلُ أن تكون مُبْتَدَأً وخبـرًا، يعني: أولئك هُمُ الأحزابُ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ فأهْلَكْناهُم، ويُحتَمَل أن تكون الأحزابُ صِفَةً لأولئكَ، وقوله: ﴿إِن كُلٌّ﴾ الجُمْلَة خبرُ المُبْتَدَأِ.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ ما ﴿كُلٌّ﴾] أي: إنَّ (إنْ) نافِيَة، وقد سبق لنا أنْ قلنا: إنَّ (إنْ) تُسْتَعْمَلُ في اللُّغَة العَرَبِيَّة على وجهٍ: النَّفْيِ، والشَّـرْطِ، والمُخَفَّفة من الثَّقيلَة، والزَّائِدَة.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن كُلٌّ﴾ ما كُلٌّ من الأحزاب ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾] كلٌّ من هؤلاء الأحزابِ كَذَّبَ الرُّسُلَ، والرُّسُلُ: جمع رسول، ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كُلُّ حزبٍ كذَّبَ رسوله، وعلى هذا فالجَمْعُ موزَّعٌ على الجَمْع الذي قبله توزيعَ أفْرادٍ، أو هو توزيعُ جُمْلَةٍ؟ أي: كُلُّ حِزْبٍ كذَّب جميعَ الرُّسُل؟

المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على الثَّاني، قال: [لأنَّهم إذا كذَّبوا واحدًا منهم، فقد كذَّبوا جميعَهُم؛ لأنَّ دَعْوَتَهم واحِـدَة، وهي دَعْوَةُ التَّوْحيـدِ] فمشى رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنَّ الجَمْعَ مُوَزَّع على الأفراد توزيعَ جَمْعٍ؛ يعني: كُلُّ حِزْبٍ كذَّب جميع الرُّسُل، ويُؤَيِّد ما ذهب إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] فإنَّ الله ذكر أنَّ قَوْمَ

نوحٍ كذَّبوا المُرْسَلين، ومن المَعْلوم أنَّه لم يُبْعَث رسولٌ قبل نوحٍ حتى نقول: إنَّهُم كَذَّبوا من سَبَقَ، وعلى هذا فيكون ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَرْجَحَ مِمَّا يحتمله اللَّفْظ احتمالًا مرجوحًا، وهو أنْ يكونَ الجَمْعُ مُوَزَّعًا على ما قبله توزيعَ أَفْرَادٍ.

وقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باعْتِبار الجُمْلَةِ؛ لأنَّ بَعْضَ القوم آمنوا لَكِنَّهم كانوا قلَّةً، والقِلَّة مع الكَثْرَة تنْغَمِرُ فيها؛ فلِهَذا قال: إن كُلٌّ من الأحزاب إلا كذَّبَ الرُّسُل، ويُحتَمَل أن يقال: إنَّهُ لا حاجة إلى هذا التَّقْديرِ؛ أي: لا حاجة إلى أن نقول: إن هذا باعْتِبارِ الكثيرِ من هؤلاء الأقوامِ؛ لأنَّه قال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فيكون قوله: ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي: من المُكَذِّبين إلا كذَّب الرُّسُل، وعلى هذا فلا حاجة إلى اسْتِثْناءِ الذين آمنوا، وإلى القول بأن الآية جاءت على الأغْلَب.

قال الله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ الرُّسُلُ الذين أُرْسِلوا إليهم، وهنا نحتاجُ إلى الفَرْق بين الرُّسُلِ والنَّبِيِّينَ، فنقول: أولًا: كُلُّ من ذُكِرَ في القُرْآن من النَّبِيين فهو رسولٌ، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨] وعلى هذا فيكون كُلُّ من ذُكِرَ في القُرْآن منَ الرُّسُل؛ لأنَّهم قُصُّوا علينا، وكل من قُصَّ علينا فهو رسولٌ.

أَمَّا على سبيل العُمُومِ فإنَّ العُلَماء يقولون على المشهور عندهم: إنَّ الرَّسُولَ مَن أُوحِيَ إليه بِشَرْعٍ وأُمِرَ بتبليغه والدَّعْوَةِ إليه؛ لأنَّه رسولٌ، والرَّسُول ليس عليه إلا البلاغُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] وأَمَّا النَّبِيُّ فهو الذي أُوحِيَ إليه بوَحْيٍ لكن لم يُؤْمَرْ بالتَّبْليغِ، فيكون كالمجدِّدِ من هذه الأُمَّة، فالمُجدِّد من هذه الأمَّة صالِحٌ في نفسه لَكِنَّه يدعو بحسَب استطاعته، فالنَّبِيُّ لم يكَلَّف بالرِّسالَة، وإنَّما أُوحِيَ إليه بما يُصلِحه ويُصْلِحُ به غيرَه لا على سبيل الإلزام بالرِّسالَة.

وذهب بعض أَهْل العلم إلى أنَّ الفَرْقَ: أنَّ النَّبِيَّ هو من جَدَّدَ شَـرْعَ مَنْ قَبْلَه ولم يستقِلَّ بوَحْيٍ، فهو يأتي بالشَّـريعة السَّابِقَة، وأَمَّا الرَّسُـولُ فهو الذي يُجَـدَّد له الوَحْيُ، ويأتي بشريعة مستقِلَّةٍ.

وهذا القول قد نقول: إنَّهُ جيِّدٌ؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة:٤٤] ولَكِنَّه يُنْتَقَض بآدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنَّ آدَمَ نَبِيٌّ ولم يكن تابعًا لشـريعة سابِقَةٍ، والقول إذا انْتُقِضَ فهو ضعيف غير مُعْتَمَد عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ حـقَّ؛ أي: وجب وثبـت، وقوله: ﴿عِقَابِ ﴾ فاعِلُ (حَقَّ) مرفوع وعلامة رَفْعِه الضَّمَّة المُقَدَّرة على ما قبل ياء المتكَلِّم المَحْذوفَةِ مَنَعَ من ظهورها اشتغالُ المحل بحركة المناسَبَة؛ أي: يُكْسَر ما قبل ياء المتكَلِّم لِيُناسِبَ الياء، فالكَسْرَةُ التي يُؤتَى بها لمناسَبَةِ الياء تسمَّى حركةَ المناسَبَة أو كَسْرَة المناسبة، وهي تَمْنَع من ظهورِ ضَمَّةِ الإعْرابِ وفَتْحَتِه على آخر الكَلِمَة.

والعِقابُ: هو المؤاخَـذَة على الذَّنـب؛ ولِهَذا سُمِّيَ عقابًا؛ لأَنَّه يأتي عَقِـبَ الجريمة، فَكُلُّ عَذَاب على جريمة فإنَّهُ يُسَمَّى عِقابًا. وهذا العقابُ الذي أنزله الله بهم هو عقابٌ مَبْنِيٌّ على العَـدْل؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أضافه إلى نفسـه، فقال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴾، ونحن نعلم أنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يَظْلِمُ أحدًا أبدًا، لا يزيد في سَيِّئاتِه، ولا ينْقُصُ من حسناته، لكن لو كان العِقابُ من غير الله لكان يُمْكِن أن يزدادَ على الجريمة، أَمَّا العِقابُ الذي أضافه الله لنَفْسِه فهو عقابٌ عَدْلٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هـذه الآية تَسْلِيَةٌ وتهديد، تَسْلِيَةٌ للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتهديد للمُكَذِّبين له أن يُصيبَهُم مثلُ ما أصاب مَن قَبْلَهُم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ الرِّسـالَة لنوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِه: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو كذلك؛ فإنَّ نوحًا هو أوَّلُ رسولٍ أرسله الله إلى أَهْل الأَرْض.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ الرِّسالَة لهودٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَعَادٌ﴾ وعادٌ هم قومُ هودٍ، فإنَّهُم كذَّبوا هودًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ رسـالَةِ موسى؛ لِقَوْلِه: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ومَعْلـوم أنَّ الذي أُرْسِلَ لفرعون هو موسى، ففي الآيَة إثباتٌ لِرسالَة موسى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه مهما عَظُم سُلْطانُ الْمُكَذِّبيـن للرُّسُلِ فإنَّهُم أذِلَّاءُ بالنِّسْبَة لسُلْطانِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ رِسالَة صالِحٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَثَمُودُ﴾ والمُرْسَل إلى ثَمـودَ أخوهم صالِحٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ رِسالَة لوطٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ رِسـالَة شعَيْـبٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وهم قـوم شعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ جميعَ هؤلاء الأحزابِ كذَّبوا الرُّسُل؛ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

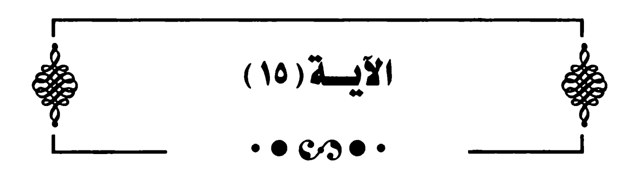
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الاعْتِبارُ بالأَغْلَبِ، وأن الكُلَّ قد يُطلَق على الأغلب؛ لأَنَّ قَوْمَ نُوحٍ لم يكذِّبوا كُلُّهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠] وكذلك عادٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٥٨] وكذلك لوطٌ آمن معه مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٣٥] كذلك فرعونُ لم يُؤْمِن إلا حينما أَدْرَكَه الغَرَق إيمانًا لا يَنْفَعُه، وكذلك صالِحٌ آمن معه من آمن، وعلى هذا، فالله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ إنْ كُلٌّ؛ أي: من هؤلاء إلا كذَّبَ الرُّسُل.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه من كـذَّبَ رسولًا من الرُّسُلِ فهو مُكَـذِّبٌ باعْتِبار الأغْلَبِ لجميعِ الرُّسُلِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وقد ذَكَرْنا في تَفْسيرِها أَنَّها محتمِلَة أن تكون عائدة لِكُلِّ فرد باعْتِبار الجَمْع أو باعْتِبار الأفراد؛ أي: هل هو من توزيع الجُمَل أو من توزيع الأفرادِ، وذكرنا أَنَّه من الرَّاجِحِ أَنَّها من توزيع الجُمَل على الأفراد، وذكرنا الدَّليلَ على ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ تَكْذيـبَ الرُّسُلِ سَببٌ للعُقوبَةِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ والفاء هنا سَبَبِيَّـة وهي عاطِفَـةٌ تَدُلُّ على التَّرْتيـب والتَّعْقيبِ، ففيها سَبَبِيَّة وتَعْقيبٌ، وأَنَّ العقاب حَلَّ بهم، وهم ما زالوا على تَكْذيبِهِم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: وقوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُؤْخَذُ منه فائِدَةٌ وهي شِدَّةُ هذه العقوبة؛ لأَنَّ الله أضافها إلى نَفْسِه، وقد قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن نفسه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٩٨]، و﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

••❁••



الآية (١٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص:١٥].

•• ●●

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ ينظر إذا تعدَّتْ بـ(إلى) فهي نَظَرُ العَيْـنِ، وإن جاءت مُتَعَدِّيَة بنفسها صارت بِمَعْنى الانْتِظارِ، وإن جاءت مُطْلَقَة فهي على حسَـب السِّيَاق، يعني إذا جاءت غيـر مُقَيَّدَة بحَرْفِ جَرٍّ، ولا مُقَيَّدَة بمفعولٍ، فهي على حَسَبِ السِّيَاقِ.

مثال التي قُيِّـدَت بـ(إلى) قوله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] فإنَّ ناظِرَة هنا بِمَعْنى باصِرَة بالْعَيْنِ؛ لأنَّها تعدَّت بـ(إلى) وأُضيفَتْ إلى الوُجُوهِ أيضًا التي هي مكانُ العُيُـونِ، وإذا جاءت مُتَعَدِّيَة بِنَفْسِـها فإنَّها تكون بِمَعْنى الانْتِظارِ، ومنه قوله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ [مُحَمَّد:١٨] وقد تأتي مُتَعَدِّيَة ويكون المراد بها نَظْرَةُ العِبْـرَة والتَّفَكُّر كمـا في قَوْلِه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وإن جاءت مُطْلَقَةً غير مُتَعَدِّيَة بِنَفْسِها ولا بـ(إلى) فهي بحَسَبِ السِّيَاق؛ مثل قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] منهم من قال: ينظرون بِمَعْنى يَنْتَظِرون النَّعيمَ الذي يُؤتى به إليهم، ومنهم من قال: ينظرون؛ أي: يَنْظُرونَ إلى ما أنعم الله به

عليهم، ومنه النَّظَر إلى وجه الله.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً﴾ مُتَعَدِّيَة بِنَفْسِها، فهي بِمَعْنى ينْتَظِر؛ أي: ما يَنْتَظِر هـؤلاء، أي كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّة، كما قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كُفَّارُ مَكَّةَ] ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ يُصاحُ بهم، واحِدَة لا تُعادُ مرَّةً أخرى، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] فالصَّيْحَة هي التي تكون يَوْم القيامة، كما قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي نَفْخَةُ القِيامَةِ تَحُلُّ بِهِمُ العَذابَ] وهي الساعة، هـذه الصَّيحَة الواحِدَة ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [بِفَتْحِ الفاء وضَمِّها؛ أي: رُجُوع].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾: ﴿مَّا﴾ نافِيَة، ولَيْسَـت هنا حِجازِيَّـة لاتِّفاقِ التَّميمِيِّيـنَ والحِجازِيِّينَ على عَدَمِ عَمَلِها؛ لأنَّ الحِجازِيِّينَ يُعْمِلونَها بشَرْطِ التَّرْتيبِ؛ أي: تقديم الاسْمِ على الخَبَر، وهنا لم يتقدَّمِ الاسْمُ على الخَبَر، بل تأخَّر، فهي إِذَن نافِيَة، ولها: جارٌّ ومجْرُورٌ خَبَر مُقَدَّم. و﴿مِن فَوَاقٖ﴾ مِن: حَرْفُ جُرٍّ زائِدٌ للتَّأكيدِ، و﴿فَوَاقٖ﴾ مُبْتَدَأٌ مرفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرة على آخِرِه مَنَعَ من ظهورها اشْتِغالُ المَحَلِّ بِحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزائِدِ.

أَمَّا من حيث التَّصْريفِ فقالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّها بفَتْحِ الفاء وضَمِّها] فَوَاق وفُوَاق، ومعناه الرُّجوعُ، وقيل: معناه الإِمْهالُ؛ يعني أنَّها لا تُمْهِلُهُم، بل تأخذهم بسرعة، وقيل: إنَّها إن كانت (فَوَاق) فهي بِمَعْنى الرُّجوعِ لأنَّها من أَفَاقَ يُفِيقُ إذا رَجَعَ إلى عقله، وإذا كانت (فُوَاق) فهي بِمَعْنى الإِمْهالِ؛ مأخوذٌ من قولهم: فُوَاقُ النَّاقَةِ.

وفُواقُ النَّاقَةِ: هو ما بَيْنَ الحَلْبَتَيْنِ أو ما بين الرَّضْعَتَينِ.

ما بين الحَلْبَتينِ إذا كانت تُحْلَب، وهي مُدَّة وَجيزَة؛ مثاله: يَعْصِرُ الإِنْسانُ الثَّدْي

ثم يتوقَّفُ ثم يعودُ ويَعْصِرُه، فالمدة بين الحلبتين قليلةٌ، وكذلك بين الرَّضْعَتَيْنِ. الطِّفْلُ الرَّضيعُ إذا كان يَرْضَعُ ثَدْيَ الأمِّ، يَمَصُّ ثم يَمَصُّ. وهم يُطْلِقُون هذا على سُرْعَةِ الشَّيْءِ وعَدَمِ إِمْهالِهِ، ويُمْكِن أن نقولَ: إنَّ القِراءَتَينِ تجمعانِ المَعْنَيَينِ، فيكون معنى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: ما لَهَا من رُجُوعٍ ولا إِمْهالٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذا أَشَدُّ التَّهْديدِ للمُكَذِّبينَ لرَسولِ الله ﷺ، ولازِمُ ذلك إثباتُ رِسالَتِهِ ﷺ، ووَجْهُهُ أنَّ الله توعَّدَ المُكَذِّبين له، ولولا أنَّ رِسالَتَهُ حقٌّ لكان الوَعيدُ عليه هو كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

اللهُ أكبَرُ! انظُرْ إلى هذا الأُسْلُوبِ الشَّديدِ لِلآياتِ المُوَجَّهَة للرَّسُولِ ﷺ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ بالقُوَّةِ، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ حتَّى لا يبقى به حياة.

والوَتينُ هُو عِرْقٌ يَتَّصِلُ بالقَلْبِ إذا قُطِعَ مات الإِنْسَان فورًا ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ هذا، وهو الرَّسُولُ ﷺ، لو تَقَوَّلَ على الله كَلِمَةً واحِدَةً، لأَخَذَهُ الله باليَمينِ، فكيف بالذين يَتَقَوَّلونَ على الله كَلِماتٍ، ولا يُبالونَ أن يقولوا: قال اللهُ، وهو لم يَقُلْ.

ولِهَذا كان الإمامُ أحْمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ وَرَعِه لا يُمْكِنُ أن يقول: هذا حرامٌ إلا إن كان قد نُصَّ على تحريمه، وإلَّا تَجِدْه يقول: أَكْرَهُ هذا، أو لا يُعْجِبُني أو لا يُفْعَلُ، أو تَرْكُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ، أو ما أشبه ذلك، ولكن كان إمامًا، وصار النَّاس يَتَداوَلونَ هذه الكَلِماتِ ويُحَلِّلونَها، هل إذا قال: لا تُعْجِبُني، يعني التَّحريمَ أو الكَراهَة، ثم بدأ النَّاس يَتَلَقَّوْن كلامه ويُحَلِّلونه؛ لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ خاف اللهَ واتَّقاه فجعل الله لكَلِماتِه نورًا،

بخلافِ الذين يقولون الآن: الإسلامُ يُحَرِّم كذا وكذا، وإذا رَأَيتَ الإسلامَ يُحَلِّلُه، ويُمْكِن أن يُوجِبَه في بعض الأحيان، وهذا يقول: يُحَرِّمُه الإسلام، يتكلَّمُ واحد مُعَرَّضٌ للخَطَأِ باسم الإسلام.

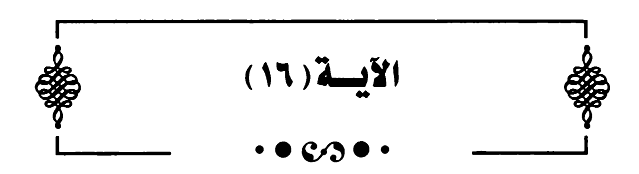
وأنت لو قُلْتَ: أرى أنَّ هذا حرامٌ.

قلنا: هذا رأيُكَ، ويُمْكِن أن تُخْطِئَ وتُصيبَ، أَمَّا أن تقول: حرَّمَ الإِسْلامُ، وقال الإِسْلامُ، وفَعَلَ الإِسْلامُ، فهذه الأقوالُ خَطيرَةٌ؛ لأن أعداءَ المسلمين إذا أخذوا مثلَ هذه الأقْوالِ، وقالوا: هذا الإسلامُ وكانَتْ تُخالِفُ الإِسْلامَ، أخذوا من هذا سببًا للقَدْحِ في الإِسْلامِ، والإِسْلامُ بَريءٌ منه، لكن بعضُ النَّاسِ يجعَلُ لنَفْسِه مَنْصِبًا عاليًا فوق مُستواه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسْلِيَةُ الرَّسُول ﷺ؛ لأنَّه إذا قيل له: سنُهْلِكُ أعداءَك، فسوف يتسلَّى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ العَذَابَ إذا أخذهم فإنَّهُ لن يَرْجِع ولن يتأخَّر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

• • ۞ • •



الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لَمَّا توعَّدَهُم الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيَوْم القيامة، وأنَّ لهم العَذَابَ فيه، تَحَدَّوُا الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل تَحَدَّوُا اللهَ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ بِمَعْنى: نَصِيبنا، يقولون ذلك تَحَدِّيًا واسْتِكْبارًا وعنادًا -والعياذ بالله- وهذا كَقَوْلِهِم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢].

هذا قَوْلُ معانِدٍ مُسْتكْبِر، وكان الواجِبُ عليهم أن يقولوا: اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحَقَّ مِن عِنْدِك فاهْدِنا إليه ووَفِّقْنا له. هذا الواجب، أَمَّا أن يقولوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا لا شكَّ أنَّه في غايَةِ الاسْتِكْبارِ -والعياذ بالله-.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقالوا لَمَّا نزلت ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩] ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: كِتابَ أَعمالِنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قالوا ذلك اسْتِهْزاءً].

ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحْتَمِلُه اللَّفْظ، لكن لا دليل عليه فيه، والصَّحيحُ أنَّ المرادَ بِـ(قِطَّنَا)؛ أي: نَصيبَنَا من العَذَابِ الذي تَوَعَّدْتَنا به، وقلْتَ إنَّهُ سيأتيكم عَذَابٌ كما أتى الأحزابَ مِن قَبْلِكم، فكأنَّهم يقولون: إذا كان الأحزابُ قد أُوتُوا العَذَابَ من قبلنا فَلْيَأْتِنَا نصيبُنا.

وهذا لا شَكَّ أنَّه في غاية ما يكون من التَّحَدِّي والسُّخْرِيَة والاسْتِكْبارِ -والعياذ بالله- وأنت تَعْجَبُ أن تَصِلَ الحالُ بالبَشَرِ إلى هذا التَّحَدِّي -والعياذ بالله- ولَكِنَّ الشَّيْطان عَدُوٌّ للإِنْسَان، فإذا أطاعه حَمَلَه على شيءٍ يكادُ الإِنْسَانُ أن يقول: إنَّ هذا الشَّيْءَ لا يُمْكِن أن يَقَعَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: اعْتِرافُ الْمُشْرِكِينَ بالرُّبُوبِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا﴾ وهم مُقِرُّونَ بالرُّبُوبِيَّةِ، ومُقِرُّون بانفرادِ الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإِقْرار بالرُّبُوبِيَّةِ لا يُخْرِج الإِنْسَانَ من الكُفْر إذا كان لم يُقِرَّ بتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّةِ؛ لأنَّ هؤلاء مُقِرُّون بالرُّبُوبِيَّة، وأنَّ الله هو الخالِقُ الرَّازِقُ والمنْفَرِد بالخَلْقِ والرِّزْق، لَكِنَّهم يُشْرِكون به في العبادَةِ؛ يَعْبُدون معه غيره، فلم يُدْخِلْهم ذلك في الإِسْلامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُطْلانُ ما ذهب إليه كثيرٌ من الْمُتكَلِّمين في تَفْسير التَّوْحيدِ؛ حيث قالوا في تَفْسيرِ التَّوْحيد: «أَنْ تُؤمِنَ بأنَّ الله واحِدٌ في ذاتِهِ لا قَسيمَ له، واحِدٌ في أفعالِهِ لا شَريكَ له، واحِدٌ في صِفاتِهِ لا شَبيهَ لَهُ»، فإن هذا لم يتَعَرَّضوا فيه لذِكْرِ الأُلُوهِيَّة إطلاقًا، قالوا: إنَّ اللهَ واحِدٌ في ذاتِه لا قسيم له... إلخ؛ هذا هو التَّوْحيدُ عند عامَّة الْمُتكَلِّمين، ولا شَكَّ أنَّ هذا التَّوْحيدَ لم يَدْخُل فيه تَوْحيدُ الأُلُوهِيَّةِ الذي جاءت الرُّسُلُ بِتَحْقيقِهِ وإثْباتِهِ والقِتالِ عليه، لم يقولوا: واحِدٌ في أُلُوهِيَّته لا يُعبَد غيره، أسقطوا هذا نهائيًّا.

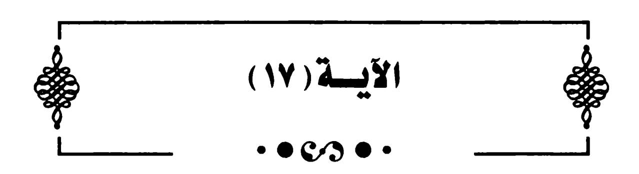
ولا شَكَّ أنَّ هذا قَوْلٌ باطِلٌ في أنَّ هذا هو التَّوْحيدُ الذي دعت إليه الرُّسُلُ، بل هذا من التَّوْحيدِ الذي دعت إليه الرُّسُلُ، وليس هو التَّوْحيدَ كُلَّهُ، بل فيه أيضًا إجْمالٌ في قَوْلِهِم: واحِدٌ في صفاتِهِ لا شَبيهَ له، ولكنْ هذا ليس موضوعَنا؛ لأنَّنا نَتكَلَّم عن التَّفْسيرِ.

فالمُشْرِكون الذين قاتَلَهُم الرَّسُولُ ﷺ، واسْتَباحَ دِماءَهم وأَمْوالَهم ونِساءَهُم وذُرِّيَّتَهم، كانوا يُقِرُّونَ بما يَدَّعِي المُتكَلِّمون أنَّه هو التَّوْحيدُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اسْتِكْبارُ هؤلاء المُكَذِّبين للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث تَحَدَّوْه هـذا التَّحَدِّيَ، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نَصيبَنَا من العَذَاب، وهـذا غايَةُ ما يكون من الاسْتِكْبارِ والعِنادِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إيمانُهُم بيَوْمِ الحسابِ؛ يؤخَذُ من قوله: ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ مُمْكِنٌ أن نقول هكذا، ويُمْكِن أن نقول: إنَّهُم قالوا ذلك على سَبيلِ التَّهَكُّم، فيكون هذا أَشَدَّ في العِنادِ والاسْتِكْبار؛ أي: قبلَ يَوْم الحسابِ الذي يَزْعُمُه مُحَمَّد، فيكون المرادُ بهذا التَّهَكُّمَ برسولِ الله ﷺ، وبما أَخْبَرَ به من يَوْم الحساب، وهذا هو الظَّاهِر؛ أي: كأنَّهم يقولون: عَجِّلْ لنا نَصيبَنَا من العَذَابِ قبل هـذا اليَوْمِ الذي يقوله هـذا الرَّجُلُ.

• • ❁ • •



الآية (١٧)

• • • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

• • • •

فقال الله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ هُمْ بِقَوْلِهِم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ يريدون بذلك مُضايَقَةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى يَضْجَرَ ويَتْعَبَ نَفْسِيًّا وفِكْرِيًّا ورُبَّما جِسْمِيًّا، ولا شَكَّ أنَّ هذا يؤذي الدَّاعِيَة.

وأنت لو دعوتَ إلى الله وقام واحِدٌ وقال: أهذا ما تَتَوَعَّدُنا به؟ ائْتِنا به، عَجِّلْ لنا به، لا شَكَّ أَنَّكَ تَضِيقُ، فالرَّسُولُ ﷺ بَشَرٌ، لكنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ يُصبِّره شَرْعًا، ويُعِينه على ذلك قَدَرًا، يُصَبِّره شرعًا بالأَمْرِ: اصْبِرِ اصْبِر، ويُعينُه على ذلك قَدَرًا، فقد صبر النَّبِيُّ صبرًا لا يَصْبِرُه أحَدٌ، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف:٣٥].

والعجيب أنَّ مِن صَبْرِه أنَّه صَبَرَ حين المَقْدِرَة عليهم، صبَرَ على العَذَاب الذي يكون بِيَدِه، وعلى العَذَابِ الذي يكون مِن عِنْد الله، صبر على العَذَاب الذي يكون بِيَدِه حين فتح مَكَّةَ ووَقَفَ على باب الكَعْبَة وقُرَيْشٌ تحته، وقال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟**» قالوا: خَيْرًا؛ أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءَ**»(١).

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

في هذا الحالِ يستطيع أن يَبْطِشَ بهم فكُلُّهم أذِلَّةٌ بين يَدَيه، لكن قال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءَ**» بل قال قبل ذلك: «**مَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**»(١) كُلُّ هـذا من باب التَّسامُحِ والعَفْـو مع المَقْدِرة.

أَمَّا عَفْوُه وتسامُحُه مع المَقْدِرَة بأمْرٍ يُوْقِعُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيهم، فإنَّهُ لَمَّا رَجَعَ من الطَّائِفِ بعد أنْ فَعَلَ به أهْلُ الطَّائِفِ ما فعلوا أرْسَلَ الله إليه جِبْرِيلَ ومعه مَلَكُ الجِبالُ، وقال: إنَّ اللهَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَهَذا مَلَكُ الجِبالِ يَفْعَلُ ما تَأْمُرُ به، فقال له مَلَكُ الجِبالِ: إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ لَفَعَلْتُ: ولكنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢) اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عَلَيْهِ.

انظر إلى العَفْوِ وإلى النَّظَرِ البَعيدِ، فأخرج الله -ولله الحمد- من أصلاب هؤلاء مَنْ عَبَدَ اللهَ ولم يُشْـرِكْ به، وكانوا أَئِمَّةً يَهْدونَ بأمرِ الله، فالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يجِـد المضايَقاتِ العَظيمَةَ من قُرَيْشٍ لَكِنَّه يصبر على كُلِّ أذًى؛ ولِهَذا قال الله له: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ اصبر على ما يقولون من أقوالِ الاسْتِهْزاءِ والسُّخْرِيَة والكَذِب؛ قالوا: إنَّهُ ساحِرٌ مَجْنونٌ كذَّابٌ كاهِنٌ، ولَكِنَّه يَصْبِرُ، صَبَرَ على ما يقولون، وصبر على ما يفعلون أيضًا.

---

(١) أخرجه ابن راهويه في المسند (١/ ١٩٩ رقم ٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أَعْظَمُ شيءٍ عَلِمْتُ به أَنَّه كان ذاتَ يَوْمٍ ساجِدًا عندَ الكَعْبَة في آمَنِ مكانٍ، وأَعْظَمِه حُرْمَةً، وأَقْرَب ما يكون من رَبِّه، ساجدًا لله، وكان حوله ملأٌ من قُرَيْش، فقالوا: من يَنْتَـدِبُ لنا يأتي بِسَلَا جَـزُورٌ بني فُلانٍ يَضَعُه على مُحَمَّـدٍ وهو ساجِدٌ، فانْتَدَبَ أَشْقَاهُمْ، وذهب وأتى بِسَلا الجَـزُور ووضعه على ظَهْرِه؛ دَمٌ وَرَوَثٌ وقَذَرٌ ونَجاسَةٌ على ظَهْرِه وهو ساجد، ولَكِنَّه لم يَقُمْ من السُّجُودِ حتى جاءت ابْنَتُه فاطِمَةُ وهي صغيرة فأزاحَتْه عنه، فقام ﷺ، ثم لَمَّا فَرَغَ من الصَّلاة دعا الله عليهم، فأجاب الله دَعْـوَتَه، فعذَّبَهُم بيده، وسُحِبـوا في قَلِيبِ بَدْرٍ في غَـزْوَةِ بَدْرٍ جُثَثًا مُنْتِنَةً خَبيثَةً، وطُرِحُوا في أَحَدِ الآبارِ هنالِكَ(١). اللَّهُمَّ انْصُرِ الحَقَّ أَيْنَما كان يا رَبَّ العَالَمِينَ.

قال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخِطابُ في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لرَسولِ الله ﷺ، أَمَرَهُ الله أن يَصْبـر على ما يقوله له أعداؤه مِمَّا يتعَلَّقُ بجانِبِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ من إنْكَار تَوْحيـدِه، ومِمَّا يتعلَّقُ بالرَّسُول ﷺ من وَصْفِـه بأَنَّه كذَّاب وساحر ومجنون، ومِمَّا يتعلَّق بأصحابِهِ، وكل ما يقولون مِمَّا يسوءُ الرَّسُولَ ﷺ، أمره الله تعالى أن يَصْبِر عليه، وكذلك أيضًا أن يَصْبِرَ على ما يفعلون؛ لأَنَّ أَذِيَّةَ المُشْرِكين له كانت بالقَوْل وبالفِعْل جمعًا وإفرادًا.

والصَّبْـر هو حَبْسُ النَّفْس عمـا لا يجوز في مقابَلَةِ البَلِيَّة والمُصيبَة. وقد قسَّم العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ الصَّبْرَ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ، فقالوا: صَبْرٌ على أَقْدارِ الله المؤْلِمَة، وصبْرٌ عن مَحارِمِ الله، وصبْرٌ على طاعة الله، وهذا الأخيـرُ هو أعلى أَنْواع الصَّبْـرِ؛ لأَنَّ الصَّبْـرَ الأَوَّلَ هو صبْـر قَهْرِيٌّ؛ فالصَّبْـر على المصائِبِ صَبْـر قَهْرِيٌّ؛ لأنَّ المَصائِبَ لم تقع

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذرًا أو جيفة، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

باختيارِكَ، وإنَّما هي بِغَيْر إرادَتِك، فأنت أمامها إمَّا أن تَصْبِر صَبْرَ الكِرام، وإما أن تَسْلُوَ سُلُوَّ البهائِم.

ثم الصَّبْرُ عن محَارِمِ الله دون الصَّبْر على أوامِرِه، وذلك أنَّ الصَّبْرَ على محارم الله ليس فيه إلا كَفُّ النَّفْس فقط، والكَفُّ أَسْهَلُ مِنَ الفِعْلِ.

وأَمَّا الصَّبْرُ على الطَّاعَةِ فهو أعلاها؛ لأنَّ فيه صَبْرًا على كفِّ النَّفْس وعلى فِعْلِها، على كَفِّ النَّفْس عن ترك هذا المأْمُور به، وعلى الفِعْل يُرْغِمُها على أن تَفْعلَ؛ ولهذا قال أهْلُ العِلْم: إنَّ الصَّبْرَ على أوامر الله أَفْضَلُ من الصَّبْرِ عن نواهيه، والصَّبْرُ عن نواهي الله أفْضَلُ من الصَّبْرِ على أقْدارِ الله المؤْلِمَة.

ومن ثم لو سَأَلَنَا سائلٌ: أَيُّهما أعلى مقامًا وأفْضَل؛ صَبْرُ يُوسُف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الحَبْس، أو صَبْرُه عن فِعْل الفاحِشَة بامرأةِ العزيز؟ قلنا: صَبْرُه عن الفاحِشَة أَعْظَمُ وأعلى مَرْتَبَةً.

قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: في اللهِ أولًا؛ لأنَّ السُّورَة من أوَّلِها في إنْكَارِ تَوْحيدِ أُلُوهِيَّةِ الله، وفي الرَّسُولِ، وفيما جاء به، وفي أصحابه.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ اذكر: يُحتَمَل أن يكونَ من الذِّكْر؛ أي: الإخبارِ عن حاله؛ أي: اذْكُرْ للنَّاسِ قِصَّةَ داودَ، ويُحْتَمَلُ أنَّ (اذْكُرْ) بِمَعْنى: تذكَّرْ داودَ، وإذا كان اللَّفْظُ يحمل مَعْنَيَينِ لا يتنافيان، فالقاعِدَة التَّفْسِيريَّةُ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا؛ لأنَّه كُلَّما كانت دَلالَةُ الآيَةِ أَشْمَل وأعَمَّ كان أولى.

﴿عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وَصَفَ الله داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالعُبودِيَّةِ، وهذه أَخصُّ أَنْواعِ العُبودِيَّةِ؛ لأنَّ العُبودِيَّةَ إمَّا عامَّةٌ، وإمَّا خاصَّةٌ، وإمَّا خاصَّةُ الخاصَّةِ، فوَصْفُ الرُّسُلِ

بالعُبودِيَّةِ خاصَّةُ الخاصَّةِ، ووَصْفُ المُؤْمِنينَ بالعُبودِيَّة خاصَّةٌ، ووَصْفُ عُمُومِ النَّاس بالعُبودِيَّة عامَّةٌ، وعليه فالعُبودِيَّة في قَوْلِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] عامَّةٌ، وفي قَوْلِه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] خاصَّةٌ، وفي قَوْلِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ خاصَّةُ الخاصَّة.

وداودُ من أَنْبِيَاءِ بَني إِسْرائيلَ وهو بعدَ موسى، والدَّليلُ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٦] وفي أثناء القصَّة، قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١].

إِذَن: فهو من بني إسرائيلَ مِنْ بَعْدِ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القُوَّةِ في العِبادَةِ] إِذَن فالأَيْدُ ليست جَمْعَ يَدٍ، بل هي مُفْرَدٌ مَصْدَرُ آد يئيدُ أَيْدًا، ونظيره في التَّصْريفِ: باع يبيع بيعًا، وكال يكيل كيلًا، إِذَن الأَيْدُ: القُوَّة، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقُوَّة.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُوَّة في العِبادَة] يَنْبَغي أن يقال: القُوَّة مُطْلَقًا في العِبادَة وغير العِبادَة حتى في الملك؛ لأَنَّ الله قال في هذه الآيات: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ فهو ذو أَيْدٍ في كُلِّ ما تكون القُوَّة فيه صِفَةَ مَدْحٍ، إِذَن الأَيْدُ الأَوْلَى أن نَجْعَلَها عامَّةً في كُلِّ ما تكون القُوَّة فيه، وهذه صِفَةُ مَدْحٍ؛ لأَنَّ المقام مقامُ مَدْحٍ لداودَ ﷺ؛ ولِهَذا أَمَرَ الله نبيَّه ﷺ أن يذكُرَه.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القُوَّة في العِبادَة، كان يصوم يَوْمًا ويُفْطِرُ يَوْمًا، ويقومُ نِصْفَ الليلِ وينامُ ثُلُثَه ويقومُ سُدُسَه] هذا عكس ما جاء في الحديث:

«كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»[1] فالعبارة فيها انقلابٌ على المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ينام نِصْفَ الليل؛ ليعطِيَ نفسَه حظَّها من الراحة، وليجَدِّد نشاطه؛ لأنَّ في النَّومِ فائِدَتَينِ للجِسْمِ:

الأُولى: قَطْعُ التَّعَب السَّابِق والاسْتِراحَة منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النَّبأ:٩] أي: قَطعًا لما حَصَلَ من المَشَقَّة والتَّعب.

والثانية: اسْتِعْدادُ الجِسْمِ للقُوَّة في المستَقْبَل؛ ولهذا إذا نام الإِنْسَانُ وهو مُشْتَهٍ للنَّوْمِ، ثم قام وَجَدَ نَفْسَه نشيطًا.

فكان ينام نِصْفَ الليل ويقومُ ثُلُثَه وينامُ سُدُسَه؛ لأجل أن يُعطِيَ نَفْسَه راحَتَها من تَعَبِ قيام الليل، وهكذا كان الرَّسُولُ ﷺ يفعل، فكان لا تُلفِيهِ السَّحَرَ إلا نائمًا؛ أي: غالِبَ أحيانِه ينام عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في آخِرِ اللَّيْل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ الجُمْلَة اسْتِئْنافِيَّة لبيانِ حال دواد: أَنَّه قوي، وأَنَّه رجَّاعٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كُلَّما حَدَّثَتْه نفسه بالكَسَلِ عاد فنَشِطَ، وكلَّما حصل منه زَلَّةٌ عاد فتاب إلى الله. والأَوَّابُ صيغة مُبالَغَة من آبَ يَؤوبُ، واسم الفاعل (آئِبٌ)، وصيغة المبالغة أوَّاب. قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رجَّاعٌ إلى مَرْضَاةِ اللهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ يتأثَّر بتكْذيبِهم؛ ولهذا أمره الله بالصَّبْر لأَجل أن يُعينَه على صَبْره عليهم، وهذا أمرٌ لا شَكَّ فيه؛ أي: إنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم (١١٣١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

يتأثَّر من تكذيبهم ويتألَّم؛ لأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء رسولًا مِن عِنْدِ الله، فإذا كذَّبَهُ هؤلاء، فإنَّهُم يكونون قد كذَّبوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فيتألَّمُ النَّبيُّ ﷺ لذلك، كما أنَّه بشر يتألَّمُ بمقتضى الطَّبيعَة البَشَرِيَّة أيضًا، فإنَّ البَشَرَ لا بدَّ أن يتألَّمَ إذا رُدَّ قولُه وكُذِّب وعُورِضَ وقُدِحَ فيه من أجله، لا بدَّ أن يتأثَّرَ مهما كانت حالُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وُجوبُ الصَّبْرِ على أذى الكفار؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ عبدٌ مأمُور، يُؤمَر ويُنهى، وليس ربًّا آمِرًا ناهِيًا، ولولا أنَّ الله أمَرَنا بطاعَتِه لكان كَغَيْره من البَشَرِ؛ لا تَجِبُ طاعته، لَكِنَّه رسولُ الله، أَمَرَنا الله بطاعَتِه ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هذا الأَمْر الصَّادِرَ صادِرٌ منهم جميعًا، أو من أَكْثَرِهم، أو من أشْرافِهِم ووُجهائِهِم؛ لِقَوْلِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فأضاف القولَ إلى الجميع، فإمَّا أن يكون الجميعُ كُلُّهم يقولون هذا، وإمَّا أن يكون الأكثَرُ يقول بذلك، فنُسِبَ إلى الجميع اعْتِبارًا بالأَكْثَر، وإمَّا أن يكون القائِلُ هم الأشرافَ والوُجهاءَ، فيكون قولُ هؤلاء قولًا للجَميعِ؛ لأنَّ الأَتْباعَ سوف يُقَلِّدونَهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذِكْرُ ما يَتَسَلَّى به العَبْدُ، وتَذْكيره بذلك؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فَضيلَةُ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأنَّه عَبْدٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ داودٌ قَوِيٌّ في عبادَتِه؛ لِقَوْلِه: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا الأَيْدِ؛ أي: القُوَّة في الوَصْف الذي وصفناه به وهو العُبودِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الثَّناء على القَوِيِّ في العِبادَة؛ لِقَوْلِه: ﴿عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القُوَّةِ في العِبادَة، وعليه يَتَنَزَّلُ قولُ الرَّسُولِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[1] فإنَّ المرادَ بالقُوَّة هنا القُوَّة في الإيمانِ، يعني القوي في إيمانه؛ لأنَّ القوِيَّ وصْفٌ يعود على المُؤْمِن، فيكون المرادُ القويَّ في هذا الوصف، وليس قويَّ البَدَنِ؛ لأنَّ قُوَّة البَدَن قد تنفع وقد تَضُرُّ، بخلاف قُوَّةِ الإيمان؛ فإنَّها نافِعَة لا مَضَرَّة فيها.

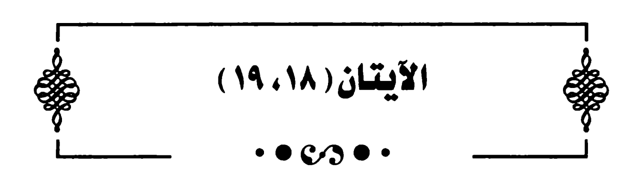
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فَضيلَةُ داود أيضًا من جهة أخرى وهو أنَّه مع قُوَّتِه في العِبادَة رجَّاعٌ إلى الله من ذَنْبِه في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاعٌ إلى ربِّهِ لو أذنبَ فإنَّهُ يرجِعُ إليه كما تدلُّ عليه القِصَّة التي ستأتي.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ العِلَلِ والأَسْبابِ؛ لأنَّ الجُمْلَـة في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تَعْليلِيَّـةٌ لِكَوْنِ داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ موصـوفًا بالقُوَّة والعُبودِيَّـة؛ لأنَّه رجَّاعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ من كانَ رَجَّاعًا إلى الله فسوف يكون قويًّا في عُبُودِيَّته.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.



الآيتان (١٨، ١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨-١٩].

• • ∽ • •

ثم ذكر الله تعالى ما مَنَّ به عليه، فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ أي: ذلَّلْناها له، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَذِلُّ له كُلُّ شَيءٍ، فسخَّر الله الجبالَ؛ أي: ذلَّلَها حتى تُسَبِّحَ بِتَسْبيحِ داودَ، وهي؛ أي: الجبالُ تُسَبِّحُ تسبيحًا مُطْلَقًا، وهذا هو التَّسْبيحُ العامُّ، وتُسَبِّح تسبيحًا خاصًّا، كما أُمِرَتْ أن تُسَبِّح مع داودَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وإلا فهي تُسَبِّح تسبيحًا عامًّا مُطْلَقًا، كما قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] أي: ما من شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

أَمَّا التَّسْبيحُ الذي سَخَّر الله الجبالَ عليه مع داود فهو تَسْبيحٌ خاصٌّ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ والجبالُ جَمْعُ جَبَلٍ وهو مَعْروف، ﴿مَعَهُۥ﴾؛ أي: مع داودَ؛ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [يُسَبّحْنَ بِتَسْبيحِهِ ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: وَقْت صَلاةِ العِشَاءِ ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: وَقْت الضَّحى].

قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ الباءُ هنا ظَرْفِيَّة بِمَعْنى (في) لكنْ يَظْهَر -والله أعلم- أنَّه إذا أُريدَ بالظَّرْفِيَّة استيعابُ الوَقْتِ أُتِيَ بَدَلَ (في) بالباء؛ لأنَّ الباءَ تَدلُّ على الاسْتِيعابِ

والإحاطَةِ؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٩]، وكما قال: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] ولهذا لا بدَّ من استيعابِ البَيْتِ بالطَّوافِ، واسْتِيعابِ ما بين الصَّفا والمَرْوَة في السَّعْي.

إِذَن: الباءُ هنا للظَّرْفِيَّة لَكِنَّها جاءت مكان (في) للدَّلالَةِ على الاسْتيعابِ، يعني كُلَّ العَشِيِّ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِالْعَشِيِّ﴾: وَقْت صلاةِ العِشاءِ] هذا فيه نَظَرٌ، والصَّحيحُ أنَّ المرادَ بالعَشِيِّ آخِرُ النَّهارِ، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢]. فالمُرادُ بالعَشِيِّ آخِرُ النَّهارِ، وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ المشْهورِ بحَديثِ ذِي اليَدَيْنِ، قال: صلَّى بنا الرَّسُولُ ﷺ إحدى صَلَاتَيِ العَشِيِّ[1]. يعني الظُّهْرَ أَوِ العَصْرَ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾: وَقْت صلاةِ الضُّحَى، وهو أن تُشْرِقَ الشَّمْسُ ويتناهى ضَوْؤُها] هناك إشراقٌ، وهناك شُروقٌ، وبينهما فَرْقٌ، فالشُّروقُ ظُهورُ الشَّمْسِ، يقال: شَرَقَتِ الشَّمْسُ، يعني ظَهَرَتْ، والإشراق: ارْتفاعُ الشَّمْسِ حتى يَصْحُوَ ضَوْؤُها وتكون بيضاءَ، فالإشراقُ معناه دُخولُ الشَّمْسِ في الإضاءَةِ الكامِلَة البَيْضاءِ، والشُّروقُ ظُهورُ الشَّمْسِ، فإذا طَلَعَ حاجِبُ الشَّمْسِ من المشْرِقِ، يقال له: شروقٌ، وإذا ارتفع حتى زادت حُمْرَتُها أو صُفْرَتُها، يقال: إشراق.

﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: بعد أن ترتفع الشَّمْس ويَحْسُن ضَوْؤُها.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وسَخَّرْنا الطَّيْر] أفادنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الطَّيْرَ مَعْطوفةٌ على الجبال؛ أي: سَخَّرْنا الجبالَ وسَخَّرْنا الطَّيْرَ، على أنَّها مفعول

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

معه، وليست مَعْطوفةً على الضَّمِيرِ المسْتَتِرِ في قَوْلِه: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وقد يقول القائل: يُسَبِّحْنَ والطَّيرَ، كقوله: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

فالمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفادنا بتَقْدير: سَخَّرْنا، أنَّ الطيرَ مَعْطوفةٌ على الجبال، وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ مَنْصوبَةٌ على الحال؛ يعني والطيرَ حالَ كَوْنِها محشورةً.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلونها صفةً للطَّيْر؟

قلنا: الذي يَمْنع من أن تكون صفَةً أنَّها لم تُوافِقِ الموْصوفَ في التَّعْريف، والصِّفة تَتْبَعُ الموصوفَ في التَّنْكيرِ والتَّعريف، و(مَحْشورةٌ) نكرة، بينما (الطَّيْر) معرفةٌ.

﴿مَحْشُورَةً﴾ يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مجموعةً إليه تُسبِّحُ معه].

لو قال قائل: أَلَيْسَتِ الحالُ صِفَةً؟ فلماذا لا نقول: مَحْشورة صِفَةٌ للطَّيْر؟

نقول: هي صفَةٌ في المَعْنى، والخَبَرُ خَبَرُ المُبْتَدَأ صفة في المعنى، وما يُعْرَف بالنَّعْت عند النَّحْويِّينَ صِفَةٌ، لكن لا يلزَمُ من الصِّفَة في المَعْنى أن تكون صِفَةً له في اللَّفْظ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلٌّ﴾ من الجبالِ والطَّيْر ﴿لَّهُۥ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى طاعَتِه بالتَّسْبيح].

﴿كُلٌّ﴾ منوَّنة تنوينًا يسمَّى تنوينَ العِوَض؛ كُلٌّ وبَعْض تَنْوينُهُما تنوين عِوَض؛ وذلك لأنَّه لا بدَّ من إضافةٍ، ولكن قد يُحذَف المضافُ إليه ويُعَوَّض عنه التنوين؛ كمثل كُلٍّ، والتَّقْديرُ بدون قطْعِ الإضافة: كُلُّهُنَّ؛ أي: الجبال والطير؛ لأنَّها لا تَعْقِل، كُلُّهُنَّ له أوَّابٌ، فحُذِفَ المضافُ إليه وعُوِّضَ عنه التَّنْوين.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الجبال والطير] هذه بيانٌ للمُضاف إليه؛ يعني أنَّها على تَقْدير كُلُّهُن؛ أي: الجبال والطير، ﴿لَّهُۥ﴾ أي: لداوُدَ ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاعٌ إلى

طاعَتِهِ بالتَّسْبيحِ، ويُحْتَمَل أن يكون رجَّاعٌ بِمَعْنى أنَّ هذه الطُّيورُ تَذْهَب وتتَعَيَّش ثم تَرْجِع لأجل أن تُؤَوِّب معه، والسِّيَاقُ والمَعْنى لا يَمْنَعه، فكلٌّ من الجبال والطير أوَّابٌ إلى داود بِمَعْنى مُطيعٍ له، وبِمَعْنى آخر بالنِّسْبَةِ للطَّيْر أنَّها ترجع إليه بعد أن تذهب لتَقومَ بِقُوْتِها ثم تعود إليه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان أنَّ الأُمُورَ كُلَّها بِيَدِ الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ﴾ أي: ذَلَّلْناها، والجبالُ خَلْقٌ عظيمٌ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أن يُؤَثِّر فيه، ولكنَّ الله تعالى بِقُدْرَتِه يُسَخِّرُها ويُذَلِّلُها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للجَمادِ إرادَةً، يدلُّ عليه قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ لأنَّ التَّسْبيحَ لا بدَّ أن يكون بإرادَةٍ، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

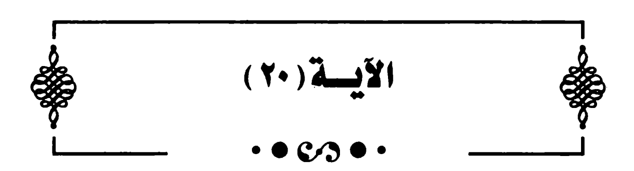
ويتَرَتَّبُ على هذه الفائِدَة: ردُّ قَوْلِ من يقولُ: إنَّ قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] فيه مجازٌ حيثُ قالوا: إنَّهُ لا إرادَةَ للجِدارِ، ونَحْنُ نقول: بل له إرادَةٌ؛ لأنَّ الله تعالى أَثْبَتَ له الإرادَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كُلَّ شيءٍ خاضِعٌ لأمر الله، الطَّيْر التي تُسَبِّح في الهواء خاضِعَةٌ لأمر الله، وهذا هو ما أَكَّده الله في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك:١٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجِبالَ والطَّيْر تُسَبِّح مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وتُرَجِّعُ معه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كُلٌّ لداود رجَّاعٌ؛ أي: مُرَجِّعٌ معه، إذا سَبَّح سَبَّحَت الجبالُ،

إذا سبَّح سبَّحَت الطُّيور المجْموعَة إليه، وقيل: إنَّ الأَوَّاب: الرجَّاعُ وليس المُرَجِّع الذي يُرَجِّعُ مَعَ داود، والمعنيان متلازمان؛ لأنَّه إذا كان رجَّاعًا يَرْجِعُ إلى داود لِيُسَبِّحَ معه فهو مُرَجِّعٌ مَعَه، على أنَّ في الآيَة قولًا آخرَ في مرجع الضَّمِير في قَوْلِه: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فإنَّ مِن أهْلِ العِلْم من قال: إنَّ الضَّمِير في قَوْلِه: (له) يعود إلى الله، وأنَّه من بابِ الالْتِفاتِ بدلًا من أن يقولَ: كُلٌّ لنا أوَّابٌ، قال: كُلٌّ له أوَّابٌ، ولكنَّ هذا المَعْنى لا يَتَعَيَّن، بل المَعْنى الأول أَظْهَرُ كما مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

• ● ۞ ● •



الآية (٢٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠].

• • ✿ • •

ثم قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قـوَّينا مُلْكَه؛ لأنَّ الشَّـدَّ يأتي بِمَعْنى التَّقْوِيَة، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النَّبأ:١٢] أي: قَوِيَّة؛ بدليل قَوْلِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقُوَّةٍ، فالشَّـدُّ هنا بِمَعْنى القُـوَّةِ؛ أي: قوَّينا مُلكَه، وتَقْوِيَةُ المُلْكِ فَسَّرَها المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْلِه: [قوَّيناه بالحَرَسِ والجُنُود] وهذا لا شَكَّ نوعٌ من التَّقْوِيَة أن يكون لدى المَلِكِ حُرَّاس وجنودٌ، الحُرَّاس هم المُوالونَ له، والجُنُودُ هم التَّابِعونَ له وإنْ لم يُوالوهُ، لَكِنَّهم جنودٌ له، متى أَمَرَهُم ائْتَمَرُوا، وأَمَّا الحُرَّاسُ فهم المباشِرون للمَلِكِ، فاللهُ شدَّ مُلكَه بالحُرَّاسِ والجُنودِ، هذا وَجْهٌ من شدِّ المُلْك، وشدَّ مُلْكَه بقُوَّة السُّلْطان؛ لأنَّ السُّلْطان إذا كان ضعيفًا مهما كان عِنْدَه من الحَرَس والجُنُود فإنَّهُ ضعيفٌ، لكنْ إذا أَعْطاه الله القُوَّةَ والعَزِيمَةَ وعَدَمَ المبالاةِ بأَعْدائِهِ فهذا شدُّ مُلْكٍ.

يُوجَدُ مَلِكٌ عنده آلافُ الجُنُـود والحُرَّاس ولَكِنَّه ضعيـفٌ، يخاف من ظِلِّـه، ولا يحمي حُدُودَه، هذا لا شَكَّ أنَّه وإن كان عنده حُرَّاس كثيرونَ وجُنُودٌ، فإنَّ مُلْكه ضعيـفٌ؛ لأنَّ غايَةَ ما ينفعه الجُنـودُ به أن يكونوا مُدافِعينَ فقط، لكن إذا قوَّى الله مُلْكَه بما عنـده من قُوَّةِ العَزِيمَةِ والجَلَدِ والصَّبْـرِ والتَّحمُّل وعَدَمِ المبالاةِ بالأَعْداء،

صار حينئذ عنده قُوَّةُ مُهاجَمَة ومُدافَعَة؛ الأَمْرينِ جميعًا.

أمَّا مَن عِنْده جنود فالغالِبُ أنَّه يُحْرَسُ لِضَعْفه، ولا أَحَدَ يَشُكُّ بأنَّ عُمَرَ بْنَ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أقوى النَّاسِ مُلْكًا لكن خِلافَة، ومع ذلك ليس عنده جنودٌ يَحْرُسُونَه، بل هو بنفسه كان يجمَعُ الحَصْباء في المسْجِد، ويَضَعُ رداءه عليها وينامُ عليه، ليس عنده أحدٌ، ومع ذلك فقد حماه الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَن: شدُّ المُلكِ ليس مُقْتَصِرًا على كَثْرَة الحَرَس والجُنُود، بل قد يكون في الحَرَس والجنود ما يؤَدِّي إلى الضَّعْف، إذا كان الإِنْسَانُ لا يقوَى ولا يتحَرَّك إلا بالحَرَس والجُنُود، فهذا قد يكون دليلًا على ضَعْفِه وخَوْفِه وعَدَمِ أَمْنِه؛ لذلك فإنَّ اقْتِصار المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ على كثرَةِ الحَرَسِ والجُنُود في شَدِّ المُلْكِ، لا شَكَّ أنَّه ضعيفٌ جِدًّا، وأهَمُّ شيء أن يَقْوَى مُلْكُه بما لديه من الشَّخْصِيَّة وقُوَّةِ العَزِيمَةِ وعَدَمِ المبالاة بأَعْدائِهِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قَوَّيْناه بالحَرَسِ والجُنُود وكان يَحْرُس مِحرابَهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ ثلاثونَ أَلْفَ رَجُلٍ] هذه إِسْرَائِيلِيَّة بلا شَكٍّ، لم تَرِدْ عن مَعْصومٍ، وبناءً على ذلك، فإن كانت قَرِيبةً من التَّصَوُّر فإنَّنا لا نُصَدِّقُها ولا نُكَذِّبُها، وإن كانت بعيدةً من التَّصَوُّر فإنَّنا نُكَذِّبُها.

والبعيدُ من الواقِع الذي لم يَرِدْ عن معصومٍ يُكذَّب؛ لأنَّه ليس فيه خَبَرٌ ثابِتٌ، فإذا لم يكن هناك خبَرٌ ثابِتٌ رَجَعْنا إلى تَحكيمِ العَقْلِ؛ فهل يُعْقَلُ مثلًا أن يكون عند داودَ كُلَّ ليلةٍ ثلاثونَ ألفًا يَحْرسونَ مِحْرابَه؟!

على كُلِّ حالٍ: هذا خَبَرٌ إِسْرائيليٌّ، وأقرب ما يكون عندي أنَّه كَذِبٌ، وأنَّه إن صَحَّ أنَّ عنده حَرَسًا فَلْيَكُونوا خَمْسَةً أو عَشَرَةً وما أشبه ذلك، ثم إنَّهُ سيأتينا في قِصَّةِ

الخُصُومِ أَنَّهُم تَسَوَّرُوا المحراب، فهل يَتَسَوَّرونَ المِحْرابَ وحَوْلَهُ ثَلاثونَ أَلْفًا؟!

فالحاصِلُ: أنَّ مِثْل هذه القِصَص الإِسْرائيلِيَّةِ تكون عندنا على ثلاثة أوجُهٍ:

الأَوَّل: ما شَهِدَ شَرْعُنا بِبُطْلانِهِ فَهُو باطِلٌ.

الثَّاني: ما شَهِدَ شَرْعُنا بِصِدْقِه فهو حَقٌّ بشَهادَةِ شَرْعِنا.

الثالث: ما لم يَشْهَدْ شَرْعُنا بخلافه فإنَّنا نَرْجِعُ إلى العَقْلِ إن كان قريبًا فإنَّنا لا نُصَدِّقُ ولا نُكَذِّب، وإن كان بعيدًا فإنَّنا نُكَذِّبُ؛ لأنَّ هذا لَمَّا انتفى فيه الدَّليلُ الشَّرْعِيُّ نَرْجِعُ فيه إلى الدَّليلِ العَقْلِيِّ، فإذا كان العَقْلُ يَسْتَبْعِده أَبْعَدْناه.

يقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ آتيناه: أعطيناه، وهناك فَرْقٌ بين آتَيْناه وأَتَيْناه؛ آتيناه: بِمَعْنى أَعْطَيْناه، وتَنْصِبُ مفعولين، من باب كَسَى، وأتيناه: بِمَعْنى جِئْنَاه، وتَنْصِب مفعولًا واحدًا ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] أي: جِئْنا طائعين، ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٦٤] أي: جئناك بالحَقِّ، أَمَّا آتى بالمَدِّ بِمَعْنى أعطى، فتَنْصِبُ مَفْعولَيْن ليس أَصْلُهما المُبْتَدَأ والخَبَر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هنا نصبت مفعولين: الأَوَّل: الهاء، والثَّاني: الحِكْمَة، وما هي الحِكْمَة؟

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [النُّبُوَّةَ والإِصابَةَ في الأُمُورِ]؛ لأنَّ النُّبُوَّة حِكْمَة بلا شَكٍّ، كُلُّ نَبِيٍّ فإِنَّهُ مُؤْتًى للحِكْمَة، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] والإصابة في الأُمُور أيضًا حِكْمَة؛ كَوْنُ الإِنْسَانِ يُوَفَّق للإصابة في الأُمُورِ؛ مثل أن يكون ذا رأيٍ سَديدٍ، فإنَّ هذا لا شَكَّ أَنَّه حِكْمَة؛ ولِهَذا يقال: فلان حكيمُ زَمانِه؛ أي: لإصابته في الأُمُور.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [البيانَ الشَّافِيَ في كُلِّ قَصْدٍ]

فَصْل الخِطابِ، هل المَعْنى أنَّه يَفصِلُ الخِطابَ الصَّادِرَ من غَيْـره بِمَعْنى أنَّه يَفْصِل بين الخُصُـوم ما تخاطبوا فيه؛ كمـا يدلُّ عليه قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾؛ لأنَّ المتخاصِمَيْنِ كُلٌّ منهما يأتي بحُجَّةٍ، يتكَلَّم ويقول؛ ولهَذا قال ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ**»[1].

إِذَن: فَصْلُ الخِطابِ يَعْني فَصْلَ الخِطابِ الحاصِلِ من غَيْـرِه؛ أي: يفْصِل في خِطاب النَّاسِ، أو فَصْلُ الخِطابِ يعني خِطابَه هـو، يعني أنَّ خِطابَهُ كان فَصْـلًا؛ أي: ذا بيانٍ وفَصَاحَـةٍ يعني خِطابه هـو، يعني أنَّ خِطابَهُ كان فَصْـلًا؛ أي: ذا بيانٍ وفَصاحَةٍ، نقول: المعنيان مُحْتَمِلان، فالآيَة تَحْتَمِلُ هذا وهذا، وهما لا يَتَنافيانِ، فيَجِبُ أن تكونَ الآيَة محمـولةً عَلَيْهِما، حتى إنَّ بَعْضَهُم قال: إنَّ فَصْلَ الخِطابِ هو قوله: أَمَّا بَعْدُ؛ لأن (أَمَّا بَعْدُ) تَفْصِلُ ما قبلها عمَّا بَعْدَها، ولكن هذا ليسَ بصحيح؛ (أَمَّا بَعْدُ) لا شَكَّ أنَّها تُعْطي الكَلامَ رَوْنَقًا وجَمالًا وتفصيلًا، لكنْ كَوْنُنا نَجْعَلُها هي فَصْلَ الخِطابِ فيه نَظَرٌ، والله أعلم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوَّى مُلْكَ داودَ بما ذكرنا من التَّقْوِيَة المعنوِيَّة والحِسِّيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ تَقْوِيَةَ المُلْكِ من أكْبَر أوصافِ المَلِك التي يتمتَّع بها؛ لأنَّ الله تعالى منَّ بها على داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قَوْلِه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثَّناءُ على داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنَّ الله تعالى مع تَقْوِيَة مُلْكِه آتاه الحِكْمَةَ

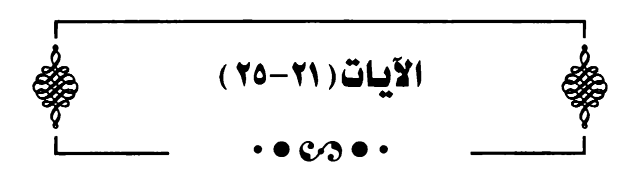
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

في تصرُّفه؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى منَّ على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بفَصْلِ الخِطابِ؛ أي: الخِطابِ الفَصْلِ البَيِّنِ الذي يَفْصِلُ به بين النَّاس، ويَفْصِلُ به بين الحَقِّ والباطِلِ، وبين الضَّارِّ والنَّافِعِ.

• ● ❁ ● •



الآيات (٢١-٢٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢١-٢٥].

• • ◦ • •

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الواو عاطِفَة والجُمْلَةُ مَعْطوفَة على ما سبق؛ لأنَّ الكَلامَ كُلَّه في شأْنِ داودَ، والاسْتِفْهامُ هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [للتَّعَجُّب والتَّشْويقِ إلى اسْتِماع ما بعده] يعني أنَّ هذه القِصَّة عَجيبَة، وأنَّها لكَوْنها عَجيبَة مِمَّا يُشَوَّق إليه، والاسْتِفْهامُ كما نعلم جميعًا تَخْتَلِف معانيه بحسَب السِّيَاق، وإلا فإنَّ الأَصْل فيه أنَّه الاسْتِخْبار عن الشَّيْء؛ أي: طَلَبُ الإِفْهامِ عنه، يقال: اسْتَفْهَمَ عن كذا؛ أي: طَلَبَ الإفهامَ عنه.

هذا الأصْلُ، لكنَّ سياقَ الكَلامِ يُغَيِّـر المعانيَ الأَصْليَّة إلى ما يقتضيه السِّيَاقُ، فالمراد به هنا التَّشْويقُ، وله نَظيرٌ؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ

نُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠] المرادُ به هنا التَّشْويق، وقد يكون المرادُ بالاسْتِفْهامِ التَّهْويلَ مثل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

يقول: [﴿وَهَلْ﴾ اسْتِفْهامٌ هنا للتَّعجُّب والتَّشْويقِ إلى اسْتِماع ما بعده ﴿أَتَىٰكَ﴾ يا مُحَمَّدُ] جعَلَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخِطابَ هنا للرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكن يجوزُ أن يكون الأَمْرُ كما ذهب إليه المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويجـوز أن تكون الكافُ لِكُلِّ من يصِحُّ خِطابُهُ؛ أي: وهل أتاك أيُّها المخاطَبُ، وإذا قلنا بهذا القَوْلِ صارت دَلالَةُ الآيَةِ أعَمَّ.

والقاعِدَة عندنا في التَّفْسيـرِ أنَّه كُلَّما كان أعَمَّ فإنَّهُ أَوْلى، وعليـه فيكونُ المُرادُ بالكافِ هنا المخَاطَبَة لِكُلِّ من يصِحُّ خِطابِه، واعلم أنَّ كُلَّ خِطابٍ في القُرْآن الكريم مُوَجَّهٌ إلى مخاطَبٍ فإنَّهُ على ثلاثة أقْسامٍ:

الأَوَّل: أن يَدُلَّ الدَّليلُ على أنَّه عامٌّ فيؤخَذُ بعُمُومِه.

الثَّاني: أن يدُلَّ الدَّليلُ على أنَّه خاصٌّ فيؤْخَذُ بِخُصوصِهِ.

الثالث: ألَّا يكونَ هناكَ دليلٌ لِهَذا ولا لِهَذا فيُؤْخَذُ بعُمُومِه.

مثالُ الأَوَّل: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١]. فـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ خِطاب مُـوَجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ، لكنَّ حُكْمَه عامٌّ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فجَعَلَ الحكْمَ عامًّا لجميع الأُمَّة.

وما دلَّ الدَّليلُ على خُصوصِهِ فَمِثْل قَوْلِه تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣] هذا خِطاب خاصٌّ بالرَّسُولِ ﷺ لا يَشْرَكُهُ غَيْره.

وما كان مُحْتَمِلًا لِهَذا وهذا، فهو كثيرٌ؛ ومنه هذه الآية ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ مَرَّ علينا قريبًا الفَرْقُ بين أتاك وآتاك، ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: (نبأ) بِمَعْنى خَبَر، ولَكِنَّه لا يُقالُ غالبًا إلا في الخَبَر الهامِّ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النَّبَأ:١-٢].

فهنا نَبَأُ بِمَعْنى خَبَر، لَكِنَّه في أمْرٍ هامٍّ، وقوله: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ أي: الْمُتَخاصِمِينَ بدليل قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ فالخَصْمُ لفظُه مُفْرَد لكن معناه الجَمْع، وسُمِّيَ المتخاصِمونَ خَصْمًا؛ لأنَّ كُلَّ واحد منهما يريد أن يَخْصِمَ صاحِبَه؛ أي: أن يَغْلِبَه في الحُجَّة، ويَقْطَع حُجَّته.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ قوله: ﴿إِذْ﴾ مُتَعَلِّقَة ولا يَصِحُّ أن تتعلَّق بـ﴿أَتَىٰكَ﴾؛ لأنَّ تَسَوُّرَهم للمحراب سابِقٌ ولا بـ(النَّبَأ)؛ لأن تَسَوُّرَهم للمحراب أيضًا سابِق، ولَكِنَّها تتعلَّقُ بِشَيْءٍ مُقَدَّر يدُلُّ عليه السِّيَاقُ، يعني اذْكُرْ إذ تَسَوَّرُوا المحراب. قالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِحْرابَ داودَ؛ أي: مَسْجِدَه؛ حيث مُنِعوا الدُّخُول عليه من البابِ لشَغْلِهِ بالعِبادَة].

﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ بِمَعْنى دَخَلوا مع سُورِهِ؛ لأنَّ المكان مُسَوَّر؛ لأَنَّه بيتٌ يُتَعَبَّدُ فيه، فهو مُسَوَّر وله أبوابٌ، فجاؤُوا ذاتَ يَوْم -أي الخَصْم- فوجدوا البابَ مُغْلَقًا، والخُصُوم كما تَعْرِفون؛ كُلُّ ذي حاجة فهو أعمى، قالوا: هذا الذي أَغْلَق بابَ بَيْتِه أو مِحْرابِهِ نَتَسَلَّق أو نتسَوَّر عليه، نأتيه من فَوْق، فتَسَوَّروا المحرابَ.

يقول الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حيثُ مُنعوا الدُّخُولَ عليه من البابِ لِشَغْلِهِ بالعِبادَة؛ أي: خَبَرهم وقِصَّتهم] فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَغْلَق الباب؛ لأَنَّه أراد أن يتعبَّد لله، وهذا

لا شَكَّ أنَّه يَمْنَع من وصول الخُصُوم إليه، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سلَّط هؤلاء حيث جاؤوا فوجدوا البابَ مُغْلقًا أو مُنِعوا من الدُّخُول، فتَسَوَّروا المحراب من السُّورِ.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ (إذ) بَدَلٌ من (إذْ) الأولى، ويحتمل أن تكون مُتَعَلِّقَةً بِتَسَوَّرُوا، وأنا أقول هكذا؛ لأن إذ: ظرفٌ، والظَّرْف والجارُّ والمَجْرُورُ لا بدَّ لهم من مُتَعَلَّقٍ.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: خاف؛ وذلك لأنَّهم جماعَةٌ وتَسَوَّروا المحراب، ومثل هؤلاء يُخِيفون؛ أَرَأَيْتَ لو أنَّ أحدًا تسَوَّر عليك البَيْتَ وهم جماعَةٌ، لا شَكَّ أَنَّكَ ستخافُ، والخَوْفُ هنا طبيعِيٌّ تَقْضيه الطَّبيعَة والجِبِلَّةُ، فَفَزِعَ منهم، فلمَّا رأَوْه قد فَزِعَ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ يعني أَنَّنا ما جِئْنا لقَتْلٍ ولا نَهْبٍ ولا تَخْريب.

﴿خَصْمَانِ﴾ أي: نحن خَصْمانِ. [قيل: فَريقانِ ليُطابِقَ ما قَبْلَه من ضَميرِ الجَمْع، وقيل: اثنان، والضَّميرُ بِمَعناهما] يعني خصمان؛ أي: طائفتان مُخْتَصِمَتان، والذين قالوا: إنَّ المرادَ هنا بالخَصْمَينِ الطَّائفتانِ استدلوا بدليلِ الجَمْعِ السابق، وهو قوله: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ و﴿دَخَلُوا۟﴾ وقيل: إنَّهُم خَصْمان؛ أي: رَجُلان اثنان اخْتَصَمُوا.

[والضَّمِير بمعناهما]؛ أي: ضَميرُ الجَمْعِ السَّابِقُ بِمَعْنى هما؛ أي: بِمَعْنى الاثنين، ولكِنَّ الذي يظهر الأول، خصمان؛ أي: فريقان مُخْتَصِمان؛ لأنَّ ذلك هو المطابِقُ لضَميرِ الجَمْع، ولأنَّ ذلك هو الذي يحصل منه الفَزَعُ؛ لأَنَّهم إذا كانوا جماعَةً صار الفَزَع منهم أكثر.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والخَصْمُ يُطْلَقُ على الواحِدِ وأَكْثَرَ] صحيحٌ فيقال لِمُدَّعٍ خَصْمٌ ومُدَّعًى عليه خَصْمٌ، ولو كان واحدًا، ويقال لجماعة مع جماعة: هم أيضًا خَصْمٌ.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُمَا مَلَكانِ جَاءا فِي صُورَة خَصْمَيْنِ وَقَعَ لَهُمَا مَا ذُكِر هنا عَلَى سَبيل الْفَرْض لِتَنْبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُ، وَكَانَ لَهُ تِسْع وَتِسْعون امْرَأَة وَطَلَبَ امْرَأَة شَخْص لَيْسَ لَهُ غَيْرُهَا وَتَزَوَّجهَا وَدَخَلَ بِهَا].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ هَذَيْنِ الخَصْمَـيْنِ ملَكانِ أَرْسَلَهُما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى داوُدَ من أَجْلِ أن يُنبِّهَه على قَضِيَّة مُعيَّنَةٍ.

هذه القَضِيَّة كما تقول الإسْرائِيليَّاتُ: أَنَّهُ عَشِقَ امرأةَ رَجُلٍ، فأمر زَوْجَها أن يَخْرُجَ للجِهادِ لَعَلَّهُ يُقْتَل، فإذا قُتِلَ تَزَوَّجها، فأَرْسَل الله تعالى إليه الملَكَيْنِ من أجل أن يُنبِّهاهُ على بَشاعَةِ هذه القَضِيَّة؛ لأنَّها بَشِعَةٌ من أدنى النَّاسِ فكيفَ تكونُ مِنْ نَبِيٍّ؟!

وكأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَشَأْ أن يُنبِّهَه بالوَحْيِ، فيقول: يا داودُ لِمَ تَفْعَلُ كذا؟ كما نبَّه الله آدَمَ حينما أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَة بدون ضَرْبِ مَثَلٍ، وكذلك نبَّه الله مُحَمَّدًا ﷺ حين عَفَا عن قَوْمٍ من المنافِقينَ بدون أن يَتبَيَّنَ أَمْرَهُم بدون ضَرْبِ مَثَلٍ، ونَبَّهَهُ على تحريمه ما أحل الله له لابتغاء مَرْضاةِ أَزْواجِهِ بدونِ ضَرْبِ مَثَلٍ، إلى غير ذلك من الشَّواهِدِ الكثيرة التي تَدُلُّ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنبِّه على ما يَحْصُل من الرُّسُلِ بدون أن يَضْرِب لَهُم أمثالًا. لكنَّ هذه القِصَّةَ الإِسْرائيلِيَّة أَبَتْ إلا أن يَضْرِبَ مَثَلًا لفِعْلِ داودَ المُدَّعى المزْعومِ.

والحَقيقَةُ أنَّ هذه القِصَّةَ باطِلَةٌ، لا يَحِلُّ لأحَدٍ أن يَعْتَقِدَها في داودَ ﷺ؛ أَنَّه عَشِقَ امْرأةَ رَجُلٍ وأراد أن يَتَزَوَّجَها، وأَنَّه كان عنده تِسْعٌ وتِسعونَ امْرأةً، فأرادَ أن يُكْمِلَ بها المِئَة.

هذا غيرُ لائقٍ بأدنى واحِدٍ من النَّاس فضلًا عن نَبِيٍّ من أَنْبِياءِ الله، لكن اليهود -لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ- لا يُبالونَ أن يُلَطِّخوا الأَنْبياء كما لَطَّخُوا مَنْ أَرْسَلَ الأَنْبِياءَ، فقالوا:

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١] وقالوا: إنَّ الله يتعب، فليس غريبًا أن يُلَطِّخُوا الأَنْبِيَاءَ بالعِشْقِ والحِيَل والمَكْر؛ فلِهَذا لطَّخُوا داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكِذْبَة.

والصَّحيحُ الذي لا شَكَّ فيه أَنَّهُم خَصْمان من البَشَرِ وليسوا ملائكَةً، خَصْمانِ من البَشَـرِ تنازعا في قَضِيَّةٍ بينهما ستأتي في القُرْآنِ الكريم، وكلُّ ما سوى ذلك فإنَّهُ كَـذِبٌ؛ لأنَّ القُرْآنَ يُكَـذِّبُه، فإنَّ القُرْآن إذا أتى بالقِصَّةِ فلا بدَّ أن يأتِيَ بها على وَجْهِ الكَمالِ؛ لتكونَ عِبْرَةً، وعلى وَجْهِ الصَّراحَة؛ لئلا يكونَ فيها الْتِباسٌ أوِ اشْتِباهٌ.

فالقِصَّة كما هي في القُرْآنِ تمامًا؛ لا يُوجَدُ مَـلائِكَةٌ، ولا يُوجَد رجُلٌ له زَوْجَةٌ حَسْناء أرادها داودُ أبدًا، ولا يجوز للمُسْلِم أن يَعْتَقِدَ هذا في أحَدٍ من أَنْبِيَاءِ الله.

والقِصَّةُ هي: أَنَّهُم دخلـوا عليه فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾.

خَصْمانِ بَغَى بَعْضُهُما على بعضٍ؛ أي: اعْتَدى عليه؛ لأنَّ البَغْيَ هو العُدْوان، وطلبوا منه أَنْ يَحْكُم بَيْنَهم لَكِنَّهم أضافوا كَلِمَةً لَيْست بِجَيِّدَةٍ؛ قالوا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ومثل هـذا لا يَنْبَغي أن يُقالَ لنَبِيٍّ من الأَنْبياءِ، بل ولا يَنْبَغي أن يُقالَ لأي حَكَمٍ يُتَحاكَمُ إليه؛ لأَنَّكَ إذا تَحاكَمْتَ إلى رَجُلٍ مع خَصْمِك فإنكما تَعْتَقِدان أنَّ ما يقولُهُ هو الحقُّ. ليس الحَكَم في مقامِ تُهْمَةٍ حتى يُقالَ: احْكُم بيننا بالحَقِّ.

ولِهَـذا انْتَقَدَ الصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في قِصَّةِ العَسِيـفِ[1] الذي زَنى بامْـرَأَةٍ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب هل يأمر الإمام رجلًا فيضرب الحد غائبًا عنه، رقم (٦٨٥٩، ٦٨٦٠)، ومسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف بالزنى (١٦٩٧، ١٦٩٨)، من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

اسْتَأْجَرَه لَمَّا حَضَرَ أبو الوَلَدِ الزَّاني وزَوْج المرأة، قال أحدُهُما للرَّسُولِ ﷺ: أنشُدُكَ اللهَ إلَّا قضيتَ بيننا بكِتابِ الله، فناشَدَ الرَّسُولَ ﷺ أن يَقْضِيَ بينهما بكتابِ الله، قالوا: وقال الآخَرُ، وكان أَفْقَهَ منه: نَعَمْ، فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكتابِ الله، ولم يُناشِدِ الرَّسُولَ ﷺ؛ لأنَّ طَلَبَ المناشَدَةِ في هذا المقام خَطَأٌ.

فأنت ما جئْتَ إليه إلا وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّه يَحْكُم بكتاب الله، فلا حاجَةَ لِأَنْ تُناشِدَه.

هؤلاء قالوا: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو لن يَحْكُمَ إلا به حتى بإِقْرارِهِم؛ لأنَّهما جَعَلاه حَكَمًا ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ الشَّطَطُ يعني: النَّقْصَ أو الجَوْر؛ ولِهَذا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسيره: [لا تَجُرْ] أي: لا تَجُرْ بالحُكْمِ فتَميلَ مَعَ أَحَدِنا [﴿وَٱهۡدِنَآ﴾ أَرْشِدْنا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وَسَطِ الطَّرِيقِ الصَّوابِ] يعني إذا حَكَمْتَ فاحْكُم بالحَقِّ، بالعَدْلِ؛ بدونِ جَوْرٍ.

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: دُلَّنا إلى الصِّراطِ السَّواءِ، يعني إلى وسط الصِّراطِ، أو إلى الصِّراطِ المُسْتَقيم، وعليه فتكونُ ﴿سَوَآءِ﴾ من بابِ إضافَةِ الصِّفَة إلى مَوْصوفِها؛ يعني اهدنا إلى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ العَدْلِ، والهِدايَة هنا هِدايَةُ دَلالَةٍ وإِرْشادٍ؛ لأنَّه لا يستطيع أن يُجْبِرَهم على ما يَحْكُم به، لكنْ هي دَلالَةٌ، فلو قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ﴿وَٱهۡدِنَآ﴾ لو قال: دُلَّنا لكان أَحْسَنَ.

والقَضِيَّة هي: أنَّ أَحَدَ الخَصْمينِ قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ سبحان الله! هذان الخَصْمانِ غَريبانِ يَتَخاصَمانِ ثُمَّ يقول أَحَدُهُما للآخَرِ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ والخُصُومَة عادةً: أنَّ الخَصْم يَسُبُّ خَصْمَه فيقول: هذا المُعْتَدي الظَّالِمِ الفاجِر، أَمَّا هذا فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ وهو يدُلُّ على أنَّ الخُصومَة ليست تَحْمِلُ وراءها شيئًا من العَداوَةِ والبَغْضاء.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي: على ديني] وقالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا؛ لِيُفيدَ أنَّ الأُخُوَّةَ هنا ليست أُخُوَّة نَسَبٍ، بل هي أُخُوَّة الدِّينِ، ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أي: مِئَةٌ إلا واحِدَةً.

و﴿نَعۡجَةً﴾ مَنْصوبَةٌ على أنَّها تَمْييزٌ، وكُلُّ عدد له تَمْييزٌ؛ لأنَّ العَدَدَ إذا لم يُذْكَرِ المعدود كان مُبْهَمًا، وإذا ذُكِرَ المعدود كان هذا تَمْييزَهُ، ثم هذا التَّمْييزُ قد يكون مَجْرُورًا وقد يكون مَنْصوبًا؛ ففي قولنا: عَشَرَةُ رجالٍ، التَّمْييزُ مَجْرُورٌ، وفي قولنا: عِشْرُونَ رَجُلًا، التَّمْييز مَنْصوبٌ، هنا ﴿نَعۡجَةً﴾ التَّمْييزُ مَنْصوبٌ؛ لأنَّ كُلَّ ألفاظِ العُقودِ من عِشْرينَ إلى تِسْعينَ كُلُّها يكون تَمْييزُها مَنْصوبًا.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسير ﴿نَعۡجَةً﴾: [يُعَبَّر بها عن المَرْأَةِ] يفيد أنَّ هذا ليس هو الأَصْلَ في النَّعْجَةِ، وهو كذلك، فالأَصْلُ أنَّ النَّعْجَة أُنْثى الغَنَم، أُنثى الشِّياه وليست هي المَرْأَة، فإذا كان هذا هو الأَصْلَ فمن ادَّعى أنَّ المرادَ بالنَّعْجَة هنا المَرْأَةُ فعليه الدَّليل؛ لأنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعى خلافَ الأَصلِ فعليه الدَّليل، فالنَّعْجَة ليست هي المَرْأَةَ في هذه الآيَة، بل هي واحِدَةُ الضَّأْنِ.

قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: مِئَةٌ إلا واحِدَةً ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ﴾ وأَكَّدَها بِقَوْلِه: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ من أَجْلِ تَقْليلِها، وإلا فإنَّ الواحِدَة مَفْهومةٌ من قوله: ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ﴾ لَكِنَّه قال: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ تأكيدًا للقِلَّة؛ أي: ليس لي إلا واحِدَةٌ ثم قال: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجْعَلْني كافِلَهَا، وذلك بأن تَضُمَّهَا إلى نِعاجِي؛ لأَنَّه إذا ضَمَّها إلى نعاجِه صارَتْ في مِلْكِه، وهو الكافِل لها.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ غَلَبني في الخِطابِ، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الجِدالِ] يعني أنَّه صار يُجادِلُني حتى غَلَبَني فأَقْرَرْتُ له [وَأَقَرَّه الآخَرُ على ذلك] الآخَرُ يعني

المدَّعَى عليه، ولَيْسَ في الآيَة ما يَدُلُّ على أنَّ المدَّعى عليه أقرَّ أو أنَّه أَنْكَر.

المُدَّعَى عليه مسكوتٌ عنه، فدَعْوى أنَّه أقرَّه تحتاجُ إلى دليلٍ، ولو كان هذا هو الواقِعَ لَذَكَره الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِمَا في حَذْفِه من الإيهامِ الذي يجعل حُكْمَ داودَ حُكْمًا فيه شيءٌ من الجَوْر؛ لأنَّ حَذْفَه يؤَدِّي إلى سُوءِ الظَّنِّ بداودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث لم يَسْتكْمِل مُجْرياتِ القَضِيَّة.

فالظَّاهِر -والله أعلم- أنَّ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا سَمِع هذا العُدوان من هذا الشَّخْص الذي أَنْعَم الله عليه بِنِعَمٍ كثيرة، ثم ذهب يُحاوِلُ أن يَسْتَلِبَ حَقَّ هذا الفَقيرِ الذي ليس عنده إلا نَعْجَةٌ واحِدَةٌ، كأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَضِبَ وحَكَمَ للمُدَّعي؛ فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ الجُمْلَةُ هنا مُؤَكَّدَةٌ بثلاثِ مُؤَكِّداتٍ: القَسَمِ المُقدَّرِ واللامِ وقد؛ لأن تَقْديرَ الكَلام: واللهِ لَقَدْ ظَلَمَكَ.

وقوله: ﴿ظَلَمَكَ﴾ أَصْلُ الظُّلْمِ في اللُّغَة: النَّقْص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣] ويُطْلَقُ في الشَّرْعِ على النَّقْص والعُدْوان، يعني على نَقْصِ الحَقِّ والعُدْوانِ في طَلَبِ ما ليس للإِنْسَانِ، فهو في الحَقيقَة العُدْوانِ سواءٌ كان بنَقْصِ ما يَجِبُ أو بادِّعاءِ ما لا يَسْتَحِقُّ، فمن ضرب شخصًا أو أَخَذَ مالَهُ، قيل: إنَّهُ ظَلَمَه، ومن جَحَدَ ما هو له وأَنْكَر، قيل: إنَّهُ ظَلَمَه.

والظُّلم في قَوْلِه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من العُدْوان؛ ولِهَذا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ لِيَضُمَّهَا ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾] قدَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: لِيَضُمَّها؛ من أجل أن يَصِحَّ التَّعْبيرُ بـ(إلى)؛ لأنَّ السؤال لا يتعدَّى بـ(إلى) لَكِنَّه مُضَمَّنٌ معنى الضَّمِّ؛ أي: بسؤاله أن يَضُمَّ نَعْجَتَكَ إلى نعاجِهِ.

وَجْهُ الظُّلْم في هذا ظاهِرٌ؛ لأنَّ صاحِبَ التِّسْعَةِ والتِّسعينَ قد أَنْعَم الله عليه

نِعْمَةً كبيرةً، وصاحِبُ الواحِدَة مُعْدِمٌ فَقيرٌ، وأيضًا فإنَّ هذه الواحِدَة مِلْكٌ له، فكيف يَعْتَدي هذا ويقول: أَعْطِنِيها، ويُلِحُّ عليه حتى يَغْلِبَه في الحِجَاجِ والمُخاصَمَةِ.

ثم قال داودُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشُّـركاءِ ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ عندنا كثيـرٌ وقليلٌ، كثيـرٌ يَبْغي بَعْضُهم على بَعْضٍ، وقَليلٌ لا يبغي بَعْضُهم على بَعْضٍ، فالقَليلُ الذي لا يَبْغي بَعْضُهم على بَعْضٍ هم الذين وَصَفَهُم الله بِقَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالمُؤْمِنُ العامِلُ للصَّالِحاتِ لا يَحْدُث منه البَغْيُ لِمَا معه مِن الإيمانِ والعَمَل الصَّالِح، ومَن فاتَهُ شَيْء مِن هذا الوَصْف حصل منه مِن البَغْيِ بِمِقْدارِ ما فاته مِن الوَصْف، فمَن نقَصَ إيمانُه حصل منه البَغْيُ، ومَن قلَّتْ أَعْمالُه الصَّالِحَةُ حصل منه البَغْيُ؛ لأنَّ الأَعْمال الصَّالِحَةَ يَجُرُّ بَعْضُها بعضًا، فإذا عَمِلَ الإِنْسانُ عملًا صالِحًا أتبعه بِعَمَل آخر؛ لأنَّ للطَّاعَة لَذَّةً وسـرورًا في القَلْـبِ، إذا قام الإِنْسَانُ بها ازداد رَغْبَةً فيها، وإذا أَعْرَض قلَّـتْ أَهمِّيَّة الطَّاعات عنده وضَعُفَ قَصْدُه للطَّاعاتِ وتَجَرَّأ على المعاصي.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ يعني الشُّـركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ اللام في قَوْلِه: ﴿لَيَبْغِي﴾ للتَّوْكيدِ، ويبغي: من البَغْيِ، وهو العُدْوانِ، وهذا هو الواقِعُ: أنَّ كثيرًا من الشُّركاءِ يَبْغي بَعْضُهم على بَعْضٍ؛ إمَّا بِأَخْذ بَعْضٍ من مالِ الشَّرِكَةِ، أو بِكِتْمانِ الرِّبْحِ لو رَبِحَـتْ، أو التَّغْريرِ بالمالِ بحيث يتَصَـرَّف فيه على وَجْهٍ ليس فيه حـظٌّ للشَّرِكَة، أو بادِّعاءِ أنَّ المُشْتَرَكَ مِلْكٌ خاصٌّ له.

وأَنْواعُ العُدْوانِ بَيْنَ الشُّركاء كثيرةٌ، ولكنَّ كثيرًا من الشُّركاءِ يَبْغي بَعْضُهم على بَعْضٍ؛ ولِهَذا إذا أَصْلَحَ الشُّركاءُ النِّيَّة، ونَصَحَ بعضُهم بعضًا أَفْلَحوا، وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا ثَالِـثُ الشَّرِيكَيْـنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَـهُ، فَإِذَا خَانَـهُ**

خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا»[١].

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إِلَّا: أداةُ اسْتِثْناءٍ وما بعدها في مَحَلِّ نَصْبٍ؛ لأنَّ الجُمْلَةَ السَّابِقَةَ كلامٌ تامٌّ مُوجَبٌ، وإذا سَبَقَ الاسْتِثْناءَ كَلامٌ تامٌّ مُوجَبٌ وَجَبَ النَّصْبُ. قال ابن مالك[٢]:

مَا اسْتَثْنَتِ الَّا مَعْ تَمَامٍ يَنْتَصِبْ ... وبَعْـدَ نَفْـيٍ أَوْ كَنَفْـيٍ انْتُخِـبْ

إِتْبَاعُ مَا اتَّصَلَ وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ ... وَعَـنْ تَمِـيمٍ فِيـهِ إِبْـدَالٌ وَقَـعْ

ولِتَمامِ الفائِدَةِ: إذا جاءت (إِلَّا) بعد كلامٍ تامٍّ مُوجَبٍ وَجَبَ نَصْبُ ما بعدها على الاسْتِثْناءِ، وإذا جاءت بعد كلامٍ تامٍّ مَنْفِيٍّ؛ جاز فيمـا بعدَها وَجْهان: الأَوَّل: النَّصْبُ على الاسْتِثْناءِ، والثاني: إِتْباعُ ما بَعْـدَها لما قبلها في الإِعْـرابِ، إلا إذا كان الاسْتِثْناءُ مُنْقَطِعًا؛ أي: إنَّ ما بعد (إلا) ليس من جِنْسِ ما قبلها فيَجِبُ النَّصْب، وإذا وقعـت (إلا) بعد كلامٍ مَنْفِيٍّ ناقِصٍ كانت بِحَسَـب العوامِلِ التي قبلها، إن كان العامِلُ يقتضي رفعًا رُفِع، وإن كان يقتضي نصبًا نُصِب، وإن كان يَقْتَضي جرًّا جُرَّ.

ونضرِبُ لذلك أمثلة: (قام القومُ إلا زَيْدًا)، بالنَّصْبِ؛ لأنَّ الكَلام تامٌّ مُوجَبٌ؛ قام القومُ تَمَّ الكَلامُ، مُوجَبٌ ليس به نَفْيٌ، فتقول: إلا زَيْدًا، وإذا قلـت: (ما قامَ القَوْمُ إلا زيدًا، أو إِلَّا زيدٌ) جاز الوجْهانِ: الرَّفْعُ على البَدَلِ، والنَّصْبُ على الاسْتِثْناءِ، فيجوز أن تقول: (ما قام القَوْمُ إلا زيدٌ) بتنوينِ ضَمٍّ، أو (ما قامَ القَوْمُ إلا زَيْدًا) بِتَنْوينِ الفَتْحِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في الشركة، رقم (٣٣٨٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الألفية (ص:٣١).

أَمَّا قولنا: (ما قام القَوْمُ إلا بَعيرًا)، هنا يتَعَيَّنُ النَّصْبُ؛ لأنَّ البَعيرَ ليس من جِنْسِ القَوْمِ، فالاسْتِثْناءُ مُنْقطِعٌ، فيَجِبُ النَّصْبُ هنا لتَعَذُّرِ البَدَلِيَّة.

وعلى هذا إذا قال قائلٌ: ما قامَ القَوْمُ إلا بعيرٌ.

قلنا: هذا خَطَأٌ؛ لأنَّ الاسْتِثْناءَ مُنْقَطِعٌ فَيَجِبُ النَّصْبُ، وإذا قُلْتَ: (ما قام إلا زَيْدٌ) بالرَّفْعِ؛ لأنَّ ما قبلها ناقِصٌ مَنْفِيٌّ، فيَجِبُ أن تَقولَ: (ما قام إلا زيدٌ)، وفي قولنا: (ما رأَيْتُ أَحَدًا إلا زَيْدًا) هذا تامٌّ مَنْفِيٌّ، وهذا مَنْصوبٌ على كُلِّ حالٍ، ويجوز الوجهان، لَكِنَّه مَنْصوبٌ لأَنَّكَ إن قلتَ: ما رأَيتُ أحدًا إلا زَيدًا، هو مُسْتَثْنًى فهو مَنْصوبٌ، وإن أَعْرَبْتَه بدلًا فهو مَنْصوبٌ.

إِذَن: يجوز الوجهان إعرابًا، أَمَّا شَكْلًا فلا يجوز إلا وَجْهٌ واحِدٌ وهو النَّصْبُ؛ لأَنَّكَ حتى وإن جَعَلْتَه بدلًا فسيكون مَنْصوبًا.

وفي الآيَة هنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تامٌّ مُوجَب، فالذين إِذَنَ في مَحَلِّ نَصْبٍ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بِقُلوبِهِم، وعملوا الصَّالِحاتِ بِجَوارِحِهِم.

والعَمَلُ يطلق على القَوْلِ والفِعْلِ، بخلاف الفِعْل فإنَّهُ يُطْلَق على فِعْل الجَوارِحِ، والقَوْل على قَوْلِ اللِّسَانِ. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه صِفَةٌ لمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ؛ أي: عَمِلوا الأَعْمالَ الصَّالِحاتِ، وجَمْعُها باعْتِبار أَنْواعِ الصَّالِحاتِ: صلاةٍ وصَدَقَةٍ وصِيامٍ وحَجٍّ وَبِرٍّ وَصِلَةٍ، وأَنْواع كثيرة؛ فلِهَذا جُمِعَت. وأحيانًا يقول: عَمِلَ صالِحًا فيُفْرِد باعْتِبار جِنْسِ العَمَل على سبيل العُمُومِ.

والأَعْمال الصَّالِحاتُ قال أَهْلُ العِلْم: هي ما جَمَعَتْ شَرْطَينِ، وهما: الإِخْلاصُ لله، والمُتابعَةُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فلا صلاحَ مع شِرْكٍ، ولا صَلاحَ مع بِدْعَةٍ، قال الله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠] وعلى هذا لو أنَّ رَجُلًا صلَّى رياءً فعَمَلُه غير صالِحٍ لِفَقْدِ الإِخْلاص. ولو أنَّ رجلًا تعبَّد لله بما لم يَشْرَعْه الله، ولَكِنَّه مُخْلِصٌ يريد التَّقَرُّبَ إليه، لا يريد شيئًا من الدُّنْيا، فعَمَلُه غيرُ صالِحٍ لعَدَمِ المتابَعَةِ.

وقد دلَّ على بطلان ما فيه الشِّرْك آياتٌ من القُرْآن مُتَعَدِّدة، وأحاديثُ من السُّنَّة مُتَعَدِّدَةٌ؛ مثل قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

ودلَّ أيضًا على اشْتِراطِ المتابَعَةِ آياتٌ وأحاديثُ؛ منها قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2] أي: مَرْدودٌ عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ الواو: حالِيَّة، وقليلٌ: خَبَرٌ مقدَّمٌ، وهم: مُبْتَدأٌ مؤخَّرٌ، يعني: وهم قليل، و(ما) في قَوْلِه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائِدَةٌ لفظًا وزائِدَةٌ معنًى، والمقصود بها تأكيدُ القِلَّةِ؛ أي: قِلَّة قَليلَة من العبادِ الصَّالِحين من المُؤْمنِين العامِلِينَ للصَّالِحاتِ.

وإذا تدبَّرْنا الواقِعَ وَجَدْنا الآيَة مُنْطَبِقَة تمامًا عليه؛ فإنَّ الله يقول يَوْمَ القيامة: «**يَا آدَمُ**»، فيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فيَقُولُ: «**أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ**» فيَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ أُخْرِجُ؟ فيَقُولُ: «**أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِئَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ**»[3] هؤلاء كلُّهم في النَّار

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وواحِدٌ في الجَنَّة، إِذَن القِلَّة قليلَةٌ، واحِدٌ من مِئَةٍ قليلٌ جدًّا.

قال ابْنُ القيم في النُّونِيَّةِ(١):

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا فِي الْأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

إِذَنْ نقولُ: إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ من بني آدَمَ قَليلونَ جدًّا، ويؤكِّدُ القلة قوله: ﴿مَا﴾ في ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا﴾ لِتَأْكيدِ القِلَّة، فقال المَلَكانِ صاعِدَيْنِ في صُورَتَيْهما إلى السَّماءِ: قَضَى الرَّجُلُ على نَفْسِهِ، فتنبَّهَ داودُ] الرَّجُلُ يعني داودَ؛ لأَنَّه حَسَبَ القِصَّة الإِسْرائِيليَّة المَزْعومَة أنَّ له تِسْعًا وتِسعينَ امْرأَةً، فطَلَبَ من رجلٍ ليس عنده إلا امرأةٌ واحِدَةٌ أن يُطَلِّقَ امْرَأَته ليتزوجَّها داود. وفي وَجْهٍ آخَرَ للقِصَّة أَنَّه أمره أن يَخْرُج في الجَيْشِ من أَجْلِ أن يُقْتَل حتى يَتَزَوَّج امرأته.

وقد بَيَّنَّا أنَّ هذا لا دليلَ عليه، وأنَّه لا يليقُ بِمقامِ العُقَلاءِ فَضْلًا عنِ الأَنْبياءِ، وأنَّ هذه قِصَّةٌ مَزْعومَةٌ من اليهود، فهم الذين رَكَّبُوها على داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ اليَهودَ لا يَعْتَقِدونَ دوادَ نَبِيًّا، وإنَّما هو على زَعْمِهِم مَلِكٌ.

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أَيْقَنَ أَنَّما أَوْقَعْناه في فِتْنَةٍ؛ أي: بَلِيَّةٍ بِمَحَبَّتِهِ تلك المرْأَة] ظَنَّ؛ أي: أَيْقَنَ، وإنَّما نُفَسِّرُه باليقين؛ لأنَّ الأَمْرَ أَمْرٌ واقِعٌ من داود حَسَبَ القِصَّة، والشَّيْءُ الواقِع لا يقالُ: إِنَّهُ ظَنٌّ، بل يقال: إِنَّهُ عِلْمٌ.

فإن قال قائل: هلْ لَدَيْكَ شاهِدٌ على أنَّ الظَّنَّ يأتي بِمَعْنى العِلْم؟

قُلْتُ: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦] فإنَّ يظُنُّون هنا بِمَعْنى يَتيَقَّنون؛ لأنَّ الظَّنَّ الذي هو

(١) النونية (ص:٣٥٤).

الرَّاجِحُ لا يكون إيمانًا بملاقاةِ الله عَزَّوَجَلَّ، بل يَجِبُ على الإِنْسَان أن يُؤْمِن إيمانًا يَقينيًّا بأَنَّه مُلاقِ رَبِّهُ، والظَّـنُّ لا يكفي فيه، وإذا كان الظَّـنُّ لا يكفي فلا يُمْكِن أن يكون مَدْحًا.

[﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أَيْقَنَ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ قال: أَوْقَعْناهُ في فِتْنَـة؛ أي: بَلِيَّـة]. هـذا ما ذهب إليه المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ بناءً على صِحَّة القِصَّة، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ المرادَ بالفِتْنَـة الاخْتِبارِ، فَتَنَّـاه؛ أي: اخْتبَـرْناه؛ لأنَّ الفِتْنَـة من معانيها الاخْتِبارُ، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] أي: اخْتِبارًا وابتلاءً، كمـا قال تعالى عن سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠] إِذَنْ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ أي: اخْتبَرْناه، وعلى رأي المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أي: ابْتَلَيْناه بِمَحَبَّةِ تلك المرأةِ، ولكن هذا ليس بِصَحيحٍ. ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ الصَّحيحُ أنَّما اخْتبَرْناه، ولكن بأيِّ شَيْءٍ اخْتبَرْناه؟ لنَنْظُرْ:

أَوَّلًا: دوادُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مأْمُورٌ بأن يَحْكُمَ بين النَّاس، فإنَّما وظيفته عامَّةٌ، واخْتِصاصُهُ في الوَقْـتِ بِدُخُولِهِ المِحرابَ، وإغْلاق البابِ عليه، هذا يُخالِفُ مُقْتَضى وَظيفَتِهِ؛ إذْ مُقْتَضى وَظيفَتِهِ أَنْ يتفرَّغَ للنَّاسِ حتى يُقابِلَ الخُصُـومَ ويَحْكُم بينهم، هـذه واحِدَةٌ؛ ولِهَذا سيأتينا -إن شاء الله- في الفَوائِد أنَّه لا يَجوزُ للحاكِمِ بينَ النَّاسِ، ولِمَنْ كان في وظيفَةٍ عامَّةٍ أن يَشْتَغِلَ بِشَيْءٍ خاصٍّ لِنَفْسِهِ.

ثانيًا: أنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعَ كلام الخَصْمِ الأَوَّلِ ولم يَسْتَمِع إلى كلام الخَصْمِ الآخَرِ؛ لأنَّ القُرْآنَ ليس فيه أنَّه سَمِعَ إلى كلام الخَصْم الآخر.

ثالثًا: أنَّه حكَمَ وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ والحُكْمُ قبل سَماعِ جَوابِ الخَصْمِ الآخَرِ فيه شَيْءٌ من

التَّسَرُّع ما دام الخَصْمُ حاضِرًا.

لِهَذا عَلِمَ داودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الله تعالى ابْتَلاه بهذه الخُصُومَةِ التي جاءت وهو يَتَعَبَّدُ في مِحْرابِهِ وتَسَوَّروا عليه المِحْرابَ، فاسْتَغْفَرَ ربَّه وخَرَّ راكعًا وأناب.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ أي: طَلَبَ المغْفِرَة، والمغْفِرَة لغةً: مأخوذةٌ من المِغْفَر، وهو ما يُسْتَرُ به الرَّأْسُ ليُتَّقَى به السِّهامُ. أَمَّا شَرْعًا: فالمغْفِرَة هي سِتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه؛ أي: إنَّ الله يَسْتُـر على العَبْدِ ذَنْبَه فيما بينه وبين الخَلْقِ، ويَتَجاوَزُ عنه فيما بينه وبين العَبْد، وهنا تتحَقَّقُ الوِقايَةُ مع الإخفاء؛ لأَنَّه إذا سُتِر عن الخَلْق، ثم عُفِيَ عنه من جانِبِ الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ، حَصَلَت الوِقايَة بالعَفْوِ من الخالِقِ، والثَّاني السِّتْر بعَدَمِ إظهارِ الخَلْقِ عليها.

فداودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طلب من رَبِّهِ أن يَغْفِرَ له ما جرى منه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ خرَّ بِمَعْنى نَزَلَ من أعلى إلى أسْفَلَ، ومنه خَريرُ الماءِ من المِيزابِ أو من الشَّلَّالِ. وقوله: ﴿رَاكِعًا﴾ حالٌ من فاعل خرَّ، ولكن المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّر الرُّكوعَ بالسُّجُـود، فقال: [أي: ساجِدًا] وذلك لأنَّ الرُّكُوع الذي هو الانْحِناءُ لا يُمْكِن أن يكون فيه خرورٌ؛ لأنَّ الرُّكوعَ يَبْقَى ثابتًا، ولا يُتَصوَّر الخُرورُ إلا بالسُّجُود، ولكنَّ التَّعْبيرَ بالرُّكوعِ عن السُّجُودِ من بابِ التَّعْبيرِ بالمَعْنى العامِّ عن المَعْنى الخاصِّ؛ لأن أَصْلَ الرُّكوعِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة هو الذُّلُّ، كما قال الشاعر:

لَا تُهِـينَ الْفَقِـيرَ عَلَّـكَ أَنْ ... تَرْكَعَ يَوْمًا وَالـدَّهْرُ قَـدْ رَفَعَـهْ[1]

---

(١) البيت للأضبط بن قُريع السعدي (شاعر جاهلي)، انظر: البيان والتبيين (٣/ ٢٢٣)، والشعر والشعراء (١/ ٣٧١).

يعني: أنْ تَذِلَّ، والدَّهْرُ قد رَفَعَهُ: أي قد رفع هذا الفَقيرَ.

إِذَن: فالذي عيَّـنَ أن يكون الرُّكوعُ هنا بِمَعْنى السُّجُـود هو قوله: ﴿وَخَرَّ﴾ ولَكِنَّه عبَّرَ بالرُّكوعِ عن السُّجُودِ لإظهار أنَّ هذا الرُّكوعَ ركوعُ ذُلٍّ لله عَزَّوَجَلَّ، ثم قال: ﴿وَأَنَابَ ۩﴾ أي: رَجَعَ إلى الله، والإنابَةُ: الرُّجوعُ مع الخَشْيَـةِ؛ فهو رجع إلى الله مع خَشْيَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَالِكَ﴾ أي: سَتَرْنا وتَجاوَزْنا، له أي: لداودَ، واللامُ في ﴿لَهُۥ﴾ يُحْتَمَـل أن تكون للتَّعْدِيَة، أو أن تكون للتَّعْليلِ، لَكِنَّها للتَّعْدِيَة أَوْلَى، وفي كَوْنها للتَّعْليلِ تأمل؛ أي: إنَّا غَفَرْنا لداودَ ذلك الذي وقع منه، وهي الفِتْنَة التي افْتُتِنَ بها، ولم يتَّخِذِ الإجراءَ اللازِمَ في الحُكْم.

قال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مع المغْفِرَة، أضاف الله له هذه المَنْقَبَة ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لداودَ عندنا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: زيادةَ خَيْرٍ في الدُّنْيا]، ويحتمل أنَّ المرادَ بالزُّلْفَى زيادةُ القُرْبِ، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق:٣١] أي: قُرِّبَتْ، فالزُّلْفى تَفْسيـرُها بزيادَةِ الخَيْر فيه شيءٌ من النَّظَر، والصَّوابُ أنَّ المرادَ بالزُّلْفى القُرْبَى، أَمَّا حُسْنُ المآبِ، فهو زيادَةُ الخَيْر، قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مَرْجِع في الآخِرَة].

هذا هو زيادَةُ الخَيْرِ، فصارت النَّتيجَةِ بعد أن وقع من داودَ ما وقع ثم رجع إلى اللهِ واسْتَغْفَرَهُ، أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَفَعَ عنه آثار هذا الذَّنْب، فغَفَرَ له، وزاده على ذلك زيادتَيْنِ عظيمتَينِ مُهِمَّتَينِ إحداهما: القُرْب من الله، والثَّانية: حُسْنُ المآب.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هـذه القِصَةَ عَجِيبةٌ، وأنَّها مَثارٌ لِلْعَجَبِ؛ ولِهَـذا شَوَّق الله إليها بِقَوْلِه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ؛ حيـث يأتي بِمِثْلِ هـذه الصيغة في الأشياء التي يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَتَشَوَّقَ إليها ويَهْتَمَّ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الخَصْمَ يُطْلَـقُ على الواحِـدِ والمتَعَدِّد اعْتِبـارًا بالمَعْنى، فإنَّ الجماعة إذا كانت دعواهم واحِدَةً صاروا كأَنَّهم رَجُلٌ واحِدٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من أتى البُيُوتَ من غَيْرِ أَبْوَابِها فإنَّ فِعْلَه هذا سببٌ للخَوْفِ والفَزَعِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هـذه الحالِ كان قد أَغْلَقَ البابَ، أو جعل عليه حاجِبًا يَمْنَعُ النَّاسَ من الدُّخُول عليه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الحُكْمَ بينَ النَّاسِ أَفْضَلُ من العِباداتِ الخاصَّة؛ لأنَّ نَفْعَه مُتعَدٍّ، والعباداتُ الخاصَّة نفعُها قاصِرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الأَنْبياء يَلْحَقُهم من الطَّبائِعِ البَشَـرِيَّة ما يلحقُ غَيْـرهم؛ لِقَوْلِه: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ حيث لَحِقَه الفَزَعُ كما يلحق سائرَ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يَنْبَغي، إنْ لَمْ نَقُلْ يَجِبُ، أنْ يُطَمْئِنَ الْمُفْزِعُ مِنْ فَزِعَ مِنْه بِنَفْيِ سَبَـبِ الفَزَعِ قبل كُلِّ شيءٍ؛ حيـث قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم ذَكَروا القِصَّة ولم يَبْدَؤُوا بالقِصَّةِ مُباشَرَةً.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيانُ أنَّ هَذَينِ الخَصْمينِ قد اعتدى بعضُهُم على بَعْضٍ، أي إنَّ

المسْأَلَةَ ليست مسألَةً كَلامِيَّة، أو ليس فيها عُدْوانٌ، بل فيها عُدْوانٌ؛ اعْتَدَى بَعْضُهم على بَعْضٍ بما ذكروا من السَّبَب.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هَذينِ الخَصْمَينِ أَساءا الأَدَبَ من بَعْضِ الوُجُوهِ؛ حيث قالا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ووَجْهُ الإساءَةِ أَنَّهم ما جاءا إلى الحَكَم إلا وهما يَعْتَقِدان أَنَّه سيَحْكُم بينهما بالحقِّ، فإذا قالا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فإنَّ هذا قد يولِّدُ تُهْمَةً من أنَّه لن يَحْكُم بالحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الحُكَم يحتاج إلى إلزام؛ لِقَوْلِهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ فإنَّ هذا أَمْرٌ زائِدٌ على الحُكم؛ لأنَّ الحُكم أن يَفْصِل بينهم، والهِدايَةُ أن يَدُلَّهم على ذلك من أجل إلزامِهم به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كُلَّ البَشَر يَطْلُب الصِّراطَ السَّوِيَّ الذي ليس فيه مَيْلٌ ولا إِجْحافٌ؛ لِقَوْلِهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: لَباقَةُ هَذينِ الخَصْمينِ؛ حيث لم تُثِرِ الخُصُومَةُ ضَغِينَتَيْهما؛ ولِهَذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ مع أنَّه قال في الأَوَّلِ: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لكنْ هذا البَغْيُ لم تُفقَد به الأُخُوَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هـذه الخُصُومَةَ غريبةٌ، فإنَّ أَحَدَهُما كان له تِسْعٌ وتسعون نعجةً، والآخَر له نعجَةٌ واحِدَة، ومع هذا طَمِعَ الأَوَّلُ في الثَّاني، وكان الذي يتبادَرُ في الذِّهْن أن يُضيفَ الأَوَّلُ صاحِبُ النِّعاجِ الكثيرةِ إلى الثَّاني ما تَيَسَّر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ بعضَ الخُصُوم قد يكون أقوى في المخاصَمَةِ من الآخَرِ حتَّى يَغْلِبَه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ وثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «إِنَّكُمْ

تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّه يَنْبَغي أن يكون الإِنْسَانُ قويَّ الحُجَّةِ، قوِيَّ البيانِ حتى تحصُلَ له الغلَبَـةُ على صاحِبِه، هذا إذا كان بِحَـقٍّ، أَمَّا إذا كان بغيْـرِ حَقٍّ، فإنَّ الواجِبَ على الإِنْسَان أن يَصْمُت لينْطِقَ غَيْرُه بالحَقِّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حكَم بينهما دون أن يسمع دفاعَ الخَصْمِ الآخَرِ؛ لِقَوْلِه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ولعلَّ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أراد السُّرْعَة في إنْهاءِ القَضِيَّة؛ ليتفَرَّغَ لِمَا احْتَجَبَ له عن النَّاس من عِبادَة الله، وخاف أن يُدْلِيَ هذا بِشَيْء وهذا بِشَيءٍ فيطُولَ النِّزاعُ والخِصامُ، فبادَرَ بالحُكْمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن أكْثَرَ الشُّـركاءِ يَحْصُل من أحدهم بَغْيٌ على الآخَـرِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا من الغَريبِ أن يكون الإِنْسَانُ كُلَّما قَرُب إلى الشَّخْصِ تُوُقِّعَ منه البَغْيُ أكثَرَ مِمَّا لو كان بعيدًا؛ لأنَّ البعيدَ ليس بينه وبينه صِلَةٌ، لكنَّ الذي بينه وبينه صِلَةٌ وهو الشَّريكُ، هو الذي رُبَّما يَجْحَدُه أو يُنْكِرُه، أو يَفْعَلُ شيئًا لم يأذَنْ به أو ما شابه ذلك.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّه ليس جميعُ الخُلَطاءِ يَحْصُل منهم البَغْيُ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: أنَّه كُلَّما كان الإِنْسَانُ أقوى إيمانًا وأكثَرَ عملًا من الصَّالِحاتِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كان أَبْعَدَ عن الظُّلْم والبَغْيِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الذين آمَنوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا يَحْصُل منهم البَغْيُ، والذي يَمْنَعُهُم من ذلك هو إيمانُهُم بالله وبالحساب، وعَمَلُهم الصَّالِح الذي يكون درْعًا بينهم وبين العُدوان والبَغْي، ووَجْهُه أنَّ اسْتِثْناءَ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، إنَّما كان من أجل إيمانِهِم وعَمَلِهِم للصَّالِحاتِ، والحُكْمُ إذا عُلِّقَ بِوَصْفٍ ازداد قُوَّةً بقُوَّةِ ذلك الوَصْفِ. وهذه قاعِدَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ العَمَلَ لا يَنْفَعُ إلا إذا بُنِي على الإيمان وكان صالِحًا، فعَمَلٌ بلا إيمانٍ لا يُقْبَل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤] وكذلك لو كان هناك إيمانٌ، لكنْ لم يكن العَمَلُ صالِحًا لِفَقْدِ الإخْلاصِ أو الاتِّباعِ فيه، فإنَّهُ لا ينْفَعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الجَمْعَ بين هذين الوَصْفَينِ: الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، قليلٌ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الحاكِمَ لا يَحْكُم حتى يستوعِبَ حُجَجَ الخَصْمينِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الحاكِمَ الذي نَصَبَ نفسَه ليكونَ حَكَمًا بين العِبادِ لا يَحِلُّ له أن يَخْتَفِيَ عنهم في الوقت الذي يكون وقتًا للتَّحاكُمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الاشْتِغالَ بما فيه مَصْلَحَةٌ عامَّةٌ أَفْضَلُ من الاشتغال بما فيه مَصْلَحَةٌ خاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الأَنْبِيَاء قد يُفْتَنونَ ويُخْتَبَرون؛ لِقَوْلِه تعالى:

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ولكنَّ الفِتْنَة التي يُفْتَنُ بها الأَنْبِيَاء لا يُمْكِن أن تعود إلى إبْطالِ مُقَوِّماتِ الرِّسالَةِ والنُّبُوَّةِ؛ كالفِتْنَة التي تعود إلى الكَذِبِ أو الشِّرْك أو الأَخْلاق الرَّديئَةِ وما أَشْبَهَها، هذا لا يُمْكِن أن يَقَعَ من الأَنْبِيَاء.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ كُلَّ شَخْصٍ مُحتاجٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُفْتَقِرٌ إليه؛ لِقَوْلِه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الاسْتِغْفار سَبَبٌ لِمَحْو ما حصل من الذُّنوبِ؛ لأنَّ الفاءَ في قَوْلِه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ﴾ مَبْنِيَّة على قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثُونَ: أنَّ السُّجُودَ خُضُوعًا لله مِن سُنَنِ الأَنْبِيَاءِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾.

وهل يُشْرَعُ لمن أذنب أن يَفْعَلَ كما فعل داودُ، أو أن يُصَلِّيَ ركعتَيْنِ تامَّتَينِ؟

الجَوَاب: المشْروعُ إذا أَذْنَبَ الإِنْسَانُ أن يتوَضَّأَ ويُسْبغَ الوضوءَ، ويُصَلِّيَ رَكْعَتَينِ لا يُحدِّث فيهما نَفْسَه، فمن فعل ذلك فإنَّهُ يُغْفَرُ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: إجابَةُ الله سبحانه دعاءَ مَنْ دعاه؛ لِقَوْلِه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ وهذا يستلْزِمُ عِدَّةَ صِفاتٍ؛ منها: العِلْم والسَّمْع والبَصَر، يُؤْخَذُ ذلك من قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ الذي حَصَل من داود قَوْلٌ يُسْمَعُ، وفِعْلٌ يُرى؛ فالقولُ الذي يُسْمَعُ قَوْلُه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ والفِعْلُ الذي يُرَى قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾.

فلما قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ عُلِمَ أنَّ الله قد سَمِعَ ما قال ورأى ما فعل، وتَسْتَلْزِمُ هـذه الصِّفَة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ من الصِّفات -إضافَةً إلى العِلْم والسَّمْع والبَصَر- القُدْرَةَ؛ لأنَّ المغْفِرَة لا تقع إلا من قادِرٍ على الغُفْرانِ، وتَسْتَلْزِم كذلك كَرَمَ الله عَزَّوَجَلَّ

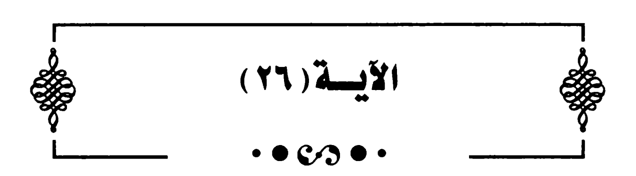
ولُطْفَه بعباده؛ حيث يغفر لِكُلِّ من اسْتَغْفَر مهما عَظُم ذَنْبُه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّ الله تعالى غفر لداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيَّن ما لديه من الثَّوابِ لداودَ في قَوْلِه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ: إِثْباتُ العِنْدِيَّة لله، وهي عِنْدِيَّةُ قُرْبٍ وعِنْدِيَّةُ عِلْمٍ، ففي قَوْلِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩] هـذه عِنْدِيَّـةُ عِلْمٍ، وفي قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء:١٩] هذه عِنْدِيَّةُ قُرْبٍ، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الثَّناءُ على داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِحُسْنِ مآبه؛ أي: مَرْجِعِه إلى الله؛ لِقَوْلِه: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

• • ❁ • •



الآية (٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

يُخاطِبُ الله تعالى داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنِّداءِ؛ والمخاطَبَةُ بالنداء يُراد بها التَّنْبيهُ؛ لأنَّ هناك فَرْقًا بين أن تقول: مُحَمَّدٌ قام، وبين أن تقول: يا عَلِيُّ، مُحَمَّدٌ قام؛ ففي القولِ الثَّاني تَنْبيهٌ، وإذا كان الكَلام يحتاجُ إلى تنبيهٍ فإنَّهُ دليلٌ على أَهَمِّيَّتِه؛ إذ إنَّ الكَلام الذي يُهْتَمُّ به يُقَدَّم بين يديه ما يكون به التَّنْبيهُ، فالله عَزَّوَجَلَّ ينادي داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَنْبيهًا لما سَيُلْقي عليه فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صَيَّرْناك؛ لأن جَعَلَ تارةً يكون للتَّصْييرِ، وتارةً يكون لِلإيجادِ؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] أي: أَوْجَدَهُما، وفي قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣] أي: صَيَّرْناهُ.

والفَرْقُ بينهما أنَّه إن تعدَّى إلى مفعولٍ واحِدٍ، صار بِمَعْنى الإيجادِ، وإن تعدَّى إلى مَفْعولَيْنِ صار بِمَعْنى التَّصييرِ؛ ففي قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾

تعدَّى إلى مَفْعولَيْنِ: الكاف وخَليفَةً، فتكون بِمَعْنى التَّصْيير.

﴿خَلِيفَةً﴾ أي: خالفًا لنا في تَبْليغِ شَرْعِنا، وليس المرادُ أنَّه خالِفٌ لله؛ أنَّه يأتي بعده؛ لأنَّ الله تعالى هو الأوَّل والآخِرُ والظَّاهِر والباطِنُ، لكنْ خليفَة لله في تَبْليغِ شَرْعِهِ وحُكْمِهِ بين النَّاس.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاءُ هذه للتَّفْريعِ؛ أي: فَبِناءً على كَوْنِكَ خليفةً في الأَرْضِ احْكُمْ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تُدبِّرُ أَمْرَ النَّاسِ] كما يُدَبِّرُ الخُلَفاء أمْرَ مَن جعلهم الله راعين له، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْل؛ لأنَّ الحَقَّ إن كان في مُقابَلَةِ الخَبَر فهو بِمَعْنى الصِّدْق، وإن كان في مُقابَلَة الحُكْم فهو بِمَعْنى العَدْل، فإذا قيل: أَخْبَرَني مُحَمَّدٌ بكذا وهو حَقٌّ؛ يعني: صِدْق، وإذا قُلْتَ: حَكَمَ فُلان بكذا وهو حَقٌّ؛ يعني: عدلٌ.

هنا يقول: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْلِ؛ لأنَّ الحق هنا وُصِفَ به الحُكْم فصار بِمَعْنى العَدْل، وهذا يتضَمَّن الحُكْم، وطريق الحُكْم، ولَوازِمَه.

فالحُكْمُ: بأن تَحْكُمَ بالشَّرْع.

وطريق الحَقّ أن تَعْدِلَ بين الخَصْمينِ في كُلِّ شيء؛ حتى إنَّ العُلَماء يقولون: يَجِبُ على القاضي أن يَعْدِلَ بين الخَصْمينِ في لَفْظِه ولَحْظِه وكَلامِهِ، وجُلُوسِهما ودُخُولِهما عليه؛ يَعْدِلُ في كُلِّ شيءٍ.

ففي لَفْظِه لا يُغْلِظ القَوْلَ لأحد الخَصْمينِ ويُلينُ القَوْلَ للآخَرِ؛ وفي لَحْظِهِ لا يَنْظُر إلى أَحَدِ الخَصْمَينِ نَظْرَةَ غَضَبٍ، وإلى الثَّاني نَظْرَة رضًا؛ وفي مَجْلِسِه لا يُجْلِسُ

أَحَدَ الخَصْمين إلى جانِبِه والآخَرُ بَعيدٌ عنه؛ وفي دُخولِهما عليه لا يقول لأَحَدِهما: ادخل، قبل الآخَرِ حتى ولو كان كافرًا؛ فإنَّهُ لا يُقَدِّمُ المسْلِمَ عليه في الدُّخُول.

وإن كان بعضُ العُلَماءِ قد قال: إذا كان أَحَدُهُما كافرًا، فإنَّهُ يُقَدِّمُ المسْلِمَ عليه في الدُّخول، ولكنَّ المقامَ مَقامُ حُكْمٍ، فالواجِبُ فيه العَدْلُ؛ وهذا كُفْرُهُ عليه، وهذا إسْلامُهُ له؛ هذا إذا كان الدُّخول يحتاج إلى تَقْديمٍ وتَأْخيرٍ، أَمَّا إذا كان البابُ مَفْتوحًا فإنَّهُ لا يَلْزَمُه أن يَجْعَلَ عند البابِ رَجُلًا يقول: ادْخُلَا جميعًا. يجعل الأَمْر مَوْكولًا إلى الخصوم. من جاء فَلْيَدْخُل، قَبْلَ الآخَرِ أو بعده، لكن إذا كان هناك ترتيبُ الدُّخُول فلا يُقَدِّم أَحَدَهُما على الآخر؛ هذا طريق الحُكْمِ.

أَمَّا لَوازِمُ الحُكم: فإذا عَلِمَ أنَّ الحَقَّ مع أَحَدِهِما وَجَبَ عليه أن يَحْكُم له به مهما كان، سواءٌ كان عَدُوًّا أم صديقًا.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ النَّاس: أَصْلُها الأُناسُ، لكِنْ حُذِفَت الهَمْزَة تخفيفًا كما حُذِفَت من شَرٍّ وخَيْر، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ [المائدة:٦٠] أي: بما هو أَشَرُّ من ذلك، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي: هوى النَّفْس، وإنَّما نهاه عن اتِّباعِ الهوى تعظيمًا لِهَـذا الأَمْر، ولا يلزَمُ من نَهْيِه عنه أن يكون مُمْكِنًا في حقِّه، كما قال الله تعالى للنَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] ولا يَلْزَمُ من هـذا أن يكون الإشْراكُ في حَقِّه ممكنًا.

وقد يقال: إنَّ الله نهاه عن اتِّباعِ الهوى لقُوَّة الهوى في البَشَر، فإنَّ الهوى في البَشَر أمرٌ مفطورٌ عليه؛ لأنَّه ينْدُرُ أنَّ شخصًا يتقدَّم إليه أبوه مع شَخْصٍ آخَرَ عدوٍّ له، يَنْدُر ألا يكون له هوًى، أو يتقدَّم إليه شخص من أصدقائه الحَميمينَ مع آخَرَ من أعدائِهِ

الأَلِدَّاء ثم لا يميل مع الأوَّل، يَنْدُرُ هذا؛ فلقُوَّةِ الدَّاعي وهو الهوى نهى الله عنه، وإن كان لا يُمْكِن في حَقِّه.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيُضِلَّكَ: الفِعْلُ هنا مضارعٌ ولَكِنَّه مَنْصوبٌ لأنَّه وقع بعد النَّهْيِ، والمضارعُ إذا اقْتَرَنَتْ به الفاء -وهذه الفاءُ تُدْعى فاءَ السَّبَبِيَّة- بعد النَّهْيِ صار مَنْصوبًا بأنْ مُضْمَرةً وُجُوبًا.

وقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يَجْعَلَك تَضِلُّ وتَحيدُ يمينًا وشِمالًا، وقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عن الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على تَوْحيدِهِ] وهذا التَّفْسيرُ ضعيفٌ جدًّا، بل المُرادُ بسبيلِ اللهِ طريقُهُ المُوَصِّلُ إليه؛ لأنَّ السَّبيلَ في الأَصْلِ هو الطَّريقُ، وأُضيفَ إلى الله؛ لأنَّ الله هو الذي وَضَعَه، وهو الذي شَرَعَه، ولأنَّ هذا السَّبيلَ يؤدِّي إلى الله، فأُضيفَ إلى الله باعْتِبارِ وَضْعِه، وباعْتِبار نِهايَتِه.

وإذا قلنا: إنَّ المرادَ بِسَبيلِ الله؛ أي: طريقُه وشَرْعُه، صار أعمَّ مِمَّا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وألْصَقَ باللَّفْظِ؛ لأنَّ السَّبيلَ في اللُّغَة: الطَّريقُ، وليست الدَّلائِل الدَّالَّة على التَّوْحيد، لَكِنِ الدَّلائِلُ الدَّالَّةُ على التَّوْحيدِ لا شَكَّ أنَّ النَّظَر فيها من شَريعَةِ الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ لم يَقُلِ الله: إنَّكَ إن تَتَّبعِ الهَوَى أو إن تَضِلَّ عن سبيل الله فَلَكَ عَذَابٌ شديدٌ، بل أتى بالجُمْلَةِ الاسْتِئْنافِيَّة الاسْتِقْلالِيَّة؛ أولًا: تَفادِيًا لمخاطَبَةِ داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذلك، وثانيًا: ليكون أَعَمَّ.

إذَنْ: فيه فائدتان؛ ولِهَذا قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:١-٣] فعبَّر بالفعل الماضي الدَّالِّ على الغائِبِ، ولم يَقُلْ: عَبَسْتَ وتَوَلَّيْتَ أن جاءكَ الأعمى وما يُدريكَ لعلَّه يَزَّكَّى، بل قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تفاديًا

لمخاطَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِمِثْل هذا الوَصْفِ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الإيمانِ باللهِ] وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ، والصَّحيحُ أنَّ سبيل الله هنا هو سَبيلُ اللهِ الأوَّلُ، والمرادُ به شَريعَتُه؛ لأنَّها هي الطَّريقُ الموَصِّلُ إليه.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ الجُمْلَةُ خَبَرُ إنَّ، واسْمُها ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ خبرها، فالجُمْلَة هنا خبرٌ لـ(إنَّ)، وكُلُّ جُمْلَة تَقَعُ خبرًا فلا بدَّ فيها من رابِطٍ يربِطُ بين هذه الجُمْلَةِ وبين المبتَدَأ، والرابِطُ هنا الضَّمِير في قَوْلِه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾.

وقوله: ﴿شَدِيدٌۢ﴾ أي: قَوِيٌّ وعظيمٌ، ويدُلُّك على قُوَّتِه وعَظَمَته ما وصفَهُ الله به في القُرْآنِ العظيمِ من صِفاتٍ تَنْزَعِجُ لها القلوبُ، وتَتَفَطَّرُ لها الأكْبادُ.

﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بِسَبَبِ نِسيانهم يَوْمَ الحساب، فالباء هنا للسَّبَبِيَّة، وما: مَصْدَرِيَّة؛ ولهذا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنِسْيانِهِم ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ المرَتَّبُ عليه تَرْكُهُم الإيمانَ، ولو أيقنوا بيَوْمِ الحِسابِ لآمنوا في الدُّنْيا].

وقوله: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ المرادُ بيَوْمِ الحسابِ يَوْمُ القيامة، وأُضيفَ إلى الحساب؛ لأنَّ النَّاسَ يُحاسَبون فيه على أعمالِهِم، وأوَّلُ ما يُحاسَبُ عليه الإِنْسَانُ فيما يتعلَّقُ بحقِّ الله هو الصَّلاةُ، وأوَّلُ ما يُحاسَبُ عليه فيما يتعلَّقُ بِحَقِّ العالَمِينَ هو الدِّماء، كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بالدِّماءِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، رقم (١٦٧٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثْباتُ كلامِ اللهِ، وأَنَّه بحَرْفٍ وصَوْتٍ، وذلك من قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ﴾ فإنَّ هذه الجُمْلَة مركَّبَة من حروفٍ، ولا بدَّ أن تكون بِصَوْتٍ؛ لأَنَّه يُخاطِبُ بها داودُ، ولا بدَّ أن يكون المخاطَبُ سامِعًا ولا سَماعَ إلا بِصَوْتٍ، فيؤخَذُ منه الرَّدُّ على الأشاعِرَة وغَيْرِهم ممن قالوا: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتكَلَّمُ، وأنَّ كلامه هو المَعْنى القائِمُ بذاتِهِ، الملازِمُ له أزلًا وأَبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأَمْرَ أَمْرُ الله، هو الذي يَنْصِبُ من شاء ويَعْزِلُ من شاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا مانِعَ من أن يقولَ القائِلُ للسُّلْطانِ صاحِبِ السُّلْطَة العليا في الأَرْضِ؛ أن يقول له: إنَّهُ خليفَةُ الله، ولا يعني ذلك أنَّ الله مُحتاجٌ إلى أن يَسْتَخْلِفَ أحدًا ليقومَ عنه بتدبيرِ الخَلْقِ، ولَكِنَّه خلَّفَه؛ أي: جعله حاكِمًا بين النَّاس بما شَرَعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوبُ الحُكْمِ بين النَّاس بالحَقِّ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

ويتفرَّعُ عن هذه الفائِدَة: أنَّ مَنْصِبَ القضاء فَرْضُ كِفايَةٍ، كما قال ذلك أَهْلُ العِلْم، وإذا لم يُوجَد إلا الشَّخْصُ المُعَيَّنُ المُؤَهَّل فإنَّهُ يكون في حَقِّه فَرْضَ عيْنٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا يَنْبَغي للشَّخص إذا وُكِلَ إليه تَوَلِّي القضاءِ أن يَفِرَّ منه ما دام يَعْرِفُ من نفسه الكفاءَةَ؛ وذلك لأَنَّه إذا فرَّ منه، وفرَّ الثَّاني والثَّالِثُ والرَّابِعُ تعَطَّل هذا المَنْصِبُ العظيمُ الذي هو منْصِبُ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، ولكن إذا أتى الإِنْسَانُ هذا الشَّيْءَ بدونِ سُؤالٍ فَلْيَسْتَعِنْ بالله والله يعُينُه عليه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّه يَجِبُ أن يحكُمَ بين النَّاسِ بالحَقِّ، سواء كان ذلك في طريقِ الحُكْم، أو في نَفْسِ الحُكْم، أَمَّا طريقُ الحُكْم فهو معامَلَة الخَصْمَيـنِ بحيث تكون المعامَلَة بينهما على وَجْه العَدْل، وأَمَّا في الحُكْم فأن يَحْكُم بما تَقْتَضيه الشَّريعَةُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه لا يجوزُ للقاضي الحاكِمِ بين النَّاسِ أن يُحابِيَ أحدًا لقَرابَةٍ، أو صَداقَةٍ، أو غِنًى، أو فَقْر، أو جاهٍ، أو غيْرِ ذلك؛ لِقَوْلِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ ويُؤَيِّدُ هذا قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّه في المقامِ المُهِمِّ يَنْبَغي أن يُذْكَر الإثباتُ المطلوبُ ويُذْكَرَ ضِدُّه، كأن يُقالَ: احْكُم بالحَقِّ حُكْمًا لا يدخُلُه الهوى؛ لأنَّ من الكَمالِ إثباتَ الكَمالِ ونَفْيَ ضِدِّه، فمثلًا احْكُمْ بين النَّاسِ بالحَقِّ: هذا إثباتُ كَمالٍ، ولا تَتَّبعِ الهَوى: نَفْيُ ضِدِّه، وإنَّما يُؤْتَى بنفْيِ الضِّدِّ من أجل أن يُتبَيَّنَ أنَّ المطلوبَ يَنْبَغي أن يكون مُجَرَّدًا عن كُلِّ ما ينافيه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ اتِّباع الهوى سببٌ لِلْإِضْلالِ عن سبيل الله؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ولكن هل الإضلال في نَفْسِ المُخالَفَة؟ أم أنَّ المُخالَفَة نَفْسَها ضلالٌ، وتكون سببًا لإضلالٍ آخَرَ؟

الجَوَابُ هو الثَّاني، فإنَّ الهوى يَجْلِب للإِنْسَانِ الضَّلال كما أنَّه هو نفسه ضلالٌ، فإذا اتَّبَعْتَ الهوى في قَضِيَّةٍ ما، فانْتَظِرِ اتِّباعَ الهوى في القَضِيَّة التي تليها؛ لأنَّ المَعْصِيَة قبل أن يقع فيها الإِنْسَانُ يَجِدُ نفسه تَسْتَوْحِشُ منها وتَنْفِر، فإذا فعلها مرَّةً هانـت عليه، وانكَسَرَ الحجابُ، فإذا هانَتْ عليه أوَّلَ مَرَّة هانت عليه الثَّانِيَة والثَّالِثَة، حتى

تُصْبِحَ وكأنَّها لا شَيْء؛ ولِهَذا يَضْرِبُ العامَّةُ مثلًا له فائِدَةٌ؛ يقولون: بِكَثْرَةِ الإِمْساسِ يَقِلُّ الإِحْساسُ؛ يعني: إذا أَكْثَرَ الإِنْسَانُ مُماسَّةَ الشَّيْءِ قَلَّ إِحْساسُه به.

والحاصِلُ: أنَّ اتِّباعَ الهَوى ضلالٌ بِنَفْسِه، وسَبَبٌ للضَّلالِ، ووَجْهُ ذلك أنَّ المَعْصِيَة تَنْفِرُ منها النَّفْس، فإذا فَعَلَتْها مرَّةً هانَتْ عليها، ثم الثَّانِيَةُ تكون أهْوَنَ، ثم الثالِثَة أَهْوَن، والرابِعَة أَهْوَن، حتى تُصْبِحَ المَعْصِيَة وكأنَّها ليست بِمَعْصِيَة؛ ولِهَذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فتَجِدُ القاضي مثلًا لا يُمْكِنُ أن يَحْكُمَ بالحَيْفِ والجَوْر، وتجده نافرًا من ذلك، فإذا حَكَم مرَّة هان عليه، ثم الثَّانِيَة هان عليه، ثم الثَّالِثَة والرَّابِعَة وهكذا؛ لذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ويُمْكِن أن يُقالَ: إنَّ هذا لا يَخْتَصُّ بالحُكْمِ بين النَّاسِ؛ أي: إنَّ اتِّباعَ الهوى سبَبٌ لِلإِضْلالِ عن سبيلِ الله في كُلِّ شيءٍ، حتى في غَيْر الحُكْم، حتى في المعاصي الخاصَّة التي في نَفْسِك إذا اتَّبَعْتَ هواك فيها فاعلم أنَّ هذا سَبَبٌ في الإِضْلال عن سبيلِ الله، فعليك أن تَتَوقَّى المعاصِيَ؛ فإنَّها شَرٌّ كُلَّهَا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ دينَ الله تعالى واحِدٌ لا يتشعَّبُ؛ لِقَوْلِه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأَفْرَدَها، ويدل لِهَذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] فسَبيلُ الله واحِدَةٌ، وما خالفها فهو المتَشَتِّتُ. فهذا سَبَبُه الهوى، وهذا سَببُه خَشْيَة النَّاس، وهذا سَببُه كذا، وهذا سَببُه كذا، فتَفَرَّقُ السُّبُلُ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الثَّناءُ العَظيمُ على شَريعَةِ الله، وذلك بإضافَتِها إلى الله؛ لأنَّ كُلَّ ما أُضيفَ إلى الله فإنَّهُ إذا كانَتِ الإضافَةُ خاصَّةً فإنَّ الإضافَةَ تَدُلُّ على شَرَفِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الضَّالِّينَ عن سبيلِ الله مُتَوَعَّدونَ بهذا الوَعيدِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ أي: قَوِيٌّ.

ويتفرَّعُ من هذه الفائِدَة: الحَذَرُ من الضَّلالِ عن سبيلِ الله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مِن أَسْبابِ الضَّلالِ عن سبيلِ الله نِسيانَ يَوْمِ الحِسابِ، والغَفْلَةَ عنه، والانْغِماسَ في الدُّنْيا حتى تُنْسِيَ الإِنْسَانَ ما خُلِق له، وما هو مُقْبِلٌ عليه؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: غَفَلُوا عنه. وليس المرادُ بالنِّسْيانِ الذُّهُولَ الذي يُعْفَى عنه، بل المرادُ بالنِّسْيانِ التَّرْكُ الذي هو الغَفْلَةُ وعَدَمُ المبالاةِ به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الحَذَرُ من الانْغِماسِ في الدُّنْيا الذي يُوجِبُ نسيانَ يَوْمِ الحِسابِ؛ ومن ثَمَّ حَرَّمَ الشَّرْعُ كُلَّ لَهْوٍ يَلْهو به الإِنْسَان -إلا ما اسْتَثْنَى- يعني باطلًا ليس فيه خَيْرٌ، ثم قد يكون مُحَرَّمًا، وقد يكون ضَياعًا للْوَقْتِ بدون تَحْريمٍ، لكنْ كُلُّ لَهْوٍ يَصُدُّ عن سبيل الله يُنْسِي يَوْمَ الحساب؛ ولذلك تَجِدُ أَقَلَّ النَّاسِ إيمانًا بيَوْمِ الحساب أَكْثَرَهُم مُمارَسَةً للمَلاهِي. ولا يُمْكِنُ أن يقع في قَلْبِهِ تَذَكُّر ليَوْمِ الحِسابِ إلا نادِرًا. إنْ وُفِّقَ لسَماعِ مَوْعِظَةٍ أو ما أَشْبَهَ ذلك، وإلا فهو غافِلٌ لاهٍ.

ويتفرَّعُ على هذا: أن يَعْرِف الإِنْسَانُ عداوَةَ أَعْداءِ اللهِ الذين أَغْرَقونا بالملاهي وأَنْواعِها حتى صَرَفوا الشَّبابَ عمَّا يَنْبَغي أن يؤَهِّلَ نفسه له، فأغرقوه بالملاهي بأَنْواعِها حتى صار الإِنْسَانُ كأَنَّما خُلِقَ لِهَذا اللَّهْو، وصار رأسُ مالِهِ وعقب مالِهِ كله هو هذا اللَّهْو، لا يتكلَّمُ إلا به، ومن فاز به ومن لم يَفُزْ، فضاع الشَّبابُ بِسَبَب هذا اللَّهْو الذي انْغَمَسوا فيه، ونَسُوا يَوْمَ الحساب إلا مَنْ شاء الله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ الأَسْبابِ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لأنَّ الباءَ هذه للسَّبَبِيَّة.

ويَتفَرَّع عن هذه الفائِدَة: إثباتُ حِكْمَـةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنَّه تعالى لا يَفْعَـلُ شيئًا إلا لِسَبَـبٍ يَقْتَضيه، حتى إنَّ بعض أَهْلِ العِلْمِ قال: إنَّ كـونَ الله عَزَّوَجَلَّ خَلقَ السَّمَـواتِ والأَرْضَ في ستَّةِ أَيَّام دون أن يَخْلُقَها بلحْظَةٍ من أَجْلِ تَرَتُّبِ هذا الخَلْقِ بَعْضِه على بَعْضٍ، حتى تكون الأسبابُ فاعِلَةً فِعْلَها فَتُنْتِج الشَّيْءَ شيئًا فشيئًا حتى يَتِمَّ، وهذا ليس بِبَعيدٍ ما دمنا نؤمِنُ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حَكيمٌ، وأنَّ كُلَّ شَيء يكون بِسَبَبٍ، فلا يُسْتَبْعَدُ أن يكون بقاءُ خَلْقِ السَّموات والأَرْض ممتدًّا إلى ستَّة أيام هو من أجل هـذا؛ من أجل أن يَتَرَتَّـبَ الخَلْقُ بَعْضُه على بَعْضٍ، ويَنْبَنِيَ بَعْضُه على بَعْضٍ، حتى يكون مطابقًا للحِكْمَة، وإلا فنَحن نعلمُ عِلْمَ اليقين أنَّه لو شاء الله تعالى لقال: كُنْ فَيَكونُ بلَحْظَةٍ، لكنَّ الله تعالى حكيمٌ.

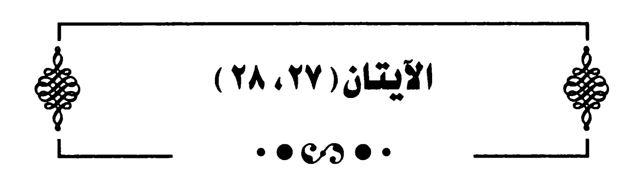
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ الحسـابِ في الآخـرة؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ الحسابُ يَخْتَلِفُ؛ حسابُ المُؤْمِنِ أن يخلوَ الله به مِن غَيْرِ أن يَطَّلِعَ عليه أحَدٌ فيُقَرِّره بِذُنُوبه، فيقول: فَعَلْتَ كذا، وفَعَلْتَ كذا، حتى إذا رأى أنَّه هَلَكَ، قال الله له: «**إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[1]، هذا حِسابُ المُؤْمِن، وهذا حسابٌ يسيـرٌ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨] وما أَيْسَرَ أن يخْلُوَ بكَ الله عَزَّوَجَلَّ وَحْدَك، وليس عندكما أحَدٌ، ويكَلِّمك وليس بينكمـا تَرْجُمانٌ، ويقول: إني قد سَتَرْتُها لك في الدُّنْيا وأنا أَغْفِرُها لك اليَوْم، الحَمْدُ لله على هذه النِّعْمَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

أَمَّا الكافِرُ فليس كذلك؛ الكافِرُ يُنـادَى عليه على رُؤُوسِ الخَـلائِقِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨] يُخْزَوْنَ ويُفْضَحُونَ ﴿كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهم يُخْزَوْنَ بِأَعْمالِهِم ويُفْضَحُونَ بها.

• ● ۞ ● •



الآيتان (٢٧، ٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧-٢٨].

•••

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَبثًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خَلْقُ ما ذُكِرَ لا لِشَيْءٍ ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فَوَيْلٌ﴾ وادٍ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ خَلَقْنا أي: أَوْجَدْنا، فالخَلْقُ بِمَعْنى الإيجادِ، لَكِنَّه إيجادٌ عن تَقْديرٍ؛ لأنَّ الإيجادَ قد لا يكون عن تَقْديرٍ ولا عن تَرْتيبٍ، ولكِنَّ الخَلْقَ لا بدَّ أن يكون عن تَرْتيبٍ وتَقْديرٍ، يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ السَّماءُ المرادُ بها الجِنْسُ، ويَشْمَلُ جميع السَّمواتِ، وكذلك الأَرْضُ، وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مَعْطوفٌ على السَّماء؛ أي: ما خلقنا ما بينهما باطلًا، والذي بين السَّماءِ والأَرْضِ من المَخْلوقاتِ مَخْلوقاتٌ عَظيمَةٌ، بَعْضُها مَعْلوم لنا، وبَعْضُها مَجْهولٌ لنا لم نَعْلَمْه حتى الآن، لكن يَغْلُب على الظَّنِّ أنَّها مَخْلوقاتٌ عَظيمَةٌ؛ لأنَّ الله تعالى جَعَلَها قَسيمَةً لِخَلْقِ السَّماء والأَرْض، وقَسيمُ الشَّيْءِ لا بدَّ أن يكون مُقارِبًا له، أو مُساوِيًا له.

وقوله: ﴿بَاطِلًا﴾ هذا مَحَطُّ النَّفْيِ؛ ولِهَذا نقول: لا يجوز الوقف على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأَنَّكَ لو وَقَفْتَ لأدى ذلك إلى أن يكون المَعْنى معنًى باطلًا، بل لا بدَّ أن تَصِلَ فتقول: ﴿...وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾؛ لأنَّ ذلك هو مَحَطُّ النَّفْيِ، يعني ما خَلَقْناهُم باطلًا؛ أي: لأَجْلِ الباطِلِ، وهذا كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] فالباطِلُ هنا بِمَعْنى اللَّهْو الذي لا فائِدَةَ فيه، فالله لم يَخْلُقِ السَّماءَ والأَرْضَ باطلًا، ولو كان خَلَقَها باطلًا لكان ذلك في غايَةِ السَّفَهِ؛ أن تُخْلَقَ هذه المَخْلوقاتُ العَظيمَةُ بما فيها لا لِشَيْءٍ بل لِلَّعِبِ واللَّهْو.

﴿بَاطِلًا﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَبَثًا] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اعْتِقادُ أَنَّ خَلْقَ السَّماءِ والأَرْضِ باطلٌ ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: هذا ظَنُّ الكافرين الذين يَظُنُّونَ أَنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأَرْضِ لِمُجَرَّدِ اللَّعِب واللَّهْو، ولا يترَتَّب على ذلك شيءٌ، ومن هذا قولُهُم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

ومن ذلك ما يَظُنُّه بعضُ النَّاس؛ أنَّ المَقْصودَ مِنَ خَلْقِ السَّماءِ والأَرْضِ وُجودُ هذه الخَليقَةِ ثم فَناؤُها إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ، فنقول: مَنْ ظَنَّ ذلك؛ أي أنَّ الله خَلَقَها عَبَثًا ولَعِبًا فهو كافر؛ ولِهَذا قال: ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الذي يَظُنُّونَ أَنَّ خَلْقَ السَّماءِ والأَرْضِ كان باطلًا، وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّة] فيه نَظَرٌ؛ لأَنَّه قَصْرٌ للدَّليلِ على بَعْضِ أَفرادِهِ، والصَّوَابُ أَنَّه عامٌّ لأَهْلِ مَكَّةَ وغَيْرِهِم، فالذين كفروا لا يَظُنُّون بالله إلَّا ظَنَّ السَّوْء، فيَظُنُّون أَنَّ أفعالَهُ عَبَثٌ وباطِلٌ وليست لِحِكْمَةٍ.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَوَيْلٌ﴾ وادٍ] في جَهَنَّمَ، ولكنَّ هذا ليس صحيحًا بالنِّسْبَة للآيَة هذه، بل كَلِمَةُ (وَيْلٌ) كَلِمَةُ وَعيدٍ

بأمْرٍ شديدٍ؛ لأنَّه قيل: وَيْلٌ له مِنَ النَّارِ، فهو يَتوَعَّدُ بها، كما تقول: وَيْلٌ لك من فُلان، وليس معنى ويلٌ لك من فلانٍ؛ يعني: وادٍ في فلان، بل هي كَلِمَةُ وعيدٍ على أَمْرٍ شديدٍ، فقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: وَعيدٌ شديدٌ للَّذين كفروا من النَّارِ، يعني: ما أَعْظَمَ وَيْلَهُم من نار جهنَّم -والعياذ بالله-.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ خَبَرُ وَيْل، وقوله: ﴿مِنَ النَّارِ﴾ بيانٌ لوَيْل؛ أي: إنَّ هذا الشَّيْءَ العَظيمَ يكون للذين كفروا من النَّارِ.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾: ﴿أَمْ﴾ هنا مُنْقَطِعَة؛ لأنَّه لم يُذْكَرْ لها مُعادِلٌ، فهي بِمَعْنى (بل) والهَمْزَة، يعني بل أَنجْعل الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحات، وهذا الاسْتِفْهامُ المقصود به النَّفْيُ والاسْتِنْكار، يعني لا يُمْكِنُ أبدًا أن نَجْعَل الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحات كالمُفْسِدينَ في الأَرْض، والمرادُ بالاسْتِفْهامِ النَّفْيُ والإنْكَارُ، والإِضْرابُ هنا انتِقاليٌّ ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ أي: نُصَيِّر، فهي تَنْصِبُ مفعولين: الأَوَّل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، والثَّاني: ﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يُمْكِنُ أن نجعل الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحات كالمُفْسِدين في الأَرْض.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صَدَقوا بما يَجِبُ التَّصْديقُ به على وَجْهِ القَبولِ والإِذْعانِ؛ أي: تَصْديقًا مُسْتَلْزِمًا للْقَبولِ والإِذْعانِ، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: عَمِلوا الأَعْمالَ الصَّالِحاتِ.

والأعمالُ الصَّالِحاتُ هي التي اجْتَمَعَ فيها شَيْئان:

الأَوَّل: الإِخْلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المتابَعَةُ لشَريعَةِ الله.

فمن عَمِلَ عملًا مُوافِقًا للشّريعَةِ في ظاهِرِه لَكِنَّه يُرائِي فيه، فعَمَلُه ليس بصالِحٍ؛ لاخْتِلالِ الإخْلاصِ لله، والذي عَمِلَ عملًا مُخْلِصًا فيه لله يُريدُ به وَجْه الله، لَكِنَّه على غَيْرِ الشَّريعَة، ليس بصالِحٍ؛ لأَنَّه غير مُوافِقٍ لشَريعَةِ الله، فلا بدَّ من أن يكونَ العَمَل خالصًا لله، ومُوَافِقًا لشَريعَةِ الله.

وقوله: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، المُفسِدُ مقابِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحات، فيكون المُرادُ بالمُفْسِدين في الأَرْض: الكُفَّارُ الذين يَعْمَلون السَّيِّئاتِ.

فكلُّ كافرٍ فهو مُفْسِدٌ في الأَرْض، في مُقابِلِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وكلُّ عاصٍ فهو مُفْسِدٌ في الأَرْض، في مُقابِلِ: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالشَّيْءُ يُعرَف بمُقابِلِه.

ولِهَذا فسَّر أَهْلُ العِلْمِ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] فسَّروا ذلك بالمعاصي، قالوا: لا تُفْسِدوا في الأَرْض بالمعاصي، وهذا التَّفْسيرُ صَحيحٌ، يَشْهَدُ له قولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

فإن قيل: هل هَدْمُ البُيوتِ فَسادٌ في الأَرْض؟

فالجَوَابُ: أنَّها لا تَنفي ولا تُثْبِت؛ إنْ هَدَمَها الإِنْسَانُ ظُلْمًا وعُدْوانًا، فهو فسادٌ في الأَرْض؛ لأَنَّه مَعْصِيَة لا يجوز للإِنْسَانِ أن يَعْتَدِيَ على بَيْتِ أخيه فيَهْدِمَه، وإن هدمَها لإصلاحِها، فهذا ليس فسادًا في الأَرْض.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾: ﴿أَمْ﴾ هنا أيضًا بِمَعْنى بل وهَمْزَة الاسْتِفْهامِ الذي يُرادُ بها الإنْكارُ والنَّفْيُ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ لَمَّا قال كُفَّار

مَكَّةَ للمُؤْمِنينَ: إنَّا نُعْطَى في الآخِـرَة مثلَ ما تُعْطَوْنَ] هذا قد يكون صحيحًا، وقد لا يكون صحيحًا، لكن إن كان صحيحًا فهو كقَوْلِ اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] فكُلُّ أحَدٍ يدَّعي أنَّه على حقٍّ، وكلُّ أَحَدٍ يدَّعِي أنَّ الثوابَ له وأن الآخِرَة له، ولكِنَّ الشأنَ كُلَّ الشَّأْنِ بمن شَهِدَ الله له بذلك.

يقول: [﴿أَمْ﴾ بِمَعْنى هَمْـزَةِ الإنْكَارِ] أم، يعني قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ لكنْ يُقدَّرُ قَبْلَها بل؛ لأنَّ أم هذه تُفيدُ الإِضْراب.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: نُصَيِّرُ المتَّقين كالفجَّار؛ أي: لا يُمْكِنُ أن نجعل المتَّقِيَ كالفاجِرِ.

والمُتَّقي من اتَّخَذَ وِقايةً من عَذَاب الله بِفِعْل أوامِرِه، واجْتِنابِ نَواهِيـه، وهذا أجْمَعُ ما قيل في تعريفِ المُتَّقي، والفُجَّار خلاف المُتَّقينَ، يعني الذين فَجَروا وخَرَجوا عن طاعَةِ الله إلى مَعْصِيَته.

وهنا قابلَ المُتَّقيَ بالفاجِرِ، وفي سورة المُطَفِّفينَ قابَلَ الفاجِرَ بالبَرِّ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، ثم قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨].

ومنه نأخُذُ أنَّ التَّقْوى والبِرَّ إذا اجْتَمَعا افْتَرَقا، وإذا افْتَرَقا اجتمعا؛ يعني أنَّ البِرَّ كَلِمَةٌ إن ذُكِـرَت وحدها، فهي شامِلَةٌ للتَّقْوى، والتَّقْوى إن ذُكِـرَت وحدها، فهِيَ شامِلَةٌ للبِرِّ، وإنْ جُمِعَتا جَميعًا، البِرُّ والتَّقْوى، صار البِرُّ فِعْلَ الطَّاعَة، والتقوى اجْتِناب المَعْصِيَة، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] يعني على فِعْل الطَّاعاتِ، وتَرْكِ المعاصي.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِثْباتُ خَلْقِ السَّماء والأَرْض، وأَنَّها حادِثَة بعد العَدَمِ، وليس فِي الكَوْن شيءٌ يكون أزليًّا أبديًّا أبدًا.

فالسَّمَواتُ ليست أَزَلِيَّة، بل هي مُبْتَدَعَة، وسوف تَفْنَى، وكذلك كُلُّ شَيْء سوف يَفْنَى إلا ما اسْتَثْنَى الله عَزَّوَجَلَّ وخَلَقَه للبقاء؛ مثل الأَرْواحِ، فإنَّها خُلِقَتْ للبقاءِ، ومثل ذلك ما فِي الجَنَّة من النَّعيمِ والوِلْدانِ والحُورِ، وما أَشْبَهَها، فما دَلَّ الكِتابُ والسُّنَّة على بقائِهِ وأَبَدِيَّتِه، فهو باقٍ أَبَدِيٌّ، ولكنْ كُلُّ شيء لا يُمْكِنُ أن يكون أزليًّا؛ أي: ليس له أَوَّلُ إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الذي خلقها هو الله؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور:٣٦] يتحدَّاهم: هل هم الذين خَلَقوا السَّمَواتِ والأَرْض.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى خَلَقَها لِحِكْمَةٍ عظيمَةٍ، ليس فيها سَفَهٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿بَٰطِلًا﴾ فإنَّ نَفْيَ خَلْقِها باطلًا يسْتَلْزِم أنَّها خُلِقَت لِحِكْمَة عَظيمَة بالِغَة، وهو كذلك، وهذا فَرْدٌ من أفراد مَخْلوقاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله تعالى لم يَخْلُقْ شيئًا عبَثًا، ولم يَشْرَعْ شيئًا عَبَثًا، بل كُلُّ ما خلقه وشَرَعَه الله ودَبَّره، فهو لِحِكْمَةٍ عَظيمَة، أحيانًا نَعْرِفها، وأحيانًا لا نَعْرِفها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ الحِكْمَة في أفعالِ الله؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ إذ لو انْتَفَتِ الحِكْمَة لأمْكَنَ أن تُخْلَقَ السَّماءُ والأَرْض باطلًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنْ لا أَحَدَ يَظُنُّ أنَّ ذلك باطِلٌ إلا الكافِرُ؛ لِقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَنْ ظَنَّ ذلك، فهو كافِرٌ.

والفَرْق بين الفائِدَتَين:

أنَّ الفائِدَةَ الأولى: يكون الكُفْر سابِقًا، على هذا الظَّنِّ، فيكونُ الكُفْرُ سَبَبًا لِهَذا الظَّنِّ.

أَمَّا الفائِدَة الثَّانية: أنَّ هذا الظَّنَّ سابقٌ على الكُفْر، فيكون هذا الظَّنُّ سببًا للكُفْر.

إِذَن: لا يَظُنُّ أَحَدٌ أنَّ الله خلق السَّماءَ والأَرْض باطلًا إلا الكُفَّارُ، وإذا ظنَّ أَحَدٌ أنَّ الله خَلَقَ ذلك باطِلًا، صار كافرًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْباتُ الوعيد للكُفَّارِ في قَوْلِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وأنَّهم سيدْخُلون النَّار، وهم أيضًا مُخَلَّدون فيها أبدًا، كما ذكر الله تعالى ذلك في ثلاثِ آياتٍ من كتاب اللهِ:

في سورة النساء، في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وبعد هذه الآيات الثَّلاث، لا يَنْبَغي أن يَلْحَقَنا شكٌّ في أَبَدِيَّةِ النَّار، وإن قال ذلك من قاله من النَّاسِ؛ لأنَّ هذا كلامُ الله، وهو خبرٌ، والخَبَرُ في كتابِ الله لا يُمْكِن

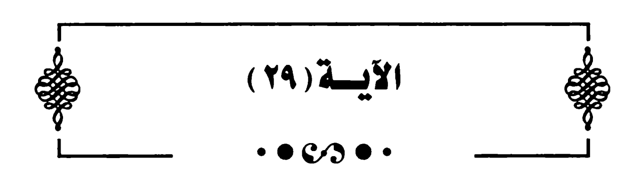
أن يَكْذِب، ولا يُمْكِن أن يَلْحَقَه النَّسْخُ، فلا عِبْرَة بقول من قال: إنَّ النَّارَ لا تُؤَبَّد، بل قولُه مَرْفوضٌ باطِلٌ، مردود عليه بدَلالَة القُرْآنِ الصَّريحَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ من جُمْلَـة الحِكْمَـةِ -التي هي من صفـاتِ الله عَزَّوَجَلَّ- أَنَّه لا يُمْكِـنُ أن يُجْعَلَ المُؤْمِنُ العامِلُ للصَّالِحاتِ كالمُفْسِدِ في الأَرْض؛ لأنَّ ذلك ينافي الحِكْمَةَ مُنافاةً بالِغَةً؛ لا يُمْكِن أن يَسْتَوِيَ المُؤْمِنونَ والكافِرونَ، كما لا يستوي الأَعْمى والبَصيرُ، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الإيمـانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ سَبَبٌ لصلاحِ الأَرْضِ، وهذا يؤَيِّدُه آياتٌ كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ المعاصيَ سَبَبٌ للفساد في الأَرْضِ؛ لأَنَّه قابَلَ هذا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِح، ويَشْهَدُ لِهذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، فكُلُّ فسادٍ يَحْدُث في الأَرْض من جَدْبٍ وفَقْرٍ ومَرَضٍ وفسادِ ثمارٍ، وغير ذلك، فإنَّهُ بِسَبَب المعاصي؛ بما كَسَبَت أيدي النَّاس.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله لا يُمْكِـنُ أن يَجْعَلَ المتَّقيـنَ كالفُجَّار في مآلِهـم؛ فالمُتَّقي في جنَّاتِ النَّعيمِ، والفاجِرُ في عَذَاب الجحيمِ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.



الآيــة (٢٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

•••

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾: ﴿كِتَٰبٌ﴾ قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذوفٍ؛ أي: هذا] والمشارُ إليه القُرْآنُ الكريم.

وكتاب بِمَعْنى: مكتوبٍ، ووُصِفَ القُرْآنُ بأَنَّه كتابٌ لِعِدَّةِ أَوْجُه:

الأَوَّل: أَنَّه مكتوبٌ في اللَّوْحِ المحْفوظِ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢].

الثَّاني: أَنَّه مكتوبٌ في الصُّحُفِ التي بأيدي المَلائِكَة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦].

الثالث: أَنَّه يُكْتَبُ في المصاحف، كمـا هو مَعْروفٌ، ورُبَّمـا يدَّعِي مُـدَّعٍ أَنَّه بِمَعْنى مَفْروضٍ على الأُمَّة الإيمـانُ به، والعَمَلُ به. فيكون هذا معنًى رابعًا لكَلِمَة (مكتوب).

وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أنزله الله إلى مُحَمَّدٍ ﷺ، وإنزالُه إلى مُحَمَّدٍ ﷺ من الله يدلُّ

على أنَّه كلامُ الله؛ ووَجْه ذلك: أنَّ هذا الكتابَ كلامٌ، والكَلامُ لا بدَّ له من متكلِّمٍ، فإذا كان الله هو الذي أَنْزَلَه، لَزِمَ أن يكون هو المُتكلِّمُ به، فيكون في هذا إثباتُ أنَّ القُرْآن كلام الله.

وأحيانًا يأتي التَّعْبير بـ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ والجَمْع بينهما: أنَّ (إلى) تفيد الغاية؛ أي: إنَّ غايَةَ هذا الإِنْزالِ إلى مُحَمَّد ﷺ، و(على) تفيد الاسْتِعْلاء.

وذلك لأنَّ هذا القُرْآنَ جاء من عَلٍ؛ أي: من فوق؛ من الله عَزَّوَجَلَّ، ثم إنَّ في (على) إفادَةَ التَّحمُّل للشَّيْء.

أنزله عليك: يعني لِتَتَحَمَّلَه، وتقومَ به.

فالفَرْقُ إِذَن من وَجْهَيْنِ:

الوجْهُ الأَوَّل: أن (إلى) تفيدُ الغايَةَ؛ أي: إنَّ غايَةَ الإنزالِ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ، لا يتعدَّاه إلى غَيْره، ولا نَبيَّ بعده، وأمَّا (على) فتُفيدُ الاسْتِعْلاء؛ أي: إنَّه نزل إلى الرَّسُولِ ﷺ من فوق، وتفيد أيضًا التَّحمُّل؛ لأنَّه نزل عليه كأنَّه فوقَه، والشَّيْءُ الذي فوقك لا بدَّ أن تتحَمَّلَه، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٤] ممَّا يدل على ثِقَلِه، وهو كذلك.

قال: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ صِفَـةٌ لكتابٍ. و﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أيضًا صِفَـةٌ لكتابٍ، هذا بناءً على إعراب المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبَرُ مُبْتَدَأٍ محْذوفٍ، ويجوز أن يكون ﴿كِتَٰبٌ﴾: مُبْتَدَأ، و﴿مُبَٰرَكٌ﴾: خَبَرُه، وجُمْلَة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ صِفَةٌ لكتاب، وسَوَّغَ الابتداءَ به وهو نَكِرَةٌ وصْفُهُ بجُمْلَةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

وبركَةُ القُرْآنِ من عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

١- الوَجْهُ الأَوَّلُ في الثَّوابِ الحاصِلِ بتِلاوَتِه؛ فإنَّ من قرأ حَرْفًا واحدًا منه، فلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ، وهذه بَرَكَةٌ عَظيمَةٌ.

٢- مباركٌ: من حيثُ الأَثَرُ المترتِّبُ على تلاوَتِه، سواءٌ كان عامًّا أم خاصًّا؛ فالخاصُّ ما يَحْصُل للإِنْسَانِ بتلاوَةِ القُرْآنِ من انْشِراحِ الصَّدْرِ، ونور القَلْبِ وطُمَأْنينَتِه، كما هو مُجَرَّبٌ لمن قرأ القُرْآن بتدَبُّر، وأَمَّا العامُّ، فإنَّ الله تعالى فَتَحَ بهذا القُرْآنِ مَشارِقَ الأَرْضِ ومغارِبَها، فإنَّ المسلمينَ لَمَّا كانوا مُتَمَسِّكين بهذا الكتابِ، سادوا العالَمَ كُلَّه، ولا شَكَّ أنَّ هذا من البَرَكَةِ بهذا القُرْآنِ.

٣- ما يحصل بهذا القُرْآنِ من اجْتِماعِ الكَلِمَة، وحِفْظِ اللُّغَة الأَصْلِيَّةِ للْقَوْم الذين نزل بلُغَتِهِم، فمن المَعْلومِ أنَّ النَّاسَ إذا كانوا على لُغَةٍ واحِدَةٍ، صاروا إلى الاجْتِماعِ أَقْرَبَ، وإذا تفرَّقَتْ لُغاتُهُم، صاروا إلى التفرُّقِ أَقْرَبَ؛ لأَنَّه إذا اتَّفَقَتْ لُغاتُهُم استطاعوا أن يَتَفاهَموا فيما بينهم، وأن يَعْرِف بَعْضُهم ما عِنْد بعضٍ، وإذا اختلفت اللُّغاتُ لم تَحْصُل هذه الفائِدَة، فهذا من بَرَكَةِ القُرْآن الكريم.

وله أَوْجُه أخرى رُبَّما لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَسْتَوْعِبَها في هذا المكانِ، لَكِنَّها ظاهِرَةٌ لِمَن تأَمَّلَها.

وقَوْلُه: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه مُتَعَلِّقَة بأنزلناه؛ يعني أنزلناه ليدَّبَّروا آياتِهِ، ليدَّبَّروا: اللام: لامُ التَّعْليلِ، ويَدَّبَّروا: فعل مضارِعٌ مَنْصوبٌ بأَنْ مُضْمَرة بعد لامِ التَّعْليلِ، والواو: فاعِلٌ، والجارُّ والمَجْرُورُ مُتَعَلِّقانِ بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: أَنْزلناه ليتَدَبَّروا آياتِه، والتدَبُّر معناه التَّأَمُّل في أدبار الأُمُورِ وعَواقِبِها، وتكرارِ اللَّفْظِ على القَلْبِ، مرَّةً بعد مرَّةٍ، حتى يتَّضح المَعْنى، أي معناه: التَّأَمُّل في معاني القُرْآن، وترديد هذا التَّأَمُّل،

حتى يتَّضِحَ ما فيه المَعْنى، وأَصْلُ هذه الكَلِمَة: ليَتَدَبَّروا، فأُدْغِمَت التَّاء في الدَّالِ، وإذا أَدْغَمْنا التَّاءَ في الدَّالِ جَعَلْنا التَّاء دالًا، فصارت ليدَّبَّروا آياتِه، وقوله: ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾ جَمْعُ آيَةٍ، والآيَةُ هي ما تنتهي بفاصِلَةٍ.

ومِنْ حِفْظ الله لِهَـذا القُرْآن أنَّ آياتِهِ مَحْفوظَةٌ مُرَقَّمةٌ، أو مَحْجـوزةٌ بَعْضُها عن بعضٍ، إلى يَوْمِنا هذا.

والآياتُ هي: العلاماتُ، وهي علاماتٌ على أنَّ هذا القُرْآنَ من عند الله عَزَّوَجَلَّ بما تَحْويه من اللَّفْظِ والمَعْنى.

ولهَذا كانت الآيَةُ الواحِدَةُ مُعْجِزَة للبشَر، بل مُعْجِزَة للخَلْق كلِّهِم؛ لأنَّها آيَةٌ من آيات الله.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾: يَنْظُروا في معانيها، فيُؤْمِنـوا]. هـذه حِكْمَةٌ من حِكَمِ إنزالِ القُرْآن؛ أن يَتَدَبَّرَ الإِنْسَانُ في الآياتِ.

الثَّانية: قال: [﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾: يَتَّعِظَ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أصحابُ العُقـولِ] هـذه فائِدَة ثانِيَة، جعل التَّذَكُّرَ بعد التَّدَبُّر؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن يتَّعِظَ الإِنْسَانُ بالشَّيْء إلا إذا عرف المَعْنى الذي يتضَمَّنُه، فيتدبَّر أولًا، ثم يتذَكَّر ثانيًا.

ففي المَرْحَلـة الأُولى يقرأ الإِنْسَانُ القُـرْآنَ، وفي المرحَلـة الثَّانية يتدبَّـره لفَهْمِ معانيهِ، ثم المَرْحَلَـة الثالِثَة: يَتَّعِظ به، والاتِّعاظُ بالقُـرْآنِ هو التأثُّـر به في القلـب والجوارح.

والتَّأَثُّر بالقَلْب: إخلاصُ العَبْدِ لله، وإنابَتُه إليه، وتَوَكُّلُه عليه، وما أَشْبَه ذلك من أَعْمال القُلوبِ.

وتأَثُّر الجوارِحِ: القِيامُ بطاعَةِ الله بالجوارِحِ الظَّاهِرةِ مِثْل الطَّهارَة والصَّلاة والزَّكاة والصَّوْم، وغير ذلك.

فالفائِدَةُ من إنزال هذا القُرْآن المبارَكِ تَتَرَكَّزُ على شَيْئَينِ؛ هما: التدبُّر والتذَكُّر.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ﴿أُوْلُواْ﴾ بِمَعْنى أصحابٍ، وهي مُلْحَقَة بِجَمْعِ المذَكَّر السَّالِمِ؛ لأنَّه ليس لها مُفْرَدٌ مِن لَفْظِها، بل لها مُفْرَدٌ من معناها، إذا قلنا: إنَّها بِمَعْنى أصحابٍ، صار مُفْرَدُها من المَعْنى صاحِبٌ، فأولو: جمع صاحِبٍ باعْتِبار المَعْنى.

وقوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أصْحابُ العُقولِ] لأنَّ صاحِبَ العَقْلِ هو الذي يتَّعِظُ، أَمَّا من لا عَقْلَ له، فإنَّهُ لا يَنْتَفِع بذلك.

والعقول هنا، هي عُقولُ الرُّشْد؛ لأنَّ العَقْل عَقْلان: عَقْلُ إدْراكٍ، وعَقْلُ رُشْد. فعَقْلُ الإدْراكِ هو ما يتعلَّق به التَّكْليفُ، وعَقْل الرُّشْد ما يكون بِحُسْنِ التصرُّفِ؛ فالكُفَّار مثلًا لهم عُقُولُ إدراكٍ؛ لأنَّ هـذا هو الذي يتعلَّقُ به التَّكْليف وليس لهم عُقولُ رُشْدٍ؛ لأنَّهم لم يُحْسِنوا التَّصَرُّف، وكُلُّ من لا يُحْسِنُ التَّصَرُّف، فإنَّهُ يَصِحُّ أن يُنْفَى عنه العَقْلُ، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] ونحن فيما بيننا إذا وجدنا شَخْصًا يُسِيءُ التَّصَرُّفَ، قلنا: إنَّهُ غَيْرُ عاقلٍ، وإن كان عاقلًا من حَيْثُ الإدراكُ، لَكِنَّه غيرُ عاقِلٍ من حيثُ التَّصَرُّف.

والعَقْلُ الذي يُمْدَح هو عَقْلُ الرُّشْدِ، أَمَّا عَقْلُ الإدْراكِ، فهذا يحصُل لِكُلِّ أَحَدٍ، حتى الكُفَّارِ والفُجَّارِ.

وقوله: ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: (ألباب) جمع لُبٍّ، ولُبُّ كُلِّ شيء: المقْصُودُ منه؛ فالحَبَّة مثلًا لُبُّها ما كان بداخِلِها، المُخُّ الذي بداخلها هو اللُّبُّ، وما فوقه قُشُور، والبَيْضَة التي بداخلها هو اللُّبُّ وما فوقه قُشُور.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا القُرْآنَ كلامُ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الله أضافه لِنَفْسِه في قَوْلِه: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾ والقُرْآن كلامٌ، وإذا أُضيفَ الكَلامُ إلى أحد، لَزِمَ أن يكون صِفَةً له؛ لأنَّ الكَلامَ مَعْنًى لا يقوم إلا بغَيْرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْباتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾. والإِنْزالُ لا يكون إلا من العُلُوِّ، وقد قرَّرْنا هذا كثيرًا في عِدَّةِ مجالِسَ، قَرَّرْنا عُلُوَّ الله بذاتِهِ فَوقَ خَلْقِه، وبَيَّنَّا أنَّه ثابتٌ بجميع أَنْواع الأَدِلَّة السَّمْعِيَّة: الكتابِ، والسُّنَّةِ، والإجْماعِ، والعَقْلِ، والفِطْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ القُرْآن كتاب؛ أي: مَكْتوبٌ، وقد بيَّنَّا أنَّه مكتوبٌ في ثلاثة مَواضِعَ:

أ- اللَّوْح المَحْفُوظ.

ب- والكُتُب التي بأيدي المَلائِكَةِ.

ج- والكُتُب التي بأيدي الإِنْسَانِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثْباتُ رِسالَةِ النَّبِي ﷺ بِقَوْلِه: ﴿أَنزَلْنَهُ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَةُ رَسولِ الله ﷺ حيث كان أَهْلًا لأَنْ يُنَزَّل عليه القُرْآنُ، والقُرْآن لا يُنَزَّلُ إلا على من هو أَهْلٌ لإِنْزاله عليه لِجَمْعِهِ صِفاتِ الكَمالِ البَشَرِيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرْآنَ الكريمَ مُبارَكٌ، حَسَبَ الوجوه التي ذكرناها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الحثُّ على العِنايَةِ به والْتِزامِه؛ لأَنَّه إذا كان مُبارَكًا، فإنَّ كُلَّ أَحَدٍ من البشر يريد أن ينالَ بَرَكَةَ هذا الشَّيْءِ المبارَكِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ القُرْآن يُسْتَشْفَى به، كما دلَّتْ على ذلك آياتٌ كثيرة أخرى، يُسْتَشْفَى به من أَمْراضِ القُلوبِ ومِنْ أَمْراض الأَبْدان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

إِذَن: فمن بركة القُـرْآن أَنَّه يُسْتَشْفَى به من أَمْراضِ القُلُـوبِ، ومن أمراض الأَبْدانِ.

والاسْتِشْفاء به من أَمْراضِ الأَبْدانِ يَقَعُ على وُجُوهٍ مُتَنَوِّعَة:

أ- منها: أن يُقْرَأَ على المريضِ به؛ كِقِراءَةِ الفاتِحَة على المريضِ، فإنَّها مُفيدَةٌ جدًّا.

ب- ومنها: أن يُكْتَب في إناء ويُصَبَّ عليه الماءُ، ويُدارَ عليه الماءُ حتى يتَغَيَّر بهذه الكتابة، ثم يُشْرَب، وهذا مُجَرَّب.

ج- ومنها -على رأي بعض العُلَمـاء من السَّلَف والخَلَف-: أن يعلَّق بِصِفَة تَميمَة؛ أي: يُكْتَبُ في جِلْدٍ أو ما أَشْبَهَه، ثم يعلَّقُ على المريضِ، فإنَّ هذا قد اختلف فيه السَّلَفُ، فرخَّص فيه بعضُهم، ومنعه بعضهم، ومن رخَّص فيه استدلَّ بعُمُوم الأَدِلَّة الدَّالَّة على أنَّ القُرْآن فيه الشِّفَاء[1].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ من أعظم الحِكَمِ في إنزال القُرْآنِ تَدَبُّرَ القُرْآنِ، لِقَوْلِه تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: حَثُّ الإِنْسَانِ على تدبُّرِ الآياتِ، وألَّا يَقْرأ القُرْآن قراءةً لَفْظِيَّةً فقط، فإِنَّ الله تعالى قد ذمَّ هذا الجِنْس من النَّاس، أعني الذين يَقْرَؤُونه قِراءَةً لَفْظِيَّة،

---

(١) انظر شرح فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكتاب التوحيد، باب ما جاء في الرقى والتمائم. لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]. ﴿أَمَانِيَّ﴾: يعني قِراءَةً لَفْظِيَّة فقط، فوَصَفَهُم الله بأنَّهم أُمِّيُّونَ؛ لأنَّهم لم يَنْتَفِعوا بالقُرْآنِ؛ إذ لا يُمْكِن أن يُنْتَفَعَ بالقُرْآنِ إلا بِفَهْمِ مَعانيه، فإذا لم تُفْهَم معانيه صار العربِيُّ والعَجَمِيُّ على حدٍّ سواءٍ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ تَدَبُّر القُرْآنِ فَرْضٌ؛ لأنَّ العَمَل بالقُرْآن فرضٌ، ولا يَتِمُّ العَمَلُ إلا بالتدبُّر، وما لا يَتِمُّ الفَرْضُ إلا به فَهُو فَرْضٌ.

ولكنْ هل التَّدَبُّر فَرْضُ عَيْنٍ، أم فَرْضُ كِفايَةٍ؟

حَسَبَ الحالِ، قد يكون فَرْضَ عَيْنٍ، وقد يكون فَرْضَ كفاية، فما لا يَتِمُّ دينُ العبدِ إلا به فهو فرضُ عينٍ، وما زاد على ذلك فهو فرض كفايَةٍ، ولا بدَّ أن يكون في الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ من يَفْهَمُ القُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ القُرْآنَ كُلَّهُ آياتٌ دالَّة على المُتكلِّم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولم يَقُل: آيات منه، أو عَشْر آياتٍ، بل كُل الآياتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مِن أَعْظَمِ ما نزل القُرْآن لأَجْلِه: التَّذَكُّر؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾.

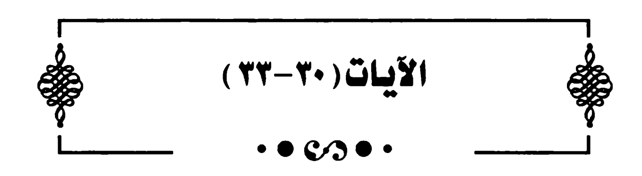
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ القُرْآن الكريمَ نَزل مَوْعِظَةً للنَّاس، كما قال الله تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]، فالقُرْآنُ نزل ليُؤَثِّر، ولم يَنْزِل ليَتبَرَّكَ الإِنْسانُ بقراءته، أو يَنالَ الأَجْرَ بِقِراءَتِه فقط، هذا سَهْلٌ، ولكن لا بدَّ أن يُؤَثِّر تَذَكُّرًا ومَوْعِظَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه لا يَتَذَكَّرُ بالقُـرْآنِ إلا أصحابُ العُقـولِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من تذكَّر بالقُرْآنِ، فهو صاحِبُ عَقْل، ومن لم يتذكَّر، فليس له عَقْلُ رُشْدٍ، وَجْهُ ذلك أنَّ الله جعل التَّذَكُّر لمن اتَّصَفوا بالعقول.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ لُبَّ الإِنْسَان ورُوحَه هو العَقْل؛ عَقْلُ الرُّشْد؛ لأنَّ الله تعالى سَمَّى هذه العُقُولَ ألبابًا، جَمْع لُبٍّ؛ كأسبابٍ: جَمْعُ سَبَبٍ.

• ● ❁ ● •



الآيات (٣٠-٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٠-٣٣].

••○••

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ وَهَبْنا: أَعْطَيْنا، ووصف الله ذلك بأَنَّه هِبَةٌ؛ لأَنَّه مَحْضُ فَضْلٍ منه لا يحتاج منَّا إلى شيء، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠] إِذَن وَهَبْنا لداوُدَ: أَعْطَيْناه هِبَةً فضلًا منَّا.

وقوله: ﴿سُلَيْمَانَ﴾ لم يُنوَّنْ؛ لأَنَّه ممنوعٌ من الصَّرْفِ للعَلَمِيَّة، ولزِيادة الألِف والنُّون.

وداود: ممنوعٌ من الصَّرْفِ للعَجَمِيَّة والعَلَمِيَّة؛ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿سُلَيْمَانَ﴾ ابنه]، مِنْ أين عَرَفَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّه ابْنُه؟ ألا يَجوزُ أن يكونَ المرادُ وَهَبْنا لداود سُلَيْمانَ يعني خادِمَه؟

الجَواب: لا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمَّى الأولاد هبةً في قَوْلِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ يعني: يُصَنِّفُهم ذُكْرانًا وإناثًا ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٥٠].

قال: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ أي: سُلَيمانُ، ونِعْمَ: فِعْلٌ ماضٍ جامِدٌ لإنْشاءِ المَدْحِ، والجُمْلَةُ أُتِي بها للمَدْح والثَّناء، وعلى نقيضها (بِئْس) فإنَّها كَلِمَة لإنشاءِ الذَّمِّ.

وقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ المَعْروفُ أنَّ (نِعْمَ أو بِئْسَ) تحتاج إلى فاعِلٍ، ومَخْصوصٍ بالمَدْحِ في (نِعْمَ)، والذَّمِّ في (بئس)، ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾: ﴿نِعۡمَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، و﴿ٱلۡعَبۡدُ﴾ فاعل، والمَخْصوصُ بالمَدْحِ: إمَّا أن نُقَدِّرَه اسمًا ظاهرًا، أو ضميرًا.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هذا سَبَبُ ثناءِ الله عَزَّوَجَلَّ على سُلَيْمانَ ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ أي: سُلَيْمانَ.

﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ كان ذلك بِتَرْجيعِ الصَّوْتِ بالذِّكْر، أو بالرُّجوعِ إلى طاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

والظَّاهِرُ أنَّ الآيَةَ شامِلَة للمَعْنيَينِ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى طاعَةِ الله، و﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ بالتَّسْبيحِ؛ أي: يُرَجِّعُ الصَّوْتَ به ويردِّده.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رجَّاعٌ بالتَّسْبيحِ والذِّكْر في جَميعِ الأَوْقاتِ] ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّه أعَمُّ مِمَّا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّه رجَّاع بالتَّسْبيح والذِّكْرِ، وكذلك رجَّاعٌ إلى الله بالتَّوْبَة والطَّاعَة.

وقوله: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾: ﴿عُرِضَ﴾ العارِضُ أبْهَمَه للتَّفْخيم؛ لأنَّ الفِعْلَ هنا مَبْنِي للمجهولِ؛ يعني كأنَّه يُوحي بأنَّ له جُنُودًا كثيرةً يَعْرِضونَ عَلَيه ما يَعْرِضون.

وقوله: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ هو ما بَعْدَ الزَّوالِ إلى غُروبِ الشَّمْسِ، وقوله: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ الباءُ هنا للظَّرْفِيَّة؛ أي: فيه، ولكنَّ الغالب أنَّ الباء إذا جاءت في مكان (في) أنَّها تكون مُسْتَوْعِبَة لجميعِ الوَقْت، كأنَّ العَشِيَّ صار كلُّه مُستَوْعِبًا لِهَذا العَرْضِ؛ لِكَثْرَةِ الخُيولِ

التي تُعْرَض عليه.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصَّافِناتُ مَرْفوعَةٌ، وهي نائِبُ فاعل ﴿عُرِضَ﴾.

فإذا قال قائل: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع، والفِعْل مُذَكَّر: ﴿عُرِضَ﴾ وهـذا جَمْعٌ ذاتُ حِرٍ؛ يعني: جَمْع مؤنَّث حقيقي، وابنُ مالكٍ يقول في تاء التَّأْنيثِ[1]:

وَتَـاءُ تَأْنِيـثٍ تَـلِي المَـاضِي إِذَا كَـانَ لِأُنْثَـى كَأَبَـتْ هِنْـدُ الأَذَى

وَإِنَّـمَا تَلْـزَمُ فِعْـلَ مُضْـمَرِ مُتَّصِـلٍ أَوْ مُفْهِـمٍ ذَاتَ حِـرِ

نقول: إنَّما لم يَجِبِ التَّأْنيثُ لِوجودِ الفاصِلِ، وهو قوله: ﴿عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الخَيْل، جَمْعُ صافِنَـة، وهي القائِمَـة على ثلاثٍ، وإقامَة الأُخْرى على طَرَف الحافِرِ، وهو من صفَنَ يصفِنُ صُفونًا].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ هي: الخَيْلُ تَقومُ على ثلاثِ أَرْجُلٍ، وتَرْفَع الرَّابِعَة قليلًا، بحيث يكونُ طَرَف الحافِرِ على الأَرْض، وهذا يدُلُّ على قوَّتها، وهو أيضًا من ناحِيَة الجَمالِ أَجْمَلُ عند رؤيتها، ولو تصَوَّرت الخيلَ مصفوفةً صافِنَةً، لكان لها أُبَّهَة، وتَشْعرُ بِشَيْءٍ من العَظَمَة من هذا المشْهَد الذي تشاهِدُه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع جوادٍ، وهو السَّابِقُ، المَعْنى: أنَّها إذا استُوقِفَت سَكَنَت، وإن رَكَضَت سَبقَتْ] يعني: أنَّ هذه الخَيل التي عُرِضَت عليه مَوْصوفَةٌ بِهَذَينِ الوَصْفَينِ: أنَّها من الصَّوافِنِ، وأنَّها من الجِيادِ؛ فهي إذا استُوقِفَت وَقَفَتْ على أَحْسَن هَيْئَة، وهو الصُّفون، وإذا رَكَضَت رَكَضَتْ على أكْمَلِ هَيْئَة، وهي الجُود؛ جَيِّدة في السَّبْق، وتتحَمَّل المشاقَّ، ولو طال السَّيْر، وهذا غايَةُ ما يكون من

---

(١) الألفية (ص:٢٥).

جَمالِ الخَيْلِ؛ أن تكون هَيْئَتُها حين الوقوفِ مِمَّا يَسُرُّ النَّفْس، وأن يكون فِعْلُها وأداؤها حين السَّيْرِ مِمَّا يَنْفَعُ؛ لكَوْنِها من ذواتِ الجُودِ.

وقول المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كانَتْ أَلْفَ فَرْسٍ، عُرِضَتْ عليه بَعْدَ أنْ صلَّى الظُّهْر لِإرادَتِه جهادَ العَدُوِّ عليها، فَعِنْدَ بُلوغِ العَرْضِ منها تِسْعَ مِئَةٍ غَرَبَتِ الشَّمْسَ ولم يكُنْ صلَّى العَصْرَ فاغْتَمَّ].

تَقْديره هـذه الخَيْلَ بألْفِ فَـرَسٍ يحتاج إلى دليلٍ عن معصومٍ؛ عن النَّبِيِّ ﷺ، وليس هناك دليلٌ عن رسـولِ الله ﷺ بأنَّها أَلْفٌ أو أَلْفانِ أو أَقَلُّ أو أَكْثَرُ، وحينئـذ تكون مَسْؤُولِيَّتُنا أن نقِفَ حيث يقف القُرْآنُ، فلا نُحَدِّدُها بألْفٍ ولا بأكْثَرَ ولا بأقَلَّ، إنَّما هو عُرِضَتْ عليه في آخِرِ النَّهارِ هذه الخيولُ الصَّافِناتُ الجِيادُ، فلَمَّا عُرِضَتْ عليه نَسِيَ أن يصلِّيَ لقُوَّةِ ما في قَلْبِه من التعلُّقِ بهذه الخُيُولِ التي أعدَّها للجهادِ في سبيل الله، أو أعَدَّها للزِّينَة والتَّمَتُّع؛ لأنَّ سُلَيْمانَ كان من الأَنْبِياء الملوكِ، قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥] والملوكُ من عادَتِهم أن يُسَـرُّوا ويَبْتَهِجـوا بالنَّظَرِ إلى الخُيُول، وسواءٌ كان أعَدَّها للجهادِ إن كان قد أُمِرَ به، أو أعَدَّها للتَّمَتُّع بها بِصِفَتِه أنَّه ملك ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أَحْبَبْتُ؛ أي: أَرَدْتُ؛ حُبَّ الخَيْـرِ؛ يعني: مَحَبَّةَ الخَيْـرِ، والخَيْـرُ يُطْلَق على المالِ عُمُومًا، كما في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٦-٨] أي: لِحُبِّ المالِ، والدَّليلُ على أنَّ الخَيْـرَ هو المالُ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠].

فقوله: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: حُبَّ المالِ، وتَفْسيرُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لِهذا الخَيْرِ بالخَيْل أَخَصُّ من دَلالَة اللَّفْـظِ، وقد مرَّ علينا أنَّه لا يجوزُ أن يُفَسَّـر اللَّفْظُ الأَعَمّ بالمَعْنـى

الأَخَصِّ؛ لأنَّ هذا قُصورٌ في التَّفْسيرِ، لكن قد يكون عُذْرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ السِّيَاقَ في الخَيْلِ، فيكون حَمْلُه لِهَذا العامِّ على الخاصِّ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ.

وهنا إشكالٌ، وهو قوله: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ هل الحُبُّ يُحَبُّ؛ أي: لو قال قائل: لماذا لم تكُنِ الآيَة: إنِّي أَحْبَبْتُ الخَيْر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]؟

لقد أَوَّلَ المُفَسِّر المَحَبَّة التي جاءت بِلَفْظِ الفِعْلِ بالإِرادَةِ فقال: [﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ﴾ أي: أَرَدْتُ ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾] لَكِنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن تَخَلَّصَ من تَضارُبِ اللَّفْظِ لم يَتخَلَّص من فسادِ المَعْنى؛ لأنَّه إذا قال: أَرَدْتُ ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ فالمراد قد يَحْصُل، وقد لا يَحْصُل مع أنَّ حُبَّه حاصِلٌ.

والجَوَابُ أن نقول: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ الأولى على بابِها و﴿حُبَّ﴾ الثَّانِيَة على بابها من بابِ التَّوكيدِ، كأنَّه أَحَبَّ حُبَّ الخَيْرِ فَضْلًا عن الخَيْل، ومن أَحَبَّ حُبَّ الشَّيْء لَزِمَ أن يكون مُحِبًّا للشَّيْءِ، كما لو قُلْتَ: أنا أُحِبُّ أن أُحِبَّ فلانًا، أو أنا أُحِبُّ أن أُحِبَّ قراءةَ الكِتابِ الفُلانِيِّ، فيكون هذا من بابِ التَّوْكيدِ، كأنَّه كرَّر المَحَبَّةَ مَرَّتينِ، وبهذا نتخَلَّصُ من الإيرادِ الذي يَرِدُ على تَفْسيرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: صلاةِ العَصْرِ]، وهذا أيضًا فيه تَفْسيرٌ للعامِّ بما هو أَخَصُّ، وهو قصورٌ في التَّفْسير؛ وذلك لأنَّ الذِّكْرَ أَعَمُّ من الصَّلاة؛ فَكُلُّ صَلاةٍ ذِكْرٌ، وليس كُلُّ ذِكْر صلاةً.

إِذَن: إذا فسَّرنا الذِّكْرَ بالصَّلاةِ فقد فسَّرْنا الأَعَمَّ بالأَخَصِّ، وهذا قصورٌ، لكن رُبَّما يُعتَذَر عن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسياقِ الآيَة، ولكِنْ هذا العُذْرُ لا يُقْبَل؛ مَنِ الذي يقول: إنَّ سُلَيْمانَ أراد بِذِكْر رَبِّه صلاةَ العَصْرِ؟ إذ قد يكون أنَّه أراد ذِكْرَ الله في المَساءِ؛ لأنَّ

المساءَ له أذكارٌ مُعيَّنَةٌ، وتكون صلاةُ العَصْرِ داخِلَةً في هذا الذِّكْر، وهذا هو الصَّحيحُ؛ أنَّ المرادَ بالذِّكْرِ في قَوْلِه: ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ عُمُومُ الذِّكْرِ، الذي يدخل فيه صلاةُ العَصْرِ.

وقوله: ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ يَشْمَلُ التَّذَكُّرَ الذي هو ذِكْرُ القَلْب، ويَشْمَل القَوْلَ الذي هو ذِكْرُ اللِّسَانِ، ويَشْمَلُ الفِعْل الذي هو أَفعالُ الجوارِحِ إذا أَدْخَلْنا صلاةَ العَصْرِ في هذا؛ لأنَّ صلاةَ العَصْرِ تَشْتَمِل على أَنْواعِ الذِّكْرِ الثَّلاثَة، فيها ذِكْرٌ بالقَلْبِ، وذِكْرٌ باللِّسَانِ، وذِكْرٌ بالجوارِحِ.

وقوله: ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ في إضافَةِ الرُّبُوبِيَّة إلى الله اسْتِعْطافٌ من سُلَيْمان لله عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ أَذْعَنَ له في الرُّبُوبِيَّة التي تقتضي أن يكون مَشْغولًا بذِكْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ اسْتَشْكَل بعضُ العُلَماءِ تَعَدِّيَ الفِعْلِ بـ(عن).

قيل: إنَّ (عن) تعني البَدَلِيَّة هنا؛ أي: بَدَلَ ذِكْرِ ربي، وقال بعض العُلَماء: إن ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ ضُمِّنَ معنى آثَرْتُ؛ أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيْرِ عن ذِكْرِ ربِّي. ومرَّ علينا فيما سبق أنَّه إذا جِيء بمُتعَلِّقٍ لا يُناسِبُ المتعلَّقَ ظاهرًا فإنَّ لعُلَماء النَّحْوِ في ذلك قولين:

الأَوَّل: تَضْمينُ المتعلَّقِ معنًى يناسِبُ المتعلِّقَ.

والثَّاني: أن يُضَمَّنَ الحَرْفُ الذي لا يناسِبُ المتعلَّق حَرْفًا يناسِبُ المتعلَّق، وذكرنا أنَّ الأَوْلى أن يكونَ التَّجوُّز بالفِعْلِ.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الشَّمْسُ ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي: اسْتَتَرَت بما يَحْجُبها عن الأَبْصار].

إذا قال قائل: ﴿تَوَارَتۡ﴾ الفاعِلُ ضَميرٌ مستَتِرٌ، والشَّمْسُ لم يَسْبِقْ لها ذِكْرٌ،

فلماذا لا يقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخَيل ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني أنّها أُبْعِدَتْ حتى اسْتَتَرَتْ عنه، وكأنَّه شُغِلَ بالنَّظَرِ إليها، وهي تتطارَدُ وتَتَسابَقُ حتى وَصَلَتْ إلى مسافة بعيدةٍ بحيث غابت عنه؟

نقول: لا شَكَّ أنَّه معنًى مُحْتَمَلٌ في الآيَة: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: هذه الخيولُ أبعدت واسْتَترت. ولكن ورَدَتْ أحاديثُ تُؤَيِّدُ ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّ التي توارَتْ هي الشَّمْسُ. ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: بما يحجبها عن الأبصار.

فما هو الحِجابُ؟ الحجاب هو الأَرْض، كما قال الله تعالى عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦] أي: في البحر، إِذَن، الذي يَسْتُرُها إذا غابت هي الأَرْض؛ لأنَّ الأَرْض كُرَوِيَّة الشَّكْل؛ إذا دارت الشَّمْس عليها ووصلت الجانبَ المنحَنِي لا بدَّ أن تَغيبَ، وهكذا تغيبُ عن كُلِّ قومٍ شيئًا فشيئًا، حتى تَطْلُعَ على من غابت عنهم أوَّلًا.

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾: ﴿رُدُّوهَا﴾ الضَّميرُ راجعٌ إلى الخيل التي عُرِضَت عليه، أمر أن تُردَّ عليه، وترْجِع عليه مرَّةً ثانيَةً؛ من أجل أن يَقْضِيَ عليها غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ، وتنكيلًا لِنَفْسِه التي تعلَّقَتْ بهذه الخُيُولِ، وأَعْرَضَتْ بها عن ذِكْر الله. ﴿فَطَفِقَ﴾، طَفِقَ: فعل ماضٍ من أفعالِ الشُّروع، ويكون خَبَرُها فعلًا، وبناءً على ذلك فإن قوله: ﴿مَسْحًۢا﴾ لَيسَتْ خبَرًا لها، بل مَصْدَرٌ (مفعولٌ مُطْلَقٌ) للفِعْلِ المَحْذوفِ الذي هو الخَبَر، والتَّقْديرُ: فطَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحًا، والجُمْلَة: خَبَرُ طَفِقَ.

قوله: ﴿مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ﴾ يعني يَضْرِبُها مع سُوقِها؛ جَمْع ساقٍ، و﴿وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ مع العُنُقِ؛ لأنَّ الخَيْلَ تتعلَّقُ بها النَّفْس، باعْتِبارِ المَشْيِ، وباعْتِبار الصُّفونِ عند الوُقوفِ،

وباعْتِبار الرَّقَبَة وطولِها، وما عليها من الشَّعْر وحُسْنِ العُنُقِ، وهو دال على فراهَتِها؛ ولهذا ضَرَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مواقِعَ الحُسْنِ في الخَيْل، وهي سُوقها وأَعْناقُها.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ذَبحَها وقَطَعَ أَرْجُلَها تقرُّبًا إلى الله حيث اشتغل بها عن الصَّلاةِ، وتَصَدَّقَ بِلَحْمِها فعَوَّضَه الله خيرًا منها وأَسْـرَعَ، وهي الرِّيحُ تجري بأمره كيف شاء] يُحْتَمَلُ ما قاله المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ويُحْتَمَل أَنَّه لم يتصدَّقْ بها؛ لأَنَّه ذبَحها تقرُّبًا إلى الله تعالى بإتْلافِها، وما كان كذلك فإنَّهُ لا يُؤْكَل.

وعلى كُلِّ حال: يُحتَمل أنَّ سُلَيْمانَ تصَدَّق بها كما قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، أو أَكَلَها، أو تَرَكَها، والله أعلم.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الأولادَ هِبَةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للعَبْدِ.

ويَتفَرَّعُ على ذلك: أنَّه يَجِبُ على العَبْدِ شُكْرُ الله على هذه النِّعْمة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناءُ على سُلَيمـان في قَوْلِه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ والعُبودِيَّـة هنا: العُبودِيَّة الخاصَّةُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ العِللِ والأَسْبابِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، فإنَّ هـذا هو سَبَبُ الثَّناء عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلَةُ الأَوْبَةِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ والرُّجُوع إليه بالقَلْبِ والعَمَلِ؛ لأنَّ الله أثنى على سُلَيْمان بِسَبَب ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ عَظَمَـةِ مُلْكِ سُلَيمـان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيـث كان النَّاس يَعْرِضون عليه هـذه الخُيولَ للتَّمتُّع بها، ومن أجْلِ الاطِّلاعِ عليها وتَفَقُّدِها، ووَجْهُ

ذلك أنَّه قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ هناك أناسًا يعرِضون عليه هذه الخُيولَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هذه العادَة، وهي عَرْضُ الخُيُول والتَّمَتُّع بِجَرْيها في آخر النَّهار، عادةٌ قديمـةٌ ما زال النَّاسُ عليها إلى اليَوْم؛ يعني لا تكاد تَجِدُ أحدًا يُجْـري مسابَقَةً على الخيل في أوَّلِ النَّهارِ؛ إنَّما يكون في آخِرِ النَّهار، وهذا من العاداتِ القَديمةِ في النَّاس إلى اليَوْم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنْبَغي اخْتيارُ الخَيْلِ الجَيِّدَة الجَميلَةِ، التي تَسُـرُّ النَّفْس في رؤيتها، وفي جَرْيِها؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يَنْبَغي اقْتِناءُ الخَيْـلِ؛ حيـث كان هذا من أَدَبِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاة والسَّـلام؛ وقد قال الرَّسُـولُ ﷺ: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[١]. فمتى كانت الخَيْلُ أداةَ حَرْبٍ، فالخَيْرُ في نَواصيها إلى يَوْمِ القِيامَةِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ذِكْرُ أُنْموذَج من وَصْف سُلَيمـان عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأَوَّابِ؛ حيثُ قال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ المالَ خيْرٌ، وهو كذلك؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا رُزِقَ المال تمكَّنَ من أن يتمَتَّعَ تمتُّعًا كامـلًا فيمـا يَخْتَصُّ بالمالِ، بخلاف إذا ما ضُيِّـقَ عليه المالُ، فإِنَّهُ لا يستطيع أن يتمَتَّع.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإعراض عن ذكر الله بأُمُور الدُّنْيا أمرٌ مذمومٌ؛ لأنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبَّخ نَفْسَه في كَوْنِهِ أَحَبَّ الخَيْر وقدَّمَه على ذِكْر الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، رقم (٢٨٥٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير، رقم (١٨٧٣)، من حديث عروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ أنَّ الشَّمْس تجري دائمًا، ولَيْسَت تَغِيب؛ بِمَعْنى أَنَّها تَحْتَجِب عن الأنظارِ في السَّماء؛ لِقَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات أنَّ الشَّمْسَ هي التي تدور على الأَرْضِ في طُلُوعها وغُرُوبها؛ لأَنَّه أضافَ الفِعْل إليها، فقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ولو كان الأَمْرُ كما يقول أَهْل الجغرافيا اليَوْمَ: إنَّ الأَرْض هي التي تدور وتَحْتَجِبُ الشَّمْسُ بسبب دَوَرانِها لقال: حتى تَوَارَيْنا بِحِجابٍ، أو حتى تَوارَى بالحجابِ؛ لأَنَّه إذا كنْتَ أنت الذي تَدورُ، ومقابِلُك ثابتٌ؛ فالذي يتوارَى هو الدَّائر.

فإذا كان الله تعالى أَثْبَتَ أنَّ التَّوارِيَ للشَّمس، دلَّ هذا على أنَّها هي التي تدورُ، وهذا كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧] وهذه أَرْبَعَةُ أفعالٍ أُضِيفَتْ كُلُّها إلى الشَّمْس.

وفي الصَّحيحِ عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان مع النَّبي ﷺ حين غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قال له: «**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟**»، قلت: اللهُ ورَسُوله أعلم، قال: «**فَإِنَّهَا تَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ، فَإِنْ أُذِنَ لَهَا وَإِلَّا قِيلَ: فَارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَخْرُجُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[1] هذا هو ظاهِرُ القُرْآن.

والواجِبُ على الْمُؤْمِن أن يَتَّبع ظاهرَ القُرْآنِ؛ لأنَّ هذا هو الطَّريق في كُلِّ شيء، كما في أَسْماءِ الله وصِفاتِهِ نَتَّبع ظاهِرَ القُرْآن، وكما في الأحكام الشَّرْعِيَّة نتَّبع ظاهِرَ القُرْآن.

إِذَن: في الأُمُور الكَوْنِيَّة نتَّبع ظاهر القُرْآن؛ لأنَّ ظاهِرَ القُرْآن صَدَرَ من الخالِقِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العليم، فهو أعْلَمُ مِن خَلْقِه بِخَلْقِه، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١] فإذا كان هذا صادرًا من رَبِّ العالَمِينَ، يَجِبُ علينا أن نُصَدِّقه.

فالواجب علينا إِذَن إجراءُ ظواهِرِ الكتابِ والسُّنَّةِ على ما هي عليه حتى يقوم لنا دليلٌ حِسِّيٌّ واضِحٌ يُبيِّنُ أنَّ اللَّفْظَ ليس على ظاهِرِه.

فلو فُرِضَ أنَّه تبيَّنَ تَبيُّنًا واضِحًا مثلَ الشَّمْسِ أنَّ الأَرْض هي التي تَدورُ، فإنَّنا نقول: عبَّر بهذه الأفعال التي ظاهِرُها أنَّ الشَّمْسَ هي التي تدور باعْتِبارِ ما نُشاهِدُ، فتكون غَرَبَتْ باعْتِبارِ مُشاهَدَتِنا؛ لأنَّ المشاهَدَ المحسوسَ حَسَب الأَمْرِ الظَّاهِرِ لعامَّةِ النَّاس أنَّ الأَرْضَ ثابتةٌ والشَّمْسُ تدورُ عليها، فيكونُ التَّعْبيرُ بِحَسَب ما يشاهِدُ النَّاس في الظَّاهِر، ولكن لا نحتاجُ إلى تأويلِ الآياتِ إلا إذا ثَبَتَ ثُبُوتًا حَسِّيًّا قَطْعِيًّا لا إشكال فيه؛ لأنَّ الظَّاهِرَ دَلالَتُهُ ظَنِّيَّةٌ، ولا يُمْكِن زَحْزَحَةُ هذه الدَّلالَةِ إلا بدليلٍ قَطْعِيٍّ يكون أقوى منها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الأَرْضَ كُرَوِيَّة لأنَّه لما أثْبَتَ أنَّها تتوارى بالحِجابِ، دلَّ هـذا على أنَّ الأَرْضَ هي التي تَحْجُبُها، وهي كما نشاهِـدُ تَنْزِلُ شيئًا فشيئًا حتى تكون في الأَرْضِ، فيـدلُّ ذلك على أنَّ الأَرْض كُرَوِيَّـة، وهذا أيضًا أمرٌ مَقْطـوعٌ به ولا إشكال فيه، فهو ظاهِرٌ من القُرْآن، وظاهِرٌ في الواقِع؛ ففي القُرْآن يقول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٤]. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ وذلك يكون يَوْمَ القيامـة، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدل على أنَّها قبل هذا لَيْسَتْ مَمْدودة، بل هي كُرَوِيَّة، وهذا لا يعارِضُ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ

كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها باعْتِبار المشاهَدَة، فأنت الآن إذا وَقَفْتَ على الأَرْض تَجِدُها مُسْتَوِيَة إلى مَدِّ البَصَر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: جوازُ التَّعْزيرِ بإتلافِ المالِ، وهذه مسأَلَةٌ اختلف فيها الفُقَهاءُ، هل يجوز أن نُعَزِّرَ الإِنْسَانَ بِإِتْلافِ مالِهِ؟ أو لا يجوزُ؟

فمن العُلَماء من قال: إِنَّهُ لا يجوزُ؛ لأن إتلافَ المالِ إفْسادٌ له، ويُمْكِن أن نُعَزِّرَه بأَخْذِ المال دون إِتْلافِهِ، نأخُذُه منه ونُنْفِقُه على جِهَةٍ نافِعَةٍ.

ومنهم من قال: بل إنَّ ذلك جائِزٌ، واستدلوا لذلك بأنَّ الغالَّ من الغنيمة الذي يكْتُم ما غَنِم يُحَرَّقُ رَحْلُه، وهذا إتلافٌ له، مع أنَّ الجيْشَ قد يكون في حاجَةٍ إلى ماله، ومع هذا أُتْلِفَ.

وهذا هو القول الراجِحُ: أَنَّه يجوز التَّعْزيرُ بإِتْلافِ المال؛ أولًا: لدَلالَةِ السُّنَّة على ذلك. ثانيًا: لأن إتلافه أَنْكَى وأَعْظَمُ أثرًا؛ لأَنَّه لو أُخِذَ وجُعِلَ في مصالِحَ صارُ التَّنْكيلُ خَفِيًّا، ثم قد يكون فَتَحَ بابًا للوُلاةِ الظَّلَمَة إذا أرادوا المال أقاموا دَعْوى على شَخْصٍ ما، ثم قالوا: نُعَزِّرُه بأخْذِ ماله، ثم يَأْخُذونَ مالَه على أن يكون في بَيْت المال، ولَكِنَّه سيكونُ في جُيُوبِ هؤلاء الظَّلَمَةِ، فإذا قلنا: بأَنَّه يُحْرَق ويُتْلَف أمامَ النَّاس، زالَ هذا المحظور.

وبناء على ذلك إذا وَجَدْنا مع الإِنْسَان آلَةَ لَهوٍ تَصْلُح أن تُسْتَخْدَم في غَيْرِ اللَّهْو، وعَزَّرْناه بتكْسيرِها، كان ذلك سائِغًا ولا نقول: حَوِّلْها إلى آلةٍ غَيْرِ آلة اللَّهْو؛ لأنَّ إِتْلافَهَا أمامَ النَّاسِ أنكى وأَشَدُّ مِمَّا لو أُتْلِفَت بإنفاقِها في جِهَةٍ ما.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإِنْسَانَ لا بأس أن يُعَزِّرَ نَفْسَه بإتلاف مالِهِ بِنَفْسِه

لِفِعْلِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلو فَرَضْنا أنَّ الإِنْسَانَ اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ معه عن ذِكْر الله تعالى وأرادَ أَنْ يَكْسِرَه، لكان ذلك سائِغًا جائزًا؛ لأنَّ هذا يُؤَدِّي إلى ألَّا يعودَ مرَّةً أخرى إلى التَّشاغُلِ عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بِشَيْء من المال.

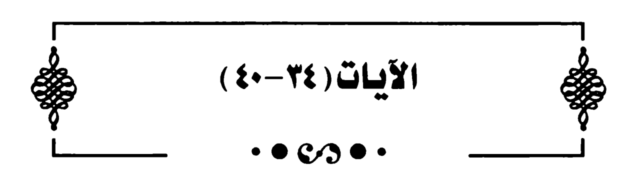
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: قُوَّةُ سُلطانِ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أَمْرِه ونَهْيِه؛ لِقَوْلِه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّه له جنودًا كثيرةً تَأْتَمِر بأمره؛ إذْ لم يَقُلْ: رُدَّها، لو قال: رُدَّها، لكان الخادِمُ واحدًا، لكن لما قال: ﴿رُدُّوهَا﴾ دلَّ على أنَّ له جُنُودًا وخَدَمًا كَثيرينَ يَخْدِمونَه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: سُرْعَةُ مُبادَرَةِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في تَنْفيذِ ما أراد من إتلافِ هذا المالِ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قد يقول قائل: أَلَيْسَ في هذا تعذيبٌ لِلْحيوانِ؛ إذا جَعَلَ يَضْرِبُ سُوقَهُ بالسَّيْفِ؟

فيقال: بلى، ولكنَّ الظَّاهِر أنَّه يَعْقِرُها أوَّلًا، ثم يَقْطَعُ عُنُقَها ثانيًا، وهذا لا بأْسَ به؛ لأنَّ الألَمَ لا يَدومُ، وإنَّما خَصَّ السُّوقَ بالضَّرْب؛ لأنَّها صافِناتٌ، والصَّافِنَة إذا رَفَعَتْ حافِرَها بعضَ الشَّيْء، صار لسُوقِها مَنْظَرٌ جَميلٌ، فهو متعلَّقُ الرَّغْبَة؛ ولهذا جَعَلَ يَضْرِب السُّوقَ، وأَمَّا الأَعناقُ فظاهِرٌ؛ من أجل إتلافِها نهائيًّا.

• • ۞ • •



الآيات (٣٤-٤٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٣٤-٤٠].

• • • •

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ هذه الجُمْلَةُ مُؤَكَّدة بِثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ؛ وهي: القَسَم المُقَدَّر، واللام المؤَكِّدَة للقَسَم، والثالث قد، في قَوْلِه: ﴿وَلَقَدْ﴾.

﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: اخْتبَرْناه، والضَّمِيرُ في ﴿فَتَنَّا﴾ يعود على الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وجاء بضَميرِ الجَمْع تعظيمًا، لا تَعْديدًا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحِدٌ، ولَكِنَّه تارةً يعبِّرُ عن نفسه بلَفْظِ الإفرادِ، وتارةً يعبِّرُ عن نَفْسِه بلَفْظِ الجَمْعِ، ولم يُبيِّنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هـذه الفِتْنَة، لا عَيْنَها ولا نَوْعَها؛ ولهَـذا يَنْبَغي لنا أن نُبْهِمَ ما أَبْهَمَه الله، ونُجْمِلَ ما أَجْمَلَه، ونَعْلَمُ أَنَّه إذا كان هنالك فائِـدَةٌ لنا في تَعْيينِ ما أَبْهَمَه لذَكَـرَه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

فكُلُّ شَيءٍ فيه مصلَحَةٌ لا بدَّ أن يبيِّنَه الله عَزَّوَجَلَّ لنا؛ ولهَذا نقول: إنَّ هذه الفِتْنَة

إذا سألَنَا سائِلٌ: ما نوعُها، وما عينُها؟

نقول: الله أعلم؛ لأنَّ الله تعالى لم يُبَيِّنْها لنا، ولم تَرِدْ في خَبَرٍ عن مَعْصومٍ، فوجب علينا أن نَسْكُت.

وأَمَّا ما ذُكِرَ في هذا المَوْضِعِ من الإِسْرائِيليَّات؛ فإنَّها إِسْرائيليَّات كاذِبَة لا تليقُ بمقامِ النُّبُوَّةِ، ولكنِ الإِسْرائِيليُّون أتوا بها لأنَّهم لا يَعْتَقِدون أنَّ داودَ وسُلَيْمان رَسُولان، بل يَعْتَقِدون أنَّهما مَلِكانِ، والمَلِكُ يَجوزُ عليه كُلُّ شيءٍ.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَتَنَّا سُلَيْمَنَ﴾: ابْتَلَيْناهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ] ثم بدأ المُفسِّر بذِكْرِ القِصَّةِ الإِسْرائِيلِيَّةِ بِسَلْبِ مُلْكِه، وذلك لتزَوُّجه بامرأةٍ هواها، وكانت تعبدُ الأَصنامَ -نسأل الله العافية- هم جعلوا داودَ وسُلَيْمانَ كَلَيْهِما عَشِيقَيْنِ، ليس لهما همٌّ إلا النِّساءُ، وداود -كما قالوا- أراد أن يتزَوَّجَ امرأةَ شَخْصٍ، وكان عنده تِسْعٌ وتِسعون امرأةً، فأراد أن يُكْمِلَ المِئَةَ.

أَمَّا سُلَيْمانُ فَيقولُ حَسَبَ القِصَّة الكاذِبَة: إنَّهُ هَوِيَ امرأةً وعَشِقَها، وكانت تعبدُ الأَصْنامَ في داره من غَيْرِ عِلْمِه، إذن صارَتِ الدَّارُ دارَ كُفْرٍ وشِرْكٍ، وهذا نَقْطَعُ بأنَّه كَذِبٌ؛ لأنَّه لو كان كذلك لبيَّنَه الله عَزَّوَجَلَّ كما بَيَّنَه في قِصَّةِ امرأَتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ.

وقال: [وكان مُلْكُه في خاتَمِه، فنَزَعَه عند إرادَةِ الخَلاء، ووضعه عند امرأته المُسَمَّاة بالأَمينَة على عادته، فجاءها جِنِّيٌّ في صُورَة سُلَيْمانَ، فأَخَذَه منها] ومِمَّا يدلُّ على كَذِبِ هذه القِصَّةِ قولُهم: (فإذا أراد دُخُول الخلاءِ نَزَعَه) لماذا يَنْزِعُه؟ واسمُ سُلَيْمان ليس فيه لفظُ الجَلالَة حتى يقول قائِلٌ: إنَّهُ تحرَّزَ من الدُّخُول بِشَيْء فيه ذِكْر الله، وأيضًا يَضَعُه عند امرأَتِه المسَمَّاة بالأمينة على عادَتِه، وهذا أيضًا يدلُّ على كَذِبِ القِصَّة.

ثانيًا: كيف يكون المُلْكُ في الخاتَم فقط؟

ثالثًا: إذا كان مُلْكُه في خاتَمِه فهل يُمْكِن أن يفرِّطَ فيه هذا التَّفْريطَ، يلقيه عند امرأة، وقد يقول قائِلٌ: إنَّها أَمينَـة، ولكن نقول: ما هو الدَّليلُ على هـذا؟ [فجاءها جِنِّيٌّ في صورة سُلَيْمانَ، فأخذه منها] فلما أخذ الخاتم، صار سُلَيْمانُ بلا مُلْك؛ لأنَّ المُلْك يَتْبع هذا الخاتَم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو ذلك الجِنِّيُّ، وهو صخر أو غَيْره، جلس على كرْسِيِّ سُلَيْمان، وعَكَفَتْ عليه الطَّيْرُ وغَيْرُها، فخرج سُلَيْمان في غير هَيْئَتِه، فرآه على كُرْسِيِّه، وقال للنَّاس: أنا سُلَيْمانُ، فأَنْكَروه]. لما جاء وجد هذا الجِنِّيَّ المسمَّى بصخرٍ أو غَيْره على الكرْسِيِّ، فجعل يقول للنَّاسِ: أنا سُلَيْمانُ، ويقولون له: لسْتَ سُلَيْمانَ؛ لأنَّ سُلَيْمان جالسٌ على كُرْسِيِّ المُلك، فأَمَّا أنت فَلَسْتَ سُلَيْمانَ. فكيف ستكون حَسْرَتُه؟ لا بدَّ أن تكون حَسْرَةً شديدة، وهذا **هو القول الأول**.

وقال بعض العُلَماء: إنَّ الله سلَّطَ شيطانًا دُونَ أَخْذِ الخاتَم وبِقَطْع النَّظَر عن كَوْنِ المُلْكِ في الخاتَم، وأنَّه أعطاه امرَأَته، وأنَّ الجِنِّيَّ جاءها، وأخذه منها، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني في غَيْبَة سُلَيْمان؛ لأنَّ سُلَيْمانَ ليس دائمًا على الكرسي، جعل يدبِّر شؤونَ الدَّوْلة، وسُلَيْمانُ لَمَّا جاء إلى مكان جلوسه وجده مشغولًا بهذا العِفْريـتِ، وعجَزَ عن إنزالِهِ عن الكُرْسِيِّ، وعن تولِّي تَدبيـرِ شُؤون الدَّوْلة، فعرف أنَّه مفتونٌ، وأنَّ الله تعالى سَلَّط عليه هذا الشَّيْطانَ لِيَخْتَبِرَه، **هذا قول بعض العُلَماء**.

وقد رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه شيطانٌ[1]، ولكنَّ ابنَ عبَّاس -كما هو مَعْلوم- كان قد أخذ عن بَني إِسْرائيلَ كثيرًا، ورُبَّما يكون هذا مِمَّا أَخَذَه.

والقولُ الثَّالِثُ: أنَّ الجَسَدَ هو شِقُّ الوَلَدِ، الذي اختبر الله تعالى به سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث قال: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلى تِسعينَ امرأَةً تَلِدُ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ غلامًا يُقاتِلُ في سبيلِ الله**». حلف أن يطوف -يعني يُجامِع تسعين امرأة- وأنَّ كُلَّ امْرأةٍ تَلِدُ غلامًا يُقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَك: قل: إن شاء الله، فلم يَقُلِ اعتمادًا على ما في نفسه من العزم على تنفيذ ما أراد، فنفَّذ ما أراد، وجامع تسعين امرأةً، ولكن ما أراده لم يتمكَّن منه، وهو أن تلِدَ كُلُّ امرأةٍ غلامًا يقاتِلُ في سبيل الله؛ لأن إرادَةَ الله هي النافِذَة، فلم تَحْمِل منهن إلا امرأةٌ واحِدَة، فولَدَت شِقَّ إِنْسَانٍ[2]؛ لأجل أن يعرف سُلَيْمانُ وغَيْره أنَّ الأَمْرَ بيد الله، وأنَّه لا يجوز أن يتألَّى أحَدٌ على ربِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول بعض المُفَسِّرين: إنَّ هذا الولد هو الجَسَد؛ لأنَّ هذا الوَلَد ليس كاملَ التَّدْبيرِ، نصفُ إِنْسَانٍ كيف يدبِّر؟ هذا هو الذي أُلْقِيَ على الكرسي ففُتِنَ به سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

القول الرابعُ: أنَّ قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني به سُلَيْمانَ نفسه؛ أي: ألقيناه هو نَفْسَه على الكرْسِيِّ جسدًا، والجَسَد هو الذي لا يدبِّرُ، وليس عنده تفكيرٌ؛ أي: إنَّ الله سَلَبَ من سُلَيْمان تفكيره الذي يدبِّر به شُؤُون مَمْلَكَتِه فصار لا يُحْسِنُ التَّدْبيرِ، ومَن لا يُحْسِنُ التَّدْبيرَ كالجَسَد بلا روح، فيكون المرادُ بالجَسَدِ سُلَيْمانَ نفسَه،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٢٠)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٨٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾، رقم (٣٤٢٤)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء (١٦٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويكون تَقْدير الكَلامِ: وألقيناه جسدًا على كُرْسيه لا يُحْسِن التَّدْبيرَ، وهذا أيضًا قريبٌ؛ أنَّ الله تعالى يسلب عن الإِنْسَان عَقْلَه وتفكيرَه حتى يكون جسدًا بلا رُوحٍ، ومن المَعْلوم أنَّ مَمْلَكَةً عَظيمَة كمَمْلَكة سُلَيْمان إذا فُقِدَ منها المدبِّرُ فسوف تَتَخَلْخَل وتَتَزَعْزَع.

فهذا أربعةُ أقوال في معنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

أَمَّا ما ذكَرَه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو باطل بلا شَكٍّ، وأَمَّا ما ذُكِرَ من أَنَّه الوَلَدُ الشِّقُّ فالظَّاهِرُ أَنَّه ضعيف، بقي عندنا قولان:

الأَوَّل: أَنَّه شيطانٌ سُلِّطَ على كرسي سُلَيْمان فبَقِيَ فيه، وصار يدبِّرُ شُؤُون مَمْلَكَتِه.

والثَّاني: أَنَّه سُلَيْمانُ نَفْسُه سَلَبَ الله منه التَّفْكير وتَدْبيرَ شُؤُون المَمْلَكة فصار لا يُحْسِنُ التَّدبير.

هذان القولان مُحْتَمَلان، أقربُهما إلى اللَّفْظِ الأَوَّل؛ أي: إنَّه شيطان أُلقِيَ على الكرسي؛ لأن جَسَدًا نكرة تقتضي أن يكون المُلْقَى غيرُ المُلْقى على كُرْسِيِّه، ولكنَّ الثَّاني أقرَبُ من حيثُ المَعْنى؛ أي: إنَّ الله تعالى إذا سَلَبَ من الإِنْسَان عَقْلَه وتفكيره وسُلْطَته فهو بمنزلة الجَسَد.

وعلى كُلِّ حال: هذه الفتنة التي حصلت لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإلْقاءِ الجَسَدِ على كرْسِيِّه، سواء أكان هو نَفْسُه أم شيطانٌ جلس على الكرسي، لا شَكَّ أَنَّها فِتْنَة عَظيمَةٌ، ولا يتصَوَّرها أحد لم تمسَّه هذه الفِتْنَة؛ لأنَّ ما نَسْمَع من المصائب والفِتَن وغيرها نسمعها على أنَّها تَمُرُّ علينا مرورًا ذهنيًّا، وليس هذا كالذي يباشِرُ المصيبَةَ والقَضِيَّةَ نَفْسَها.

وعلى كُلِّ حال: سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما وَصَل به الأَمْر إلى هذه الحال أناب إلى الله؛ لأنَّ من طَبيعَةِ الإِنْسَان إذا أُصيبَ بِمُصيبةٍ أن يحاسِبَ نفسه، أَمَّا قبل أن يُصابَ فقد يَغْفُل، لكن إذا أُصيبَ صار يحاسِبُ نَفْسَه، ورجع إلى الله، حتى المُشْرِكون إذا رَكِبوا في الفُلْك، وأصابتهم الأمواجُ التي يضرب بعضُها بعضًا، يَلْجَؤُون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يَدْعُونَه مُخْلصينَ له الدِّينَ أن يُنَجِّيَهم.

فمن طبيعة الإِنْسَانِ أن يعود إلى القُوَّةِ التي يُمْكِنها أن تَدْفَع عنه المصيبةَ التي نزلت به، إلا من خرَجَ عن هذه الطَّبيعة، وقد يخرج عن هذه الطبيعة ناسٌ كثيرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المُؤمنون:٧٦] فقد يخرج بعضُ النَّاس عن هـذه الطَّبيعَة الفِطْـرِيَّة، فتُصِيبُه المصائـبُ والنَّكَباتُ والعَذَاب، ولكنَّ قَلْبَه يكون قاسيًا لا يتأَثَّر. نسأل الله العافِيَةَ.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع سُلَيْمانُ إلى مُلْكِه بعـد أيامٍ، بأن وصل إلى الخاتَم فلَبِسَه، وجلس على كُرْسِيِّه] هـذا من أبعَدِ ما يكون في التَّحْريـف لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، والمتعيَّنُ أنَّ المَعْنى: أناب إلى الله؛ أي: إنَّه عَرَفَ أنَّ هذا الذي نزل به لِأَمْرٍ صدر منه، فرجع إلى الله وأناب إليه، وأَحْسَنَ التَّوْبَة، وأَصْلَحَ العَمَل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ بدأ بِطَلَبِ المغْفِرَة قبل طَلَبِ المُلك العظيم، الذي لا يَنْبَغي لأَحَدٍ من بعده؛ وذلك لأنَّ زوالَ أَثَرِ الذُّنُوب هـو الذي يَحْصُل به المقصـودُ، فالذُّنوبُ في الحَقيقَة تَتَـراكَمُ على القَلْبِ، وتَمْنَعُه من كثيرٍ من المصالِح، فيسأل الإِنْسَانُ التَّخَلُّص من آثار هذه الذُّنوبِ، قبل أن يَسْأَلَ ما يُريدُ.

والمَغْفِرَة مأخوذةٌ من المِغْفَر، وهو الذي يُوضَع على الرَّأْس، لاتِّقاءِ السِّهامِ في

حالِ القتال، وهو شيءٌ من حَديدٍ يُلْبَس تحت البَيْضَة؛ أي: الخوذة، فهو يَقي الرَّأْس، وفي نفس الوقت يَسْتُرُه.

ولِهَذا نقول: إن مَغْفِرَة الذُّنوب سِتْرُها عن الخَلْق، مع التَّجاوُز عن عُقُوبَتِها؛ أي: إنَّ المَغْفِرَة جامعة لمَعْنَيَينِ هما: السِّتْر والتَّجَاوُز عن الذَّنْب؛ أي: إنَّ الله تعالى لا يُعاقِب عليه.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ يعني: أَعْطِني مُلْكًا لا يَنْبَغي لأَحَدٍ من بعدي؛ أي: لا يَصْلُح أن يكون لأَحَدٍ من بعدي؛ يعني مُلكًا عظيمًا، لا يفكِّر فيه أحدٌ من بعدي، فغفر الله له واستجاب له.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: سِوَاي؛ نحو: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣] أي: سِوَى الله]، وليس المرادُ من بعدي زَمَنًا، بل لا يَنْبَغي لأحَدٍ في زمني أو زَمَنٍ بعدَ زَمَني، ولكن المراد بـ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾: سواي، واسْتَشْهَد لذلك بِقَوْلِه: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ ومَعْلومٌ أنَّه لا أحد بَعْدَ الله، فالله هو الآخِرُ الذي ليس بَعْدَه شَيْءٌ، ولكن ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سِوَى الله.

والقول الثَّاني: أنَّ المرادَ ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: مُلْكًا لا يَغْلِبُه عليه أحَدٌ، ويؤَيِّد القوْلَ الأَوَّلَ قَوْلُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين تفلَّتَ عليه عِفْريتٌ وهو يُصَلِّي، وأراد أن يُمْسِكَه وأن يَرْبطَه بسارِيَةِ المَسْجد ليلْعَبَ به صِبيانُ أَهْلِ المدينة، وقال: «**لَوْلَا أَنِّي ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمانَ: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ لَفَعَلْتُ**»[1]، وهذا يدلُّ على المراد ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ زَمنًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في سارية المسجد، رقم (٤٦١)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، رقم (٥٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمرجَّحُ أنَّ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سأل مُلكًا عظيمًا لا يكون لأَحَدٍ مِن بَعْدِه، وبناء عليه، فإنَّهُ يَحْصُل الإشْكالُ: لماذا تحجَّر هذا المُلْكَ؟ قد نقول: إنَّ القَوْلَ الثَّاني أَصَحُّ، وإنَّ النَّبي ﷺ ترك ذلك تورُّعًا؛ لأَنَّه خاف أن يكون مرادُ سُلَيْمان زَمنًا، فتَرَكَ هذا من باب التورُّع، ولكِنَّ هذا الجَوَابَ فيه أيضًا بعضُ الشَّيْء؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ إذا فَسَّرَ الآيَة بِشَيْء أو أتى بِشَيْءٍ يَقْتَضِي تَفْسيرَها على وجه ما، فإنَّهُ لا شَكَّ أَوْلى من الاحْتِمالِ الآخَرِ، وأن يكون المرادُ ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: مَن سِواي، والله أعلم.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾: هذه جُمْلَة تَعَلُّقُها بما قبلها أنَّها من باب التَّوَسُّل؛ لَمَّا سأل اللهَ مُلكًا توسَّلَ إلى الله بالاسْمِ الذي يُناسِبُ ما دعا به: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾: ﴿أَنتَ﴾ يسمِّيها العُلَماء ضَميرَ الفَصْلِ، وتفيد ثلاثةَ أشياءَ: التَّوكيد، والحَصْر، والتَّمْييز أو الفَصْل بين الصِّفَة والخَبَر.

وقوله: ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: صيغة مُبالَغَة؛ وذلك لكَثْرَة هِبات الله، وكثرة من يَهَبُه الله، كُلُّ ما في الخَلْق من نعْمَة فهو من هباتِ الله، وما أكثَرَ النِّعَم على الإِنْسَان، وما أَكْثَرَ من أَنْعَمَ الله عليه؛ ولِهَذا جاءت صورة المبالَغَة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ الفاء: للسَّبَبِيَّة مِنْ وَجْه، وللتَّعْقيبِ من وَجْهٍ آخر؛ أي: بِسَبَبِ دُعائِه، وفَوْر دعائه ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ يعني: ذَلَّلْناها له، والرِّيح: الهواءُ.

يقول الله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾: تجري أي: تَسيرُ، ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: على وَفْقِ أَمْرِه. ﴿رُخَآءً﴾ أي: لَيِّنَةً في سَيْرِها وهُبوبِها، لَيِّنَةً في طاعَتِها؛ لا تستعصي، مثلًا: إذا كانت الريح جنوبًا وَهُو يريد أن يَذْهَب إلى الجنوب يَأْمُرُها أن تَهُبَّ شَمالًا، فتَهُبُّ شَمالًا، فتَحْمِلُه حيث أراد.

قد يقول قائل: كيف يَتِمُّ الجَمْعُ بين قوله: ﴿رُخَآءً﴾ وبَيْنَ قوله في آيات أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]؟

والجَوَاب: أنَّ الجَمْعَ بينهما سَهْلٌ، فهي رُخاء؛ أي: ليس فيها زَعْزَعَةٌ، وهي عاصِفَة؛ أي: سريعَةٌ؛ لِأَنَّ غُدُوَّها شَهْرٌ ورَوَاحَها شهر، يعني تَمْشِي في الصَّبَاح، ولا يأتي زَوالُ الشَّمْس إلا وقد قَطَعَتْ مَسافَةَ شَهْرٍ، وبعد الزَّوَالِ تَمْشِي ولا يأتي الغُروبُ، إلا وقد قَطَعَتْ مَسافَةَ شَهْرٍ، قال أَهْل العِلْمِ: إنَّهُ يضع على الأَرْضِ شيئًا كالبِساطِ، ويَجْلِس هو وحاشِيَتُه على البِساطِ ثم يَأْمُر الرِّيحَ فَتَحْمِلُه فيَطيرُ بين السَّماء والأَرْض، ومع ذلك هي رُخاءٌ، وكان المُتَبادِر إلى الذِّهْن أنَّ مِثْلَ هذا الطَّيَران يُزعِجُ الرَّاكبينَ على هذا البِساطِ، ولكنَّ الله تعالى جعلها رُخاءً لَيِّنَة، حتَّى كأَنَّهُم لا يَطيرونَ، وليس فيها إزعاج، وهذا من آياتِ الله.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حَيْثُ أراد؛ أي: الجِهَة التي يُريدُ، وهذا لم يَحْصُل لرسولٍ غَيْره فيما نَعْلَم، ولا لِمَلِكٍ من الملوك يأْمُر الرِّيحَ فَتَسيرُ به حيثُ أراد.

ثم قال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعني سخَّرنا له الشَّياطينَ، والشَّياطينُ جَمْعُ شَيْطانٍ، وهُم عفاريتُ الجِنِّ، سخَّرَ له ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، يبني الأَبْنِيَة العَجيبَة، ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ في البَحْر يَسْتَخْرِج اللُّؤْلؤ.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: مَشْدودينَ في الأَصْفادِ، وهي القيود، بِجَمع أيديهِم إلى أَعناقِهِم، سخَّر الله له الشَّياطينَ؛ أي: ذَلَّلَهُم له؛ يُطيعونَه، ويُنَفِّذونَ أَوامِرَه، وقد صَنَّفَهُم ورَتَّبَهم حسب قُدْراتِهِم واخْتِصاصاتِهِم، منهم من يَبْني له

البِناءَ الشَّامِخَ العجيب، و﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ:١٣].

والقِسْمُ الآخر: ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يَغوصون في البِحارِ، يأتون له بأَنْواع اللُّؤْلُؤ والمَرْجانِ والدُّرَر وغَيْرِها، يأتون بكلِّ ما يُريدُ.

وفيهم قَوْمٌ مَرَدَةٌ من الشَّياطِينِ يُؤْذونَ النَّاس، ورُبَّما يَتَمَرَّدون عليه ويَعْصونَه، هؤلاء يَقرِنُهم في الأصفاد، ويَشُدُّ أيديَهم إلى أعناقِهم، ويَحْبِسُهم في الأصفادِ.

وقد يقول قائل: هل هذا من التَّسْخيرِ؟

نقول: نعم، هذا من التَّسْخير؛ أنَّ الله تعالى جعل له سُلْطَةً عليهم، فالله تعالى جَعَلَهم يَعْصونَه ويَتَمَرَّدون عليه، ويُؤْذونَ مَن في مَمْلَكَتِه من أجل أن يُنْزِل بهم هذا العَذَابَ؛ حتى يتبيَّنَ بذلك كمالَ سُلْطانِهِ على هؤلاء الشَّياطينِ؛ لأنَّه لا يُعْرَفُ تَمامُ السُّلطانِ إلا بإِنْزالِ العُقُوباتِ على المُتَمَرِّدينَ.

أَمَّا إذا كان السُّلْطانُ يُداهِنُ المُتَمَرِّدينَ، فإنَّ هذا يدلُّ على ضَعْفِ السُّلطانِ، وأنَّه ليس عِنْدَه قُدْرَةٌ على تَدْبيرِ مَمْلَكَتِه، وجعل الله تعالى هؤلاء يَتَمَرَّدونَ على سُلَيْمان، أو يُؤْذونَ مَنْ في مَمْلَكَتِه؛ لأَجْل أن يُنْزِل بهم بَطْشَه، ويُعْرَف أنَّه قَوِيٌّ، وذو سُلْطَةٍ وسَيْطَرَةٍ على هؤلاء الجِنِّ.

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: ﴿هَٰذَا﴾ المُشَار إليه ما سخَّره الله له من الرِّيح والسُّلْطَة على الشَّياطينِ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ ﴾ أَعْطِ منه مَن شِئْتَ، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العَطاءِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حِسابَ عَلَيْكَ في ذلك].

أعطاه الله تعالى هذا المُلْك، وقال له: أنت بالخيار، امْنُنْ على من شِئْتَ، وأَمْسِكِ المِنَّةَ عمَّن شِئْتَ، لا حساب عليك في ذلك. وهذا من التَّخْيِيرِ المُطْلَقِ في التَّصَرُّف.

وقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ لَمَّا ذكر الله ما مَنَّ على سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الدُّنْيا؛ ذكر ما منَّ عليه في الآخِـرَةِ، وهو أنَّ له عِنْد الله مَرْتَبَةً عالِيَةً في الآخِـرَة، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قريبة من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حُسْنَ مَرْجِع؛ لأنَّ مَرْجِعَه إلى الجَنَّة، التي فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سَمِعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ ذكرنا فيمـا سبق أنَّ العِنْدِيَّة المُضافَـة إلى الله تَنْقَسِـم إلى قِسْمَيْنِ: عِنْدِيَّةُ علمٍ (عِنْدِيَّة الصِّفَة)، وعِنْدِيَّة قُرْب، كما في هذه الآيَة؛ أَمَّا عِنْدِيَّة العِلْم (عِنْدِيَّة الصِّفَة) كما في قَوْلِه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] فإنَّ هذه عِنْدِيَّة عِلْم (عِنْدِيَّة صِفَة).

أَمَّا عِنْدِيَّة القرب فتكون مُنْفَصِلَة عن الله، يكون الشَّيْء عند الله؛ أي: قريبٌ منه، وقوله: ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الزُّلْفَى؛ أي: القُرْبَى؛ لأنَّ أعلى مراتـب الخَلْقِ هي مراتِبُ الأَنْبِيَاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

من فوائد الآيات الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله قد يَخْتَبِـر عباده المُصْطَفَيْـنَ عنده بما يشاء من اخْتِبار، ويَنْبَغي أن نُبْهِمَ ما أَبْهَم الله تعالى، وأَلَّا نَبْحَثَ عنه ونتكَلَّفَ ذلك؛ كما يفعل بعض النَّاس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُرْسِيًّا يجلس عليه كما يجلس الملوك؛ لأنَّ الله جَمَعَ له بين النُّبُوَّة والمُلْك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإِنْسَان قد يُسْلَب بعضَ النِّعم؛ إمَّا جزاءً على عَمَلٍ عَمِلَه، واسْتَحَقَّ عليه أن يُسلَب بعضَ النِّعَم، وإمَّا من أجل أن يَتَرَقَّى إلى درجة الصَّابِرينَ؛ لأنَّ الصَّبْرَ دَرَجَةٌ عالية لا تُنالُ إلا بأَسْبابِها.

والصَّبْر ثلاثة أقسام:

١- صَبْر على طاعَةِ اللهِ.

٢- وصَبْرٌ عن مَعْصِيَته.

٣- وصَبْرٌ على أَقْدارِه.

أَمَّا الصَّبْرُ على طاعة الله، وعن المعصية، فهو باختيارِ الإِنْسَان، وأَمَّا الصَّبْر على أَقْدارِ الله، فالأقدار بِغَيْرِ اخْتيارِه، فقد يبتلي اللهُ العَبْدَ بأقدار تحتاجُ إلى صَبْر ومُصابَرَةٍ؛ من أجل أن يَسْتَكْمِلَ مَراتِبَ الصَّبْر؛ ومنه إلقاءُ الجَسَدِ على كُرْسِيِّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الأَنْبِيَاء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا بدَّ أن يَرْجِعوا إلى الله ويَنْتَبِهوا، وهذا مُسْتَفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ بخلاف غَيْرِهِم، فإنَّهُم قد يُبْتَلَوْنَ بالذُّنُوب، ولا يرجعون عنها، وهذا هو الفَرْقُ بين الأَنْبِيَاء وغَيْرِهِم: أنَّ الأَنْبِيَاءَ مَعْصومون عن الاسْتِمْرارِ في المعاصي، أَمَّا غَيْرُهُم، فلا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ مَسْلُوبَ التَّصَرُّفِ والسُّلطَةِ كأَنَّه جسدٌ بلا رُوح؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، وهذا على أحد الأقوال الأَرْبَعة التي ذكرناها.

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الأَنْبِيَاء عليهم الصَّلاة والسَّلام مَعْنِيُّونَ أكثَرَ بأُمُور الآخِرَة؛ ولِهَذا طَلَبَ من الله المَغْفِرَة قبل أن يَطْلُب المُلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عليهم الصَّلاة والسَّلام مُحتاجونَ إلى مَغْفِـرَةِ الله؛ لِقَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُم مَرْبوبونَ، وليسوا أَرْبابًا؛ لِقَوْلِه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ الذُّنُـوب على الأَنْبِيَاء عليهم الصَّلاة والسَّـلام، وهذا مُسْتَفَادٌ من قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، وذلك أَنَّه لو لم يكُنْ أَذْنَبَ لَمَا اسْتَغْفَرَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ طَلَبِ الإِنْسَان المُلْكَ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، ولكن يُشْتَرَطُ في ذلك أن يكون لدى الإِنْسَان اسْتِعْدادٌ للقيام بها سأل، أَمَّا أن يقول: رَبِّ هَبْ لي مُلْكًا، وبِنِيَّتِه أن يضيِّعه؛ فإن هذا لا يَجُوزُ.

وقد اختلف أَهْلُ العِلْمِ في جَوازِ سُؤالِ الإمارَةِ؛ هل يجوز للإِنْسَانِ أن يَسْأَلَ الإِمارَةَ أو القَضاءَ أو ما أَشْبَهَهُما من الولايات؟

منهم من قال: إن ذلك جائِزٌ، ومنهم من قال: إِنَّهُ محرَّم، ومنهم من فصَّل.

أَمَّا من قال: إِنَّهُ جائِـزٌ، فاستدلوا بِقِصَّةِ يُوسُـفَ؛ حيث قال لِمَلِك مصـر: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] فسأل الوِلايَةَ، وشَـرْعُ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا، ما لم يَرِدْ في شَرْعِنا ما يُخالِفُه.

كما استدلوا بحديثِ عُثمانَ بْنِ أبي العاصِ حين قال للنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْني إمامَ

قومي. قال: «**أَنْتَ إِمَامُهُمْ**»[١].

أَمَّا من مَنَعَ ذلك فاستدَلَّ بحديث عبدِ الرَّحْمنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «**لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»[٢].

فنهاه النَّبي ﷺ أن يَسْأَلَ الإمارَةَ، وبيَّنَ له السَّبَبَ؛ أنَّ من أُعْطِيَها عن مسألةٍ وُكِلَ إليها، ولم يُعِنْهُ الله، ومن أَتَتْهُ من دون مَسْأَلَةٍ أعانه الله عليها.

واستدلوا أيضًا بأنَّ رَجُلًا طلب من الرَّسُولِ ﷺ أن يكون عامِلًا، فقال: «**إِنَّا لَا نُوَلِّي هَذَا الْأَمْرَ أَحَدًا سَأَلَهُ**»[٣]. وهذا يدلُّ على أنَّه لا يَسْأل، وأنَّ من سأل، فليس أَهْلًا لأَنْ يُوَلَّى.

وفصَّل آخرون، فقالوا: إنْ سَأَلَهَا لِإِصْلاحِ ما فَسَدَ منها، فإنَّ ذلك جائِزٌ، إذا علم من نَفْسِه القُدْرَةَ، وإلا فلا يَجوزُ؛ لأنَّ السَّلامَةَ للإِنْسَان أَسْلَمُ.

وهذا القولُ التَّفْصيليُّ هو الصَّحيح؛ لأن به تَجْتَمِعُ الأَدِلَّة، فإنَّ الإِنْسَان، مثلًا، إذا رأى ولايةً قام عليها شَخْصٌ ليس أَهْلًا لها، إمَّا في دِينِه، أو أمانَتِه وتَصَرُّفِه، وهو يعلمُ من نَفْسِه القُدْرَة على القيام بها على أَحْسَنِ حال، أو على الأَقَلِّ بِوَجْهٍ أَحْسَنَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب أخذ الأجرة على التأذين، رقم (٥٣١)، والنسائي: كتاب الأذان، باب اتخاذ المؤذن الذي لا يأخذ على أذانه أجرًا، رقم (٦٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَنِكُمْ﴾، رقم (٦٦٢٢)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا..، رقم (١٦٥٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، رقم (٧١٤٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، رقم (١٧٣٣/ ١٤)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِمَّا كانت عليه، فلا بأس أن يَسْأَلَها؛ لأنَّ غَرَضَه بذلك غَرَضٌ عَمَلِيٌّ وإصلاحيٌّ، وليس غَرَضُه شخصِيًّا.

أَمَّا إذا لم يكن هنالِكَ سببٌ، أو يعرف الإِنْسَانُ من نَفْسِه أَنَّه ضعيف لا يستطيع القيامَ بها، فلا يسأل، ولا يجوز أن يَسْأَل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الثَّناءُ على الله تعالى بأَنَّه وهَّابٌ يُعطي العَطَاء الكَثيرَ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التوسُّلُ إلى الله تعالى بالاسْمِ المناسِبِ لما يدعو به؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يناسب قوله: ﴿وَهَبْ لِى﴾ وهذا هو أحد معاني قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فإن أَحَدَ مَعانيها أن تَجْعَلَها وسيلةً لما تدعو به، فإن أَرَدْتَ أن تسأَلَ المَغْفِرَة تقول: يا غفورُ، أو الرَّحْمَةَ فتقول: يا رحيمُ... وهكذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وكمال سُلْطَانه؛ حيث سخَّر الريح وذلَّلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُمُومُ سُلْطَانِ الله عَزَّوَجَلَّ على الجماد والحَيِّ وغير ذلك؛ لأَنَّه أَمَرَ الريحَ، وهي جماد، فامْتَثَلَت.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى قد يسخِّر شيئًا من الكَوْن لعبدٍ من عباده، كما سخَّر الريحَ لسُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّهُ من الجائزِ أن يسخِّرها لغَيْره، إذا دُعي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الرِّياحَ لها شعور واختيار؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ لأَنَّه إذا كان يأْمُرُها وتَشْعُر بالأَمْر، ثم تَمْتَثِل، فهو دليلٌ أنَّ لها شعورًا ولها إرادةً.

وهكذا كُلُّ شيء في الكون له شعور، وله إرادَةٌ، بحسب ما يليق به؛ لقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤] ولا تَسْبيحَ إلا بإرادَةٍ، ولا تَسْبيحَ إلا بِشُعورٍ بِعَظَمِةِ المسَبَّحِ.

ومن هنا نردُّ على من قالـوا: إنَّ المراد بِقَـوْلِه تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] أنَّه مجازٌ؛ لأَنَّنا نقول لهم: ما الذي يَمْنَعُ من إَرادَةِ الجدارِ؟ هو له إرادَةٌ، ولكن ليسـت كإرادَةِ البَشَر، أو إرادَةِ الحَيَوان المُتَحرِّك الذي يتحَرَّك بإرادَةٍ، لكن الجدارَ له إرادَةٌ وهو ساكِنٌ لا يتحَرَّكُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذه الريحَ المسخَّرة تجري بسُهُولَةٍ ولِينٍ، وليس بِعَصْفٍ مُقْلِقٍ، كما هي عادةُ الرِّياحِ، إنَّما هي رُخاءٌ ولَيِّنَةٌ سَهْلَة، كأنَّهم على سَطْحٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ من ترك شيئًا لله، عوَّضه الله شيئًا خيرًا منه؛ لأنَّ كثيرًا من المُفَسِّرين جعلوا تَسْخيرَ الرِّيحِ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، تَنْقِلُه حيث يشاء، عوضًا عن الخَيْل التي أَتْلَفَها غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ، حينما أَلْهَتْهُ عن ذكر الله.

وهذا قد يكون حَقيقَةً؛ أنَّ هذا الذي أعطاه الله تعالى من تَسْخيرِ الرِّيح، كان جزاءً له على فِعْلِه بالخَيْلِ، ولا شَكَّ أنَّ من تَرَكَ شيئًا لله، عَوَّضَه الله خيرًا منه، وهذا يقع كثيرًا في مسائِلَ عَديدَةٍ. وإن أَرَدْتَ أن تطبِّق هذا على نَفْسِكَ، فجَرِّبْ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هـذه الرِّيحَ تَتَّجِهُ حيـث أراد سُلَيْمـانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولو كانت في الأَصْل على وجهٍ آخـر؛ بِمَعْنى أنَّه إذا كانت الرِّيحُ جَنوبِيَّةً، وأراد أن يَذْهَبَ بها إلى الجَنوبِ، فإنَّهُ يَأْمُرُها أن تكون شَمالِيَّة؛ لَتَحْمِلَه إلى الجَنوبِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ ما بَسَطَ الله لسُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من السُلْطَانِ؛ حيث كانت الشَّياطين المؤْذِيَة لبني آدم مسخَّرَةً له على هذا الوَجْهِ العظيم، وعلى هذا التَّقْسيمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حُسْنُ تَدْبيرِ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث وزَّعَ هذا الجُنْدَ من الشَّياطينِ حَسَب ما يليقُ بهم؛ فمِنْهم البنَّاءُ، ومنهم الغوَّاصُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جوازُ تَفْخيمِ الأَبْنِيَة وتَكْثيرِهَا، والبِناءُ الذي تَبْنيه الشَّياطينُ لا بدَّ أن يكون فَخْمًا مُحْكَمًا، ولكن هل يقال: إن هذا كان في شَريعَةِ سُلَيْمان؟ لأنَّه مَلِكٌ يحتاجُ إلى أبَّهَةٍ وعظَمة، وإظهارِ قُوَّةٍ، وإظهارِ غِنًى، وإظهارِ سُلْطَة، أم أنَّها عامَّة؟

أَمَّا أنَّها عامَّة للنَّاس فلا؛ ولهَذا جاءت شَريعَتُنا بِذَمِّ من يَجْعَل مالَه في البِناءِ، ورُبَّما يُقال: إنَّهُ يُفرَّقُ بين المَلِكِ السُلْطَان وبين غَيْره؛ لأن إظهارَ المَلِك السُلْطَانِ نَفْسَه بِمَظْهَرِ العظمة أمام أَعْدائِه؛ لا شَكَّ أنَّ ذلك أمرٌ مَطْلوبٌ.

ويُذكر أنَّ مُعاوِيَةَ بْنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أميرًا على الشَّامِ، في إمارة عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مُعاوِيَة إذا أتى الإِنْسَانُ إليه يجد حُجَّابًا وحُرَّاسًا وشيئًا من الأُبَّهَة، وإذا جاء إلى الخَليفَةِ الذي فوقه، يَجِدُ أمرًا بخلافِ ذلك؛ يَجِدُ رداءً مُرَقَّعًا، وشَخْصًا ينام في المَسْجِد، يُكوِّمُ كُتْلَةً من الرِّمالِ والحَصْباءِ ويَتَوَسَّدُها وليس بين يَدَيْه حاجِبٌ، ولا حوله جنودٌ، فيتَعَجَّبُ كيف أميرُ هذا الرَّجُل بهذه الأُبَّهَة؟ وهذا الخليفةُ الذي فوقه بهذا التَّواضُعِ؟!

أجاب العُلَماءُ عن ذلك بأنَّ معاويَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في بلاد الشَّامِ، وكانوا لا يَخْضَعونَ لأُمَرَائِهِم وسَلاطينِهِم إلا إذا كانوا أمامَهُم على وجهٍ فيه أُبَّهَة وعَظَمَة، فرأى معاويَةُ أنَّه من المناسِبِ للحال أن يكوِّن نَفْسَه هذا التَّكْوينَ، وليس قَصْدُه

أن يتعاظَمَ[١].

والدَّليلُ على هذا أنَّه لما أتاه كتابُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأظنُّه في كِسْرَةِ عَظْمٍ، في قِصَّةِ اليهودي الذي أدخَلَ مُعاوِيَةُ بَيْتَهُ في بيتِ المال، بعد أن أُعْطِيَ عنه عِوَضًا كثيرًا؛ فرأى أنَّ ذلك ظُلْمٌ، فرَكِبَ إلى عُمَرَ في المدينة يشكو مُعاوِيَةَ، يقول: إنَّ مُعاوِيَة غَصَبَني، وأَخَذَ بيتي، وأدخله في بَيْتِ المال، فكتب عُمَرُ إلى مُعاوِيَة يأمره بأن يَرُدَّ عليه بَيْتَه، فلمَّا جاءه الكتاب، أخذه مُعاوِيَةُ ووَضَعَه على رَأْسِه تعظيمًا للكِتابِ، وقال لليهودي: الآن افْعَلْ ما تشاء؛ تُريدُ أن نُعيدَ إليك بَيْتَكَ ونَبْنِيَه بأَحْسَنِ ما تريد، أو تأْخُذَ القِيمَةَ؟

فلما رأى هذا الأَمْر انْبَهَرَ؛ كيف أنَّ مُعاوِيَة يفعل في كتابِ عُمَرَ هذا الفِعْلَ، فشَهِدَ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وقال: بَيْتِي لِبَيْتِ مالِ المسلمين؛ لَمَّا رأى العدل انْبَهَر وأَسْلَم.

ونقول: قد يكون سُلَيْمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أراد بهذا العَمَلِ أن يُظْهِر قُوَّة سُلْطَانِه وعَظَمَتَه أمام أعدائه، وأن يُفْصَلَ بين ما يكون فيه غرضٌ مقصودٌ وبين ما ليس فيه غَرَضٌ، والإِنْسَان بشكْلٍ عامٍّ لا يُشْرَعُ له أن يُذْهِبَ مالَه ببناء القُصورِ وتَفْخيمِها، أَمَّا ذو السُّلْطة الذي يريد أن يُظهر سُلْطَتَه ليكون مَهِيبًا أمامَ النَّاسِ حتى يَتِمَّ له الأَمْر؛ فلا حَرَجَ عليه في هذا.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كمالُ مُلْكِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسُلْطَانِهِ وتَنْظِيمِهِ لعَمَلِه وعمَّالِه؛

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٣).

حيث جعل لِكُلِّ طائِفَةٍ ما يَخْتَصُّ بها من العَمَلِ؛ فمنهم البنَّاء، ومنهم الغَوَّاص، ومن تَمامِ سُلْطَانِه أنَّ العاصِيَ منهم والمُتَمَرِّد قد صَفَّدَه وقَرَنَه؛ مِمَّا يدلُّ على عقوبة هؤلاء المخالِفينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جوازُ التَّعْزيرِ بِمِثْلِ هذا العَمَلِ؛ أي: بالشَّدِّ والغَلِّ؛ وذلك لأنَّ التَّعْزيرَ لا يَختصُّ بعقوبةٍ مُعَيَّنَـة؛ لأنَّ المقصـودَ به الإصلاحُ؛ فأيُّ عُقوبَـةٍ كان بها الإصلاحُ، فهي الواجِبَة.

وقد يكون التَّعْزيرُ بالضَّرْب وبالحَبْس وبالحِرْمان من بَعْض الحقوقِ، وبالتَّغْريمِ المالِيِّ، وبالتَّوْبيـخِ أمام النَّاس، والتَّعْزيرُ يُقصَـدُ به الإصلاحُ؛ فأيُّ طريق يُقصَـد به الإصلاحُ كان به التَّعْزيرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى أباح لسُلَيْمانَ العطاءَ والإِمْساكَ كما يشاء بدونِ أن يُحاسِبَه على اختياره، ولكِنَّا نَعْلَمُ أنَّ سُلَيْمانَ لن يَتَجَرَّأَ على الإعطاءِ في مَعْصِيَةِ الله، ولا الإِمْساكِ عما أَوْجَبَ الله؛ لأَنَّه نبيٌّ من الأَنْبِيَاءِ لا يُقَرُّ على خطأٍ، وتكون الإباحَةُ له هنا في الأشياء التي يُباحُ له فِعْلُها أو تَرْكُها، ويكون هذا من بابِ التَّوْسِعَة الصَّرِيحَةِ له أن يُمْسِكَ أو يُعْطِيَ.

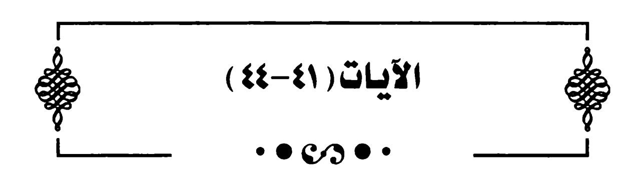
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله لَمَّا ذَكَرَ بأَنَّه أنعم عليه في هـذه الدُّنْيا، وكان الواهِمُ قد يَتَوَهَّم أنَّ ذلك يَنْقُصُ من ثَوابِهِ يَوْم القيامة؛ بيَّن أن ثوابَهُ في الآخِرَة لا يَنْقُصُ بهـذا العطاءِ له في الدُّنْيا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّاسَ يَختلفونَ في القُـرْبِ من الله تعالى؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وأَقْرَبُهم من الله جِوارًا يَوْمَ القيامة أَقْرَبُهُم من عبادَتِه في الدُّنْيا؛

فكُلَّما كان الإِنْسَانُ في الدُّنْيا أَقْوَمَ بطاعة الله، وأقرب إلى الله؛ كان في الآخِرَة كذلك؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العَمَل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَنْظُرَ إلى مآبِهِ ومآلِهِ، هل هو حَسَنٌ أو سَيِّئٌ؛ حتى إذا كان سَيِّئًا سعى في إصلاحِهِ، وإن كان حَسَنًا حَمِدَ الله وازدادَ من فضْلِه.

• ● ❁ ● •



الآيات (٤١-٤٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤١-٤٤].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ الخِطابُ لرسولِ الله ﷺ، ويجوز أن يكون موجَّهًا لِكُلِّ من يتأتَّى خِطابُهُ من البَشَر، وقوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ ﴾ أعاد الفِعْلَ ﴿ وَٱذْكُرْ ﴾ مع أنَّه في قِصَّةِ سُلَيْمانَ لم يُعِدْه، بل قال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ ولم يَقُلْ: (اذْكُر).

قال بعض العُلَماء: لأنَّ سُلَيْمانَ ابْنُ داوُدَ فقِصَّتُهُما متقارِبَة، وكأنَّما هي قصَّةُ نَبِيٍّ واحد، أَمَّا أَيُّوبُ فهو منفَصِلٌ عنهما.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ والمرادُ بالعَبْدِ هنا المتذَلِّل لطاعَةِ الله، وهذه العُبودِيَّةُ من عُبودِيَّة أَخصِّ الخاصَّة؛ لأنَّها عُبودِيَّة الرِّسالَةِ.

وقوله: ﴿أَيُّوبَ ﴾: عَطْفُ بيانٍ أو بَدَلٌ من ﴿عَبْدَنَآ ﴾.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾: ﴿إِذْ ﴾ مُتَعَلِّقَة بـ﴿ وَٱذْكُرْ﴾ ويجوز أن تتعلَّقَ بمَحْذوفٍ حالًا من عَبْدٍ، يعني في حال نداءِ رَبِّه، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي: دعاه بصوتْ مُرْتَفِع؛ لأنَّ النداء

يكون بالصَّوْت المرْتَفِع، والمناجاةُ تكون بالصَّوتِ المُنْخَفِض، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢].

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [أي: بأَنِّي ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾] قدَّر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباءَ هنا لأنَّ هَمْزَةَ (أنَّ) مَفْتوحَة، والقاعِدَة: أنَّ هَمْزَةَ (أنَّ) تكون مكْسورَةً إذا جاءت بعد القَوْل، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠] ولَكِنَّها هنا مفتوحَةٌ، فقَدَّر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباء؛ لأنَّه إذا قَدَّرْنا الباء صارت تُسبَك هي وما بعدها بمَصْدَرٍ، وإذا سُبِكَت (أنَّ) وما بعدها بمَصْدَرٍ صارت مفتوحَةَ الهَمْزَةَ؛ كما قال ابن مالك[1]:

وَهَمْزَ إِنَّ افْتَحْ لِسَدِّ مَصْدَرِ ... مَسَدَّهَا وَفِي سِوَى ذَاكَ اكْسِرِ

و﴿مَسَّنِيَ﴾ يعني أصابَنِي، و﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هو شَيطانُ الجِنِّ.

وكان الشَّيْطانُ قد آذاه، ولكن هل هو إيذاءٌ نَفْسِيٌّ بأنْ أَلْقَى في قلبه الوَساوِسَ التي أَنْهَكَتْ بَدَنَه، أو أنَّه إيذاءٌ حِسِّيٌّ كما قال بَعْضُهُم: إنَّ الشَّيطانَ نفَثَ في جَسَدِه، حتى أصبح جَسَدُه كُلُّه جُدَرِيٌّ؛ يعني حبوبًا ضارَّة، فالله أعلم؛ يُحْتَمَل هذا وهذا.

قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ النُّصْبُ يعني الضَّرَر، والعَذَاب يعني الألَم.

قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَنَسَبَ ذلك إلى الشَّيْطانِ، وإن كانَتِ الأَشْياءُ كُلُّها مِنَ الله تعالى؛ تأَدُّبًا معه تعالى] نَسَبَ ذلك إلى الشَّيْطان؛ لأَنَّه السَّبَبُ، وإلا فالأَمْرُ كُلُّه بِقَدَرِ الله، والله تعالى بِحِكْمَتِه سلَّطَ عليه الشَّيْطان، ولكنَّ تَسَلُّطَه كان بِقَضاء الله وقَدَرِه.

---

(١) الألفية (ص:٢١).

وأقول: نَسَبَه إلى الشَّيْطان؛ لأنَّه هو المباشِرُ للعِلَّة، وهو سَبَبٌ لا شكَّ، ولَكِنَّه سببٌ مباشِر، وفي الحَقيقَة أنَّ الشَّيْطانَ إنَّما سُلِّط عليه بِقَضاء الله وقَدَرِه، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّه نَسَبَ إلى الشَّيْطانِ تأدُّبًا، وإلَّا فالأَصْلُ نِسْبَتُه إلى الله، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] فالجِنُّ قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومَعْلومٌ أنَّ مُريدَ الشَّرِّ هو الله عَزَّوَجَلَّ لِحِكْمَةٍ، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، فهُمْ حَذَفُوا الفاعِلَ تأدُّبًا مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الشَّرَّ ليس إلَيْه.

على كُلِّ حالٍ: الشَّيْطانُ هو الذي مسَّ أَيُّوبَ، ومسُّه إِمَّا أن يكون مسًّا نفسيًّا أو حسيًّا.

ولَمَّا نادى ربه عَزَّوَجَلَّ، وتضَرَّع إليه، وعلم أنْ لا مَلْجَأَ من الله إلا إليه، وبعد أن تَفَرَّغ قلبُه من كُلِّ شَيءٍ سوى الله، جاءه الفَرَجُ فقيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ...﴾ أي: اضْرِبْ بِرِجْلِكَ الأَرْضَ، فَضَرَبَ الأَرْض بها فَنَبَعَ منها الماء بإذن الله، ولم يَحْتَجْ إلى حفَّار ولا إلى أحد يساعده، بل ضَرَبَ الأَرْض بِرِجْلِه ضَرْبَةً واحِدَة فنَبَعَ الماء، والله على كُلِّ شيء قدير.

وهذه إحدى الضَّرَبات التي نبع بها الماءُ على أنَّه آيَةٌ من آياتِ الله.

والثَّانية: موسى ضَرَبَ الحَجَرَ فانْفَجَرَتْ منه اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.

والثالِثَة: جِبْرِيلُ ضَرَبَ بِجَناحَيْهِ مكانَ زَمْزَمَ، فنبع الماء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كُلِّ شيء قديرٌ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فنبعَتْ عينُ ماء، فقيل له: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾ أي: ماءٌ تَغْتَسِل به ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: تَشْرَب منه، فاغتسل وشَرِبَ فذهب عنه كُلُّ داء كان بباطِنِه

وظاهِرِه] أي: أبيح له أن يَغْتَسِل ويَشْرَب من الماء الذي نبع من الأَرْض، والغالِبُ أنَّ الماء النابعَ من الأَرْض يكون ساخِنًا، ولكن هذا بارِدٌ، فشَرِبَ منه واغتسل به، فذهب عنه كُلُّ داء كان في باطِنِه وظاهِرِه بقُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادَتِه.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أحيا الله له من ماتَ مِنْ أولادِهِ، ورَزَقَـه مِثْلَهُم]. فجعل المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الهِبَـة بِمَعْنى الإحياء؛ ولكنَّ هذا فيه نظر؛ لأنَّ الإحياء يحتاج إلى ثُبُوتِ الإماتَةِ مِن قَبْله، وليس في الآيَة ما يَدُلُّ على هذا، بل إنَّ الله تعالى وَهَبَ له أَهْله حيـث أَوَوْا إليه بعد أن شَـرَدُوا منه؛ لأنَّ الرَّجُل بِسَبَب مَرَضِه الحِسِّيِّ البدني أو النَّفْسِيِّ، شَرَدَ منه أَهْلُه، وعجزوا عن أن يَعيشُوا معه، ولَمَّا عافاه الله أَوَى إليه أَهْلُه، فتكون هذه الهِبَة إعادةَ ما سبق، كما سَمَّى عُمَرُ بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إعادَةَ قيامِ رَمضانَ جَماعَةً؛ سَمَّاها بِدْعَةً، وهي ليست بِدْعَةً في الواقِع، وهذه هِبَةٌ مع أنَّها ليست هِبَةً، ولَكِنَّها إعادةُ موهوبٍ شَرَدَ.

وأَمَّا القَوْلُ بإحيائِهِم بعد إماتَتِهم فهذا يحتاج إلى ثُبُوتِ الإماتَةِ من قبلُ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّه لم تَثْبُتِ الإماتَةُ ولا الإحياءُ، وإنَّما هذه الهِبَة إعادةُ مَوهوبٍ سابِقٍ؛ لأنَّهم نفروا منه وشردوا عنه.

وقوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ نقول: إنَّ الله رزقه أولادًا جُدُدًا؛ لأنَّ زَوْجَتَهُ رَجعَتْ وصَلَحَتْ حالُه، وصار يُنْجِبُ، فبارك الله له في ولده.

ثم قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ﴿رَحْمَةً﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نِعْمَةً، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ مَوْعِظَة].

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ إن كان عائدًا على الأَهْل ومن وُهِبَ له من جديد؛ فهي رَحْمَة مَخْلوقةٌ، والرَّحْمَـة قد تُطْلَقُ على المَخْلوقِ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ

بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(١) ولذلك فإن تَفْسير المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرَّحْمَة بالنِّعْمَة تَفْسير صحيحٌ؛ إذا جعلنا الرَّحْمَة هنا عائِدَةً على الأَهْلِ والأَوْلادِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فإن تَفْسيرَهُ صحيحٌ؛ لأنَّ الرَّحْمَة مَخْلوقة.

وإن أُريد بالرَّحْمَةِ صِفَـة الله عَزَّوَجَلَّ؛ يعني: أنَّ هـذا من رَحْمَتِنا؛ أي: ناشِئٌ عن رَحْمَة الله، فالرَّحْمَةُ هنا غيْرُ مَخْلوقة؛ لأنَّ صفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيْرُ مَخْلوقَةٍ.

إِذَن: كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُمْكِن أن يُخَطَّأَ على الإطلاق؛ حيث فَسَّرَ الرَّحْمَة بالنعمة، ومَعْلوم أنَّ الأشاعِرَةَ يُفَسِّرونَ رَحْمَةَ الله بالنِّعْمَة والإحْسانِ، ولا يرون أنَّ لله رَحْمَةً هي صِفَتُه؛ فكلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُنْتَقَدُ من كُلِّ وَجْهٍ؛ لاحتِمالِ أن يكون المرادُ بالرَّحْمَةِ ما وَهَبَ الله له من الأَهْل ومِثْلِهِم معهم، يعني أراد بها الموهوب، والمَوْهوبُ لا شَكَّ أنَّه مَخْلوقٌ، أَمَّا إذا أَرَدْنا أن نُفَسِّـر قوْلَه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ برَحْمَةٍ مِن عِنْدِنا؛ أي: الرَّحْمَـة التي هي صِفَةُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: إنَّ هـذا ناشِئٌ مِن رَحْمَتِنا، الرَّحْمَـة التي نحن مُتَّصِفون بها، فإن تَفْسيرَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ليس صَحيحًا؛ لأنَّ الرَّحْمَةَ هنا تكون صِفَةً من صفات الله، وليست بِمَعْنى نِعْمَة؛ يعني خلقًا بائنًا عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ تُعْرَبُ مفعولًا لِأَجْلِه، وهذه عِلَّة سابِقَة، والعِلَل قسمان: عِلَل غائِيَّة مُنْتَظَرَة، وعِلَل سابِقَة مُوجِبَة، فمثلًا إذا غَضِبَ الإِنْسَانُ وضَرَب ولَدَه، الضَّرْب هنا من الغَضَبِ؛ لأنَّ العِلَّة سابِقَةٌ موجبة. أَمَّا إذا سافَرَ الإِنْسَان ليتَّجِرَ، فهنا العِلَّة غائِيَّةٌ لاحِقَةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾: ﴿مِّنَّا﴾ يعني نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأتى بِصيغَة الجَمْع؛ تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ. والغَريبُ أنَّ الجَمْع من الأَلْفاظِ المتَشابِهَة التي استدَلَّ بها النَّصْرانِيُّ على تعدُّد الآلِهَة؛ لأنَّ النَّصْرانِيَّ يقول: إنَّ الله ثالثُ ثلاثَةٍ، ليس إلَهًا واحدًا، ويقول عندي دليلٌ: خَلَقْنا، أَنْزَلْنا، مِنْ لَدُنَّا، مِنَّا، عِنْدَنَا، كُلُّ هذه تدلُّ على الجَمْعِ، فنقول له: إنَّ في قَلْبِكَ لَزَيْغًا؛ لأَنَّكَ اتَّبَعْتَ المُتَشابِهَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧].

ما الذي أعمى بصيرتك عن قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]؟

هذا مُحْكَمٌ، والإتيان بصيغَةِ الجَمْعِ للتَّعْظيم أمرٌ واردٌ في اللُّغَة العَرَبيَّة، حتى النَّاسُ أَنْفُسُهم وهم بَشَرٌ -لا يَسْتَحِقُّون من العَظَمَةِ ما يستحِقُّه الخالِقُ- يُعَبِّرونَ عن أَنْفُسِهم بِصيغَةِ الجَمْع تَعْظيمًا لأَنْفُسِهِم.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: من عنـد الله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عِظَةً لأصحاب العُقول.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ هذه خاصَّةٌ بأيُّوب وأَهْلِه، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ عامَّة، يتذَكَّرُ بها أصحابُ العُقولِ، يتذَكَّرون بأنَّ المصائِبَ تكون على الرُّسُلِ وعلى غَيْرِهم، وبأنَّ الشَّيْطانَ يُمْكِن أن يُسَلَّطَ على الرَّسُول، ويتذَكَّرونَ بها أنَّ الإِنْسَانَ إذا لجأ إلى رَبِّه ودعا ربه، فإنَّ الله يُجيبه، ويتذكرون بها أنَّه كُلَّما اشْتَدَّ الكَرْبُ، قَرُب الفَرَجُ؛ وقال رسول الله ﷺ: «اعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة:٢١٤]، يعني: قَريبٌ مِن هذه الحالِ التي وصلَتْ بالرُّسُلِ إلى أن يقولوا: متى نَصْرُ الله؟ يعني يَطْلبونَه شوقًا، لا استبعادًا؛ كأنَّهم يَقولونَ: يا رَبِّ عَجِّلْ لنا بالنَّصْر، فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

إِذَن: ذِكْرَى لأولي الأَلْبابِ فيما يلي:

أولًا: أنَّ البَلاءَ يَشْمَل الأَنْبِياءَ.

ثانيًا: أنَّ الشَّيْطانَ قد يُسَلَّطُ على الأَنْبِياء.

ثالثًا: أنَّ الله تعالى يُجيبُ دَعْوَةَ المُضطَرِّينَ إليه، إذا صدق الإِنْسَانُ في دَعْوَتِه.

رابعًا: أنَّه كُلَّما اشْتَدَّتِ الأُمُور؛ فانتَظِرِ الفَرَجَ؛ فهذا أَيُّوبُ لَمَّا اشتد به الأَمْرُ ولجأ إلى الله، أجاب الله تعالى دعاءَه.

خامسًا: زوالُ كَرْبِ النَّبِي أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على يَدِه؛ لأنَّ الله تعالى لم يُنْزِلْ شفاءً دون سَبَبٍ ظاهِرٍ، بل بِسَبَبٍ هو الذي يباشِرُه، قيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ فضَرَبَ بِرِجْلِه فخرج الدَّواءُ، وقيل له: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ فاغْتَسَلَ فعالَجَ نَفْسَه إِذَن هو الذي استَخْرَج الدَّواءَ وباشَرَ العلاجَ، وكان علاجُه على يده باسْتِخْراج الدَّواء واسْتِعْمالِه.

قال تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ قالَ المُفسِّر: [﴿ضِغۡثٗا﴾ هو حُزْمَةٌ من حَشيش أو قُضْبان ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ زَوْجَتَك، وكان قد حَلَفَ لَيَضْرِبَنَّها مِئَةَ ضَرْبَةٍ لإِبْطائِها عليه يَوْمًا ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ بِتَرْكِ ضَرْبِها، فأَخَذَ مِئَةَ عودٍ من الإِذْخِرِ أو غَيْرِه، فضرَبَها به ضربةً واحِدَة].

وهذه الفَتْوى من الله عَزَّوَجَلَّ لأيُّوب، أفتاه بها تَسْهيلًا عليه وعلى أَهْله، وقد أَشَرنا قبل قليلٍ أنَّه لما أُصيبَ بهذه المُصيبَة من قِبَل الشَّيْطان، مُصيبَة نَفْسِيَّة ومُصيبَة بَدَنِيَّة ظاهِرَة، شَرَدَ أَهْلُه، ومن ضِمْنِهِم زوجَتُه التي كان يَنْبَغي أن تَبْقَى معه على السَّـرَّاء والضَّرَّاء، فحلف أن يَضْرِبَها مِئَةَ ضَرْبَةٍ؛ لأنَّها أغْضَبَتْه وتَرَكَتْه.

فلَمَّا شفاه الله عَزَّوَجَلَّ من المَرَضِ وَجَبَ عليه أن يَفِيَ بِيَمينِهِ فيَضْرِبَ زَوْجَتَه مِئَة ضربةٍ، والمِئَةُ ضَرْبَةٍ قد يكون فيها شَيْءٌ من الاشْمِئزازِ بالنِّسْبَة لِزَوْجَتِه، ومِنَ الإِحْراجِ بالنِّسْبَة له؛ فأفتاه الله تعالى هذه الفتوى ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ فيه مِئَةُ شِمْراخٍ، واضْرِبْها به مرَّةً واحِدَة، تكفي عن مِئَةِ ضَرْبَةٍ، فأخذ بيده ضِغْثًا وضربَهَا به ضربةً واحِدَةً، فصار ذلك بِرًّا بيمينه؛ ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، ومفعولُ ﴿فَٱضْرِب﴾ مَحْذوفٌ وحُذِفَ -والعلم عند الله- للسِّتْر؛ لأنَّه ليس في القُرْآن أَمْرٌ بِضَرْبِ الزَّوْجَة، ولكِنَّه جاء في القَصَص المَعْروفة عن بني إسرائيل، وليس المقصودُ أن نَعْرِفَ عَيْنَ المضروبِ، ولكنَّ المقْصودَ أنَّ الضَّـرْبَ الذي كان قد حَلَفَ عليه؛ يحصل بأَخْذِ هذا الضِّغْـث والضَّرْب به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ أصل الحِنْثِ: الإِثْم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦] يعني على الإثْم العظيم. والمراد به هنا أَلَّا يَبَرَّ بِيَمينِه، وعَدَمُ البِرِّ باليمينِ أن يَتْرُكَ ما حلف على فِعْلِه، أو يفعل ما حَلَفَ على تركه، وهذا هو الحِنْث.

على سبيل المثال: حَلَفَ لَيَشْتَرِيَنَّ كتابًا، قال: واللهِ لَأَشْتَرِيَنَّ كتابًا ولم يَشْتَرِ، حَنِثَ بِتَرْكِ ما حَلَفَ على فعله، أو حَلَفَ أَلَّا يَبيعَ الكِتابَ، قال: والله لا أَبيعُ الكِتابَ وباعَهُ، حَنِثَ بِفِعْلِ ما حلف على تَرْكِه، أو حلف ليشتريَنَّ هذا الكتاب فاشتراه، فهذا بَرَّ بِيمينِهِ، أو حَلَفَ أَلَّا يبيعَ هذا الكتاب فلم يَبِعْه، بَرَّ بيمينه.

إِذَن: مُوافَقَةُ اليَمين بِرٌّ، ومُخالَفَتُها حِنْثٌ.

قال أَهْل العِلْم: يُؤخَذُ من هذا أنَّ عَدَمَ إبرارِ اليَمينِ مَكْروهٌ إلى الله تعالى؛ لأنَّه يُسَمَّى حِنْثًا، ولكِنْ مِن نِعَم الله أنَّه رخَّص لعِبادِهِ بِفِعْلِه، ولكن إذا فعلوه كَفَّروا بكَفَّارة عن الحِنْثِ؛ لأنَّه لو كانت الكُفَّارَةُ عن اليَمينِ لكان كُلُّ من يَحْلِفُ يُكَفِّر، لَكِنَّها عن الحِنْث؛ لأنَّ الأصل الإثْمُ في مخالَفَةِ اليَمينِ، ولكنْ مِن رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ أنْ رخَّصَ لنا الحِنْثَ وأن نُكَفِّرَ عنه؛ ولِهَذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: وَجَدْنا أَيُّوبَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يعني أَلْفَيْناهُ صابِرًا، و(وجدَ) فعل يَنْصِبُ مَفْعولَينِ: الأَوَّل: (الهاء) في قَوْلِه: ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾، والثَّاني: ﴿صَابِرًا﴾.

وصَبْرُ أَيُّوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان صَبْرًا على قَدَرِ الله، وهذا ظاهِرٌ؛ لأنَّه صَبَرَ على ما مَسَّه من الشَّيْطان، وكان صَبْرًا عن مَعْصِيَة الله؛ لأنَّه لم يَجْزَعْ ولم يَسْخَط، وكان صَبْرًا على طاعَةِ الله؛ لأنَّه لَجَأَ إلى الله، ودعا الله عَزَّوَجَلَّ فأجابه.

وأحيانًا يكون الدَّواءُ بالدُّعاءِ أَنْجَعَ بكثيرٍ من الدَّواءِ الحِسِّيِّ المادِّيِّ، وفيما سبق إذا تَعَسَّرَتِ الوِلادَةُ، يُؤتَى إلى شَخْصٍ، ويُطْلَب منه أن يقرَأَ للحامِلِ عند تَعَسُّر الوِلادَة، فيَقْرَأ في ماء، ويَذْهَبونَ به ويَمْسَحون به ما حول المنطِقَة، وتَشْرَبُ منه الحامِلُ، فتضَعُ بدون أَلَمٍ، وهذا شيءٌ مُجَرَّبٌ ومُشاهَدٌ، وهذا أَهْوَنُ بِكَثيرٍ من المعالجَة بالأَدْوِيَة الحِسِّيَّة المادِّيَّة، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَجَأَ إلى الله، وطلَبَ الشِّفاءَ منه، وهذا صَبْرٌ على طاعَةِ الله، فحَصَلَ له أَنْواعُ الصَّبْر كُلُّها.

ثم قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ صَبَرَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا الصَّبْرَ العظيمَ

على المَرَضِ وفَقْدِ الأَوْلادِ وفَقْدِ الأَهْلِ، ومع ذلك لم يَنْسَ الله عَزَّوَجَلَّ، لجَأَ إليه عند الشَّدائِدِ.

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ نِعْمَ: فعلٌ ماضٍ جامِدٌ لإنشاءِ المَدْحِ، والعَبْد: فاعِلٌ، وهذا الفِعْل وشَبَهُه، يحتاجُ إلى شَيْئينِ: إلى فاعِلٍ ومخصوصٍ بالمَدْحِ، فإنْ تقدَّم ما يدُلُّ على المخْصوصِ استُغْنِي بما تقدَّمَ، وإلا فإنَّهُ يُقَدَّرُ، وإن كان ظاهِرًا، فظاهِرٌ؛ فمثلًا هنا ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ السِّياقُ يدلُّ على المَخْصوصِ، وحينئذٍ لا حاجَةَ إلى تَقْديرِهِ؛ لأنَّه من المَعْروفِ أنَّ العَبْدَ هو أَيُّوبُ، فلا حاجَةَ إلى التَّقْديرِ، ولكنَّ بعض النَّحْوِيِّينَ يُقَدِّرُ ولو عُلِم؛ لأنَّه يرى أنَّه لا بدَّ من ذِكْرِ الفاعِلِ والمخصوصِ، فيقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أَيُّوبُ] أَيُّوبُ هو المخصوص، والعَبْدُ فاعِلٌ.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هذه جُمْلَةٌ اسْتِئْنافِيَّةٌ تَعْليلِيَّةٌ، تَعليلًا للثَّناءِ على أَيُّوبَ أَنَّه نِعْمَ العَبْدُ؛ لأَنَّه كان ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رَجَّاعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآياتِ الثَّناء على أَيُّوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما ذُكِرَ من أوْصافٍ، وفيها الإشادَةُ بِمناقِبِه؛ حيث أَمَرَ الله نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يَذْكُرَ عَبْدَه أَيُّوبَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ أنَّ الأَنْبِيَاء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا يَمْلِكون لِأَنْفُسِهِم نَفْعًا ولا ضَرًّا؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ صِدْقِ لجُوءِ الأَنْبِيَاء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الله تعالى في كَوْنِهم يَفْزَعونَ إليه عند الشَّدائِدِ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ إضافَةِ الأَشْياءِ إلى أَسْبابِها؛ لأنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أضافَ هذا الضُرَّ إلى الشَّيْطانِ؛ لأَنَّه سَبَبُه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ التوسُّلِ إلى الله تعالى بحالِ العَبْدِ؛ لأنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَسَّلَ إلى الله تعالى بحالِهِ؛ وهو أنَّه مَسَّهُ الشَّيْطان بنُصْبٍ وعَذابٍ؛ ونظير هذا قولُ موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] فتـوَسَّلَ إلى الله تعالى بذِكْرِ حالِهِ وأنَّه فَقيرٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا أَحَد أَنْواعِ التَّوَسُّلِ الجائِزِ.

ويَحْسُنُ هنا ذِكْرُ أَنْواع التوسُّل وهي:

أولًا: التوسُّل إلى الله تعالى بأسْمائِهِ.

ثانيًا: التوسُّلُ إلى الله تعالى بِصِفاتِهِ.

ثالثًا: التوسُّلُ إلى الله تعالى بأفْعالِهِ.

رابعًا: التوسُّلُ إلى الله تعالى بذِكْرِ حالِ الدَّاعي.

خامسًا: التوسُّلُ إلى الله تعالى بِدُعاءِ مَن تُرْجَى إجابَتُه.

سادسًا: التوسُّلُ إلى الله تعالى بالإيمانِ.

سابعًا: التوسُّلُ إلى الله تعالى بالعَمَلِ الصَّالِحِ.

كُلُّ هذه الأَنْواعِ من التَّوَسُّل جائِزَةٌ.

فالتَّوَسُّل إلى الله بأسمائه؛ مثل أن تقول: اللَّهُمَّ يا غَفورُ، اغْفِرْ لي.

والتَّوَسُّلُ إلى الله بصفاتِهِ؛ مثل قولك: اللَّهُمَّ، بِرَحْمَتِك أَسْتغيثُ، اللَّهُمَّ، بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وقُدْرَتِكَ على الخَلْقِ، أَحْيِنِي إذا عَلِمْتَ الحَياةَ خيرًا لي.

والتَّوَسُّلُ إلى الله بأفعاله؛ مثل: اللَّهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ.

والتَّوَسُّلُ إلى الله بذِكْرِ حال الدَّاعي؛ كما في هذه الآية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

والتَّوَسُّلُ إلى الله تعالى بدُعاءِ من تُرجَى إجابَتُـه: كتَوَسُّل الصَّحابَـةِ بدُعاءِ النَّبي ﷺ.

والتَّوَسُّلُ إلى الله تعالى بالإيمـانِ؛ مثل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

والتَّوَسُّلُ إلى الله بالعَمَـل الصَّالِحِ؛ كقِصَّةِ الثَّلاثَـةِ الذين لجَـؤُوا إلى الغارِ فانْطَبَقَتْ عليهِمُ الصَّخْرةُ، فتوسَّلَ كُلٌّ منهم بعَمَلِهِ الصَّالِحِ(١).

أَمَّا التَّوَسُّل المَمْنوعُ؛ فهو التَّوَسُّلُ إلى الله تعالى بما لم يَجْعَلْه وَسيلَةً؛ لا شَـرْعًا ولا قَدَرًا، وهذا التوسل مُحَرَّمٌ، وهو نوعٌ من الاسْتِهْزاءِ بالله عَزَّوَجَلَّ، كأنَّ الإِنْسانَ يتقدَّم بِشَيْءٍ يَجْعَلُه وَسيلَةً، وهو ليس بِوَسيلَةٍ، فكأنَّه يَسْتَجْهِلُ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ إجابة الله عَزَّوَجَلَّ للدُّعاءِ، وهو دليلٌ على مِنَّتِه على عباده؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث أَنْبَعَ الماء مِن ضَرْبِ الرِّجْل.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ولو شاءَ الله تعالى لأَنْبَعَ له الماءَ بِدونِ الرَّكْضِ بالرِّجْلِ، ولكن الله تعالى جَعَلَ ذلك سَبَبًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الله تعالى قد يَجْعَلُ السَّبَب الضَّعيفَ الذي لا يقومُ بالمسبَّبِ سَبَبًا مُؤَثِّرًا، كما أنَّه قادِرٌ على أن يَمْنَعَ السَّببَ المُؤَثِّرَ فلا يؤثِّرُ؛ فالرَّكْضُ بالرِّجْلِ ليس من العادةِ أن يُنْبعَ الماء، والإلقاءُ في النَّار من العادة أنْ يَحْرِقَ، فإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُلْقِيَ في النَّار ولم يَحْتَرِقْ، وأيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَكَضَ بِرِجْلِهِ الأَرْضَ فَنَبَعَ الماء؛ ففيه دليلٌ على أنَّ الله تعالى قد يَجْعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ قَوِيًّا مُؤَثِّرًا، ويجعلُ السَّببَ القَوِيَّ المؤَثِّرَ غَيْرَ مؤثِّرٍ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بيانُ القُدْرَة الإِلَهِيَّة بكون هذا الماءِ النَّابعِ من جَوْفِ الأَرْض باردًا وصالِحًا للشُّرْبِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الإِشارَة إلى المُطَهِّرِ للباطِنِ، فالنَّاسُ يَتَّخِذون أَشْياءَ مُلَيِّنَةً للبَطْنِ؛ تُنَظِّفه؛ لِقَوْلِه: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَمُنُّ على العَبْدِ بأكْثَرَ مِمَّا فَقَدَ إذا صَبَرَ واحتَسَبَ؛ لأنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهَبَ الله له أَهْلَه ومِثْلَهُم معهم، فأنْتَ اصْبِرِ تَظْفَرْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ما حصل للإِنْسَانِ من نِعْمَةٍ فإنَّهُ بِمُقْتَضى رَحْمَة الله تعالى؛ لِقَوْلِه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ في هذه القِصَّة العَظيمَة ذِكْرى لأُولي الأَلْبابِ، وقد بَيَّنَّا وُجُوهَ هذه الذِّكْرى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: جوازُ اسْتِعْمالِ الحِيَلِ المباحَةِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وهذا الحُكْمُ ثابِتٌ حتَّى في الشَّريعَة الإسلامِيَّةِ؛ فلو حَلَفَ

رجلٌ على أن يَضرِبَ شخصًا مِئَةَ مَرَّةٍ، وكان هذا الشَّخْصُ لا يتحَمَّلُ الضَّرْبَ مِئَةَ مَرَّةٍ، قال أَهْل العِلْمِ: فله أن يأخُذَ ضِغثًا به مِئَةُ شِمْـراخٍ ويَضْرِبَ به ضَرْبَةً واحِدَة، وبَنَوْا على هذا ما لو زَنَى رجلٌ مريضٌ مَرَضًا لا يُرجَى زَوالُه، ولا يَتَحَمَّلُ الضَّرْب مِئَةً على انْفِرادٍ، قالوا: فإنَّهُ يُجْمَعُ له ضِغثٌ به مِئَةُ عودٍ، ويُضْرَبُ به ضربةً واحِدَةً؛ أخذًا بما أفتى الله عَزَّوَجَلَّ به أَيُّوبَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الحِنْثَ في اليمين في الأصل حَرامٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، ولكنَّ الله تعالى يَسَّرَ لعباده، وأجاز لهم الحِنْثَ مع الكُفَّارة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، إلى قوله: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]، قال العُلَماء: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: لا تُكْثِروا اليَمينَ، وقال بَعْضُهم: أي: احْفَظُوها من الحِنْثِ، فلا تَحْنَثُوا فيها، والوَجْهانِ كِلاهُما لا يَتَنافَيانِ.

والإِنْسَانُ يَنْبَغي له أن يَحْفَظ يَمينَه فلا يَحْنَث، ولكنْ مع ذلك أحيانًا يكون الحِنْثُ خيرًا.

وقد قسَّم العُلَماء الحِنْثَ في اليمين إلى الأَحْكامِ الخَمْسَةِ؛ قالوا: قد يَجِبُ الحِنْثُ، وقد يَحْرُم، وقد يُكْرَه، وقد يُسْتَحَبُّ، وقد يُباحُ.

فإذا حلف أَلَّا يصلِّيَ مع الجماعة؛ فالحِنْثُ واجِبٌ؛ لأَنَّه يَجِبُ أن يصلِّيَ ويُكَفِّرَ، ولو حَلَفَ أن يَشْرَبَ الخَمْرَ، فالحِنْثُ واجب، يَجِبُ أن يَدَعَهُ وأن يُكَفِّرَ، ولو حلف على أَلَّا يَشْرَبَ الخَمْرَ، كان الحِنْث محرَّمًا؛ لأَنَّه لو شَرِبَها لفعل محرَّمًا، ووقع في المحرَّم.

ولو حلف أَلَّا يُصَلِّيَ راتِبَةَ الظُّهْر، فالحِنْثُ هنا مُسْتَحَبٌّ، ولو حلف أن يأكُلَ بَصَلًا أو ثُومًا، وهو مِمَّن يَحْضُر المَسْجِدَ؛ كان الحِنْثُ مُسْتَحَبًّا، ولو حلف على أَلَّا يأكُلَ البَصَلَ، يكون الحِنْثُ مَكْروهًا.

المُهِمُّ: أنَّ المَكْروهَ والمُسْتَحَبَّ مُتَضادَّانِ، والواجِبَ والمحرَّمَ مُتَضادَّان، أَمَّا المباحُ فهو إذا تَساوَتِ المَصْلَحَةُ والمَفْسَدَة، فهو مباحٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الثَّناءُ على أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالصَّبْرِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ وهذا يتعدَّى إلى غَيْرِهِ أيضًا، فإنَّ مَن كان صابرًا فهو مَحَلٌّ للثَّناءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: الثَّناءُ على أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الوَصْف: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ والعُبودِيَّةُ لله عَزَّ وَجَلَّ لا شَكَّ أنَّها تمامُ الحُرِّيَّةِ، وكلُّ من كان لله أَعْبَدَ، فهو أَشَدُّ تَحَرُّرًا ممن كان على العكس.

وقد قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بيتًا في النُّونِيَّةِ مُفيدًا؛ قال(١):

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

هؤلاء هربوا من عِبادَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصاروا عبيدًا لنُفوسِهم وشَياطينِهم، فأَشْرَفُ أَوْصافِ الإِنْسَانِ أن يكون عَبْدًا لله عَزَّ وَجَلَّ، أسأل الله تعالى أن يَجْعَلَني وإيَّاكُمْ مِنْ عِبادِهِ الصَّالِحِينَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الثَّناءُ على أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بكَوْنِهِ رجَّاعًا إلى الله بِفِعْلِ الطَّاعاتِ وتَرْكِ المعاصي؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ وعلى هذا يكون هذا الوَصْفُ لِكُلِّ من اتَّصَفَ به؛ وكُلُّ من كان رجَّاعًا إلى الله فإنَّهُ يُثْنَى عليه.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: إثبات الأَسْبابِ، وجَوازُ نِسْبَة الشَّيْءِ إلى سَبَبِه المَعْلوم حِسًّا، أو شرعًا بدون أن يُنْسَب إلى الله؛ فلو قلتَ مثلًا: سَقَطْتُ في البحر، ولولا فُلانٌ لَغَرِقْتُ، لكان هذا صحيحًا؛ لأنَّه أضافه إلى سببٍ مَعْلومٍ، فلان هو الذي انْتَشَلَه

(١) النونية (ص:٣٠٨).

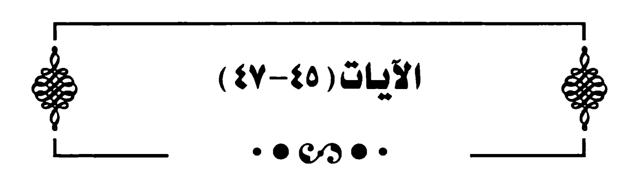
من الماء؛ ومن ذلك قول الرَّسُول ﷺ في عمِّهِ أبي طالِبٍ: «**لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[1] فأضاف الشَّيْء إلى سَبَبِه المَعْلوم.

أَمَّا إذا أضافه إلى سَبَبٍ غير مَعْلومٍ، فهذا نوعٌ من الشِّرْك، ثم قد يكون شِرْكًا أكْبَرَ، وقد يكون شِرْكًا أصغر، بِحَسَب الحال؛ فإذا قال: سَقَطْتُ في البحر ولولا فلان -الوَلِيُّ المَيِّتُ- لَهَلَكْتُ، لكان هذا شِرْكًا، وهو شِرْكٌ أكْبَرُ في هذه الحالَ.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيات (٤٥-٤٧)

• • ◆ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص:٤٥-٤٧].

• • ◆ • •

قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ اذكر يا مُحَمَّدُ، وتَذَكَّرْ أيُّها المخاطَبُ هؤلاء السَّادَةَ الأبرارَ، ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ إبراهيمُ بَدَلٌ من عبادنا، بدَل بَعْضٍ من كلٍّ، وما عُطِفَ عليه يُكْمِلُ الكُلَّ، والعِبادَةُ هنا أَخَصُّ الخاصَّة؛ لأنَّها عُبودِيَّةُ الرِّسالَة والنُّبُوَّة، وإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمامُ الحُنفاءِ، الذي أُمِرْنا باتِّباعِ مِلَّتِـه: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [النحل:١٢٣]، وإِسْحاقُ ابْنُه، ويَعْقوبُ حَفيدُهُ ابْنُ ابْنِه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [أَصْحابَ القُوى في العِبادَةِ، ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ البَصائِرِ في الدِّينِ] يعني اذْكُرْهم مُشيرًا إلى قُوَّتِهم في الدين؛ لأنَّ الأَيْدِيَ جَمْعُ يَدٍ، والمرادُ باليَدِ هنا القُوَّةُ، وكذلك الأبصارُ؛ أي: البصائِرُ في دين الله؛ لأنَّهم رُسُلٌ، وأَبْصَرُ النَّاس في عِبادَة الله هم الرُّسُلِ.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ ﴾ قالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُٱللَّهُ: [وفي قراءةٍ «عَبْدَنَا»، وإبراهيم بيانٌ له، وما بَعْدَهُ عَطْفٌ على عَبْدنا]؛ أي: إنَّها تُقرَأُ بالجَمْعِ وبالإِفْرادِ، والقِراءَةُ هنا سَبْعِيَّةٌ؛ لأنَّ القاعِدَة أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ إذا قال: [وفي قِراءَةٍ] فهي سَبْعِيَّةٌ، وإذا قال: [قُرِئَ]

فهي شاذَّةٌ.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي: نَقَّيْناهُم وصَفَّيْناهُم؛ لأنَّ إخلاص الشَّيْء أن تُـزيلَ شَوائِبَـه حتى يَبْقى خالِصًا، ومنه إِخْلاصُ الدِّينِ لله، وهو أن تُـزيلَ عَنْهُ شَوائِبَ الشِّرْك.

وقوله: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بيَّنَها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْلِه: [هي ذِكْرى الدَّارِ] أفاد المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ ﴿ذِكْرَى﴾ هي خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ؛ تَقْديرُهُ: هي ذكرى، ويجوز أن تكون (ذكرى) بدلًا من (خالِصَة) أو عَطْفَ بيان لها، والمرادُ بالدَّارِ هنا الآخِرَةُ؛ أي: ذِكْرى الدارِ الآخِرَة؛ ذِكْرُها والعَمَلُ لها.

وفي قراءةٍ بالإِضافَةِ؛ أي: «بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» وهي للبَيانِ؛ أي: الإضافَةُ هنا بَيانِيَّةٌ على تَقْديرِ مِنْ؛ لأنَّ الإضافَةَ البيانِيَّة تكون على تَقْدير مِنْ، كما تقول: خَاتَمُ فِضَّـةٍ؛ أي: مِنْ فِضَّـةٍ، أو تقول: ثَـوبُ خَزٍّ؛ أي: مِنْ خَزٍّ، بابُ خَشَـبٍ؛ أي: مِنْ خَشَبٍ، وهكذا قال: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: الدَّارُ الآخِرَة؛ أي: تَذَكُّرها والعَمَل لها.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الضَّمِير يعود على الثَّلاثَة: إبْراهيمَ وإِسْحاقَ ويَعْقوبَ ﴿عِندَنَا﴾ عندَ الله، والعِنْدِيَّةُ هنا عِنْدِيَّةُ المَرْتَبَة لا عِنْدِيَّةُ المكانِ؛ لأنَّ مَرْتَبَتَهُم عند الله أَنَّهُم من هؤلاء ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾.

المُصْطَفى اسْمُ مَفْعولٍ بِمَعْنى المُخْتارِ، وهنا ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ جَمْعُ مذَكَّرٌ سالِـمٌ، ولكنْ فيه إشكالٌ، وهو أنَّ المَعْروفَ أن جَمْعَ المُذَكَّرِ السالِمِ يُكْسَر ما قبل الياءِ، نقول: المُسْلِمِينَ والمُؤْمِنِينَ والقانِتِيـنَ والصَّابِرِينَ والصَّادِقِيـنَ، وهنا ما قَبْلَ الياءِ مَفْتـوحٌ، والمَعْروفُ أنَّ الذي يُفْتَـحُ فيه ما قبلَ الياءِ هو المُثَنَّى؛ كما تقول: الرَّجُلَيْنِ والمُسْلِمَيْنِ والمُؤْمِنَيْنِ، وهكذا، فلماذا فُتِحَ ما قبلَ الياء في ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾؟

قال النَّحْوِيُّونَ: لِأَنَّ أَصْلَه المُصْطَفى بالأَلِفِ فحُذِفَتِ الألِفُ؛ لأنَّها ساكِنَةٌ، ولأنَّ الياء بَعْدَها ساكِنَةٌ فتُحْذَفُ؛ كما قال ابن مالك[1]:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لِينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

فالآن التقى أَلِفٌ وياء، فتُحْذَفُ الأُولى منهما وهِي هنا الأَلِفُ وتبقى الفَتْحَةُ دليلًا عليها.

﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ يعني في العِبادَة والعِلْم والرِّسالَة.

﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ [جمع خَيِّرٍ بالتَّشْديدِ]، والخَيِّرُ على وزْنِ فَيْعِل، وهو كَثيرُ الخَيْر، ولا شَكَّ أنَّ هؤلاء الرُّسُلَ الثَّلاثَةَ فيهم خيرٌ كثير، وجاء مِن نَسْلِهم رُسُلٌ كِرامٌ، وأُمَم من أَفْضَلِ الأُمَمِ؛ جاء مِن نَسْلِ إِبراهيمَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهي أفضل الأُمَم وأَكْرَمُها عند الله.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الثَّناءُ على إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم الصَّلاة والسَّلامُ بأَنَّهم أصحابُ قُوَّة في عِبادَة الله، وبَصيرَةٍ في دين الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنْبَغي ذِكْرُ أَهْلِ الخَيْر بالثَّناءِ؛ لأنَّ في ذلك فائِدَتَيْنِ:

الفائِدَة الأُولى: إحياءُ ذِكْرِ هؤلاء لِيَتَبَيَّنَ فَضْلُهم ويُدْعَى لهم.

والفائِدَةُ الثَّانِيَة: الاقْتداءُ بِهِم واتِّباعُهُم فيما هم عليه مِمَّا استَحَقُّوا به الثَّناء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى أَخْلَصَ هؤلاء بخالِصَةٍ، وهي تذَكُّرُ الدَّارِ الآخِرَة؛

---

(١) ذكره الصبان في حاشيته على شرح الأشموني (١/ ١٣٤).

بحيث لا يَنْغَمِسونَ في تَرَفِ الدُّنْيا.

ويَتَفَرَّع عن هذه الفائِدَة: أنَّ مَن أَنْعَمَ الله عليهم بهذه الصِّفَة، وهي تذكُّرُ الدَّارِ الآخِرَة، فإن هذا من الأَمْرِ الذي يَسْتَحِقُّ الثَّناءَ عليه هو، ويَسْتَحِقُّ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ عليه الشُّكْر؛ حيث لم يجعل هذا ممن ينطوي في سِلْكِ أَهْل الدُّنْيا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ لله تعالى عِبادًا مُصْطَفَينَ؛ لِقَوْلِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ لأَنَّ (مِنْ) هنا إمَّا للجِنْسِ أو للتَّبْعيض، فتدل دَلالَةً واحِدَةً.

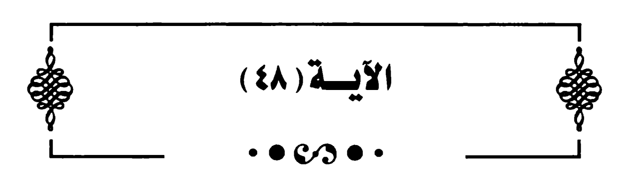
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه إذا كان العامِلُ له مَراتِبُ فإنَّ العَمَل كذلك له مَراتِبُ؛ لأنَّ العامِلَ إنَّما ينالُ المَراتِبَ بِحَسَبِ عَمَلِه.

ويَتَفَرَّع عن هذه الفائِدَة: ما فيه دليلٌ لمذهَبِ أَهْلِ السُّنَّة والجماعَةِ: من أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنْقُصُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ إِبْراهيمَ وإِسْحاقَ ويَعْقوبَ عليهم الصَّلاة والسَّلام من هؤلاء المُصْطَفَينَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَنِ اصْطفاهُمُ الله فإنَّهُم أَصْحابُ خَيْرٍ وفَضْلٍ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ فرَتَّبَ الخيريَّة على الاِصْطِفاءِ.

• • ❁ • •



الآية (٤٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٨].

•●◌●•

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ إسماعيل بْنُ إبراهيمَ أَفْرَدَهُ بالذِّكْر؛ لأنَّ سُلالَتَهُ تَخْتَلِفُ عن سُلالَةِ إسحاقَ ويعقوبَ، فإسحاقُ ويَعقوبُ سُلالَتُهما بنو إسرائيلَ، وهؤلاء سُلالَتُهُم العَرَبُ؛ ولِهذا أَفْرَدَه. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ وهو نَبيٌّ، واللام زائِدَةٌ، فإذا كانت اللام زائِدَةٌ فإنَّ الأصل هو يَسَعُ، وهو نبِيٌّ ولَكِنَّه نَبِيٌّ رسولٌ؛ لأنَّ كُلَّ نَبيٍّ ذُكِرَ في القُرْآن فهو رسولٌ.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مُختَلَف في نُبُوَّتِه، فقيل: إنَّهُ نَبِيٌّ، والكِفْلُ يعني العَمَل والنَّصيبِ، يعني صاحِبَ العَمَلِ الكثيرِ والنَّصيب. هذا على القول بأنَّه رسولٌ، أمَّا على القول بأنَّه غيرُ رسولٍ فقد قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: إنَّهُ كَفَلَ مِئَةَ نَبيٍّ فرُّوا إليه من القَتْلِ]، وكَلِمَة قيل: تدلُّ على أنَّه ضعيفٌ، فالظَّاهِر أنَّ معنى (ذا الكِفْل) صاحِبُ العَمَلِ الكثيرِ والجِدِّ والنَّشاطِ.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كُلُّهم، وعلى هذا فإنَّ التَّنْوينَ عِوَضٌ عن اسْمِ (كُلُّهُم).

﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [جَمْعُ خيِّرٍ بالتَّثقيلِ]. وقَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع خيِّرٍ بالتَّثقيلِ] مثل قوله السَّابِق: [جَمْعُ خيِّرٍ بالتَّشْديدِ].

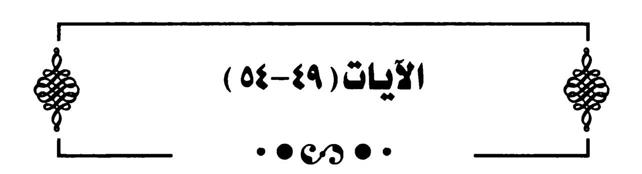
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الثَّناءُ على إِسْماعيلَ واليَسَع وذي الكِفْل عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ الله أَمَرَ بذِكْرِهم للثَّناء عليهم، وبيان فَضيلَةِ هؤلاء الرُّسُلِ الثَّلاثَة: إسماعيلَ واليَسَع وذي الكِفْل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ لله عبادًا أَخْيارًا منهم هؤلاءِ الثَّلاثَةُ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ لله تعالى فَضْلًا على بَعْضِ العباد، يُحْرَمُه البَعْضُ الآخَرُ؛ حيث يجعل هؤلاء من المُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ، والآخَرينَ على العكس من ذلك.

• • ۞ • •



الآيات (٤٩-٥٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٤٩-٥٤].

• • • •

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لهم بالثَّناءِ الجميلِ هنا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشَّاملينَ لهم ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مَرْجِعٍ في الآخِرَة].

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يُحتَمَلُ ما قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أي: إنَّ هذا ذِكْرٌ لهؤلاء السَّادة بالثَّناء الجميلِ، ويُحتَمَل أنَّ المرادَ: هذا ذِكْرٌ للنَّاسِ؛ أي: تَذْكيرٌ لهم، كما قال الله تعالى في أول السُّورَة: ﴿صٓ ۚ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ﴾ وهذا الأخيرُ أَرْجَحُ؛ يعني هذا المذكور في آخِرِ السُّورَة ذِكْرٌ لجميعِ النَّاس، ثم النَّاس يَنْقَسِمون إلى مُتَّقٍ وغيرِ متَّقٍ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومِنْهم الرُّسُلُ بل سادَةُ المُتَّقينَ وعَلى رُؤوسِهِم، ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: مَرْجِعٍ، وهنا قال: ﴿لَحُسْنَ﴾ وفيه إشكالٌ حيث إنَّهُ مَنْصوبٌ مع دخولِ اللام عليه، وهي لام الابتداءِ، وتُسَمَّى باللامِ المُزَحْلَقَة دخلَتْ على (حُسْن) اسم (إنَّ) مُؤَخَّر، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خَبَرٌ مُقدَّم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: بَدَلٌ أو عَطفُ بيان ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ولهذا نُصِبَتْ ﴿جَنَّٰتِ﴾

لكنْ نُصِبَت بالكَسْرَةِ نيابَةً عن الفَتْحَة، والجَنَّةُ في الأصل البُسْتانُ الكَثيرُ الأَشْجارِ، سُمِّي به لأن يَجُنَّ من كان فيه أي: يَسْتُرُه، والمراد بها دارُ النَّعيم التي أعدها الله للمُتَّقينَ في الآخِرَة، و(عَدْن) بِمَعْنى إقامَة؛ أي: الجَنَّات التي يقيم فيها ساكِنُها ولا يتحَوَّلُ عنها، ولا يَبْغي عنها حِوَلًا، ولا يرى أنَّ لغَيْره فَضْلًا عليه، كُلُّ واحِدٍ من أَهْلِ الجَنَّة يرى أنَّه لا فَضْلَ لأحَدٍ عليه، وهذا هو تَمامُ النَّعيم؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا رأى أنَّ غَيْرَهُ أفضَلُ منه احْتَقَرَ ما أعطاه الله؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ**»[1].

قال: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾: ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾، ولم يَقُلْ: مَفْتوحَةٌ، وذلك لكَثْرَةِ الفاتِحينَ أو لِكَثْرَةِ الأبوابِ أو لهما جميعًا؛ فعلى الأول كَثْرَةُ الفاتِحينَ، يكون المَعْنى أنَّ لهم خَدَمًا كثيرينَ يَفْتَحونَ لهم الأَبْوابَ، وعلى الثَّاني يَدُلُّ على أن أبوابها كثيرةٌ لِكَثْرَةِ من يَدْخُلها.

ومن المَعْلوم أنَّ أَبْوابَ الجَنَّةِ الأَصْلِيَّةَ الكَبيرةَ ثَمانيَةٌ، ولكنْ هناك غُرَفٌ في وَسَطِ الجَنَّة تجري من تَحْتِها الأنْهارُ لها أبوابٌ فَتُفَتَّحُ لهم الأبوابُ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجَنَّاتِ، والاتِّكاءُ يدلُّ على الهُدوءِ والطُّمَأْنينَةِ وعَدَمِ القَلَقِ، وأيضًا يدلُّ على أنَّ الإِنْسَان ذو سُلْطَان يُخْدَم ولا يَخْدِم، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجَنَّات، وبيَّنَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أي شيء يَتَّكئونَ، فقال: [على الأرائك]، كما جاء ذلك في آياتٍ أخرى.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ يَدْعونَ؛ أي: يَطْلُبونَ يعني يقولون: هاتوا فاكِهَةً ﴿كَثِيرَةٖ﴾ كَثيرَة النَّوْع وكَثيرَة العَيْن؛ أي: أَنْواع كثيرَةٌ، وكذلك أعيانٌ كثيرَةٌ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٣/ ٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لو تطلب أيَّما تَطْلُبْ حصل لك. ﴿وَشَرَابٍ﴾ هذا الشَّرابُ بيَّنَ الله أَنْواعَه وأَجْناسَهُ بأنَّه أَرْبَعَةٌ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [مُحَمَّد:١٥].

هذه أَرْبَعَةُ أَنْواعٍ من شَرابِ الجَنَّة، ولكنَّ هذه الأصنافَ تَخْتَلِف عمَّا في الدُّنْيا اختلافًا عظيمًا؛ أي: فلا تَظُنَّ أنَّ الماءَ كالماءِ الذي في الدُّنْيا، أو أنَّ العَسَلَ كالعَسَلِ الذي في الدُّنْيا، أو أنَّ اللَّبَنَ كاللَّبنِ الذي في الدُّنْيا، أو أنَّ الخَمْـر كالخَمْـرِ الذي في الدُّنْيا، بل تَخْتَلِف اختلافًا عظيمًا؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] ولو كان لا يَخْتَلِـفُ لَكُنَّا نَعْلَمُ هذا، وقال الله تعالى في الحديـث القُدُسِيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1] اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنْ أَهْلِها.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حابِساتُ العَيْنِ على أَزْواجِهِنَّ] قاصِـراتُ الطَّرْفِ؛ أي: حابِسات، والطَّرْفُ: النَّظْرُ؛ أي: إنَّهُنَّ يَقْصُـرْنَ النَّظَرَ على أَزْواجِهِنَّ، هذا معنًى من المعاني، والمَعْنى الثَّاني: قاصِراتٌ طَرْفَ أَزْواجِهِنَّ فلا يَنْظُرُ أَزْواجُهُنَّ إلى غَيْـرِهِنَّ، والفَرْقُ بينهمـا ظاهِرٌ، ولكنَّ اللَّفْظَ صالِحٌ لِلأَمْرينِ، فهن قاصِـراتٌ طَرْفَهُنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غيـر أزواجِهِنَّ، وهن قاصِـراتٌ طَرْفَ أَزْواجِهِنَّ، فلا يَنْظُرُ أَزْواجُهُنَّ إلى غَيْرِهِنَّ.

أَمَّا نساءُ الدُّنْيا فإنَّ بَعْضَ النِّساءِ إذا خَرَجَـتْ إلى السُّـوق أخذَتْ تنظـر إلى الرِّجال، وتقارِنُ بين هذا الرَّجُلِ وبين زَوْجِها، وكذلك الرَّجُلُ إذا خرج إلى السُّوق؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَبَعْضُ الرِّجال يتطَلَّع إلى النِّساء ويُقارِن بين من يرى من النِّساء وبين زَوْجَتِه، وتَجِدُه إذا وجد من النِّساء من هي أَجْمَل من امْرَأَتِه انشغل قلْبُه بها، وأَعْـرَضَ عن امْرَأَتِه، وزَهِد فيها؛ ولِهَذا كان من الحِكْمَةِ العَظيمَةِ وجوبُ سِتْرِ الوَجْهِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ إذا لم يَرَ وَجْهَ المرأَةِ لم يَتغَيَّرْ نَظَرُه بالنِّسْبَةِ إلى امْرَأَتِه، لكن إذا رأى امرأَةً كالشَّمْسِ، وزَوْجَتُه على خلافِ ذلك، تعلَّقَ قَلْبُه بهذه المرأة التي كالشَّمْس، وزَهِدَ في امْرَأَتِه.

﴿أَتۡرَابٌ﴾ يعني أَنَّهُنَّ على سِنٍّ واحِـدَةٍ؛ شابَّات بناتُ ثلاثٍ وثلاثيـنَ سَنَةً، كذلك أَهْلُ الجَنَّة يدخلون الجَنَّة وهُم أَبْناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنَةً، ولا يتغَيَّرُ أَحَدٌ منهم، يبقى على ما هو عليه، وكَوْنُهُن أترابًا، يُقالُ: إنَّهُنَّ أترابٌ في السِّنِّ، وأترابٌ في الجمالِ، وفي كُلِّ شيءٍ؛ لِئَلَّا يَميلَ الإِنْسَانُ إلى من فاقَتْ غَيْرَها، ويكون نَظَرُه إليهِنَّ على حَدٍّ سواءٍ.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في القِراءاتِ في ﴿تُوعَدُونَ﴾ [بالغَيْبَة، والخِطابِ التِفاتًا] الخِطابُ (ما تُوعَدونَ)، والغَيْبَةُ «ما يُوعَدونَ»، والقراءتانِ سَبْعِيَّتانِ، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْتِفاتًا] أَيُّهُمُ الذي فيه الْتِفاتٌ: الغَيْبَةُ أَمِ الخِطابُ؟

قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ لهم: غَيْبَةٌ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ يَدْعونَ: غَيْبَةٌ ﴿وَعِندَهُمۡ﴾ غَيْبَةٌ؛ إِذَن الالْتِفاتُ في أيِّ شيءٍ؟

الالتفات في الخِطابِ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني يقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على ضَميرِ الخِطابِ وعلى ضَميرِ الغَيْبَةِ يكون هذا خَبَرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ بأنَّ المذْكورَ هو الذي يُوعَدونَ به يَوْمَ القيامة.

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لِأَجْلِهِ] هذا ما مشى عليه المُفسِّر؛

أي: إنَّ اللامَ في قَوْلِه: ﴿لِيَوۡمِ﴾ للتَّعْليلِ.

ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ اللامَ للتَّوْقيتِ؛ فهي كقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] فاللامُ هنا بِمَعْنى (في) لأنَّها للتَّوْقيتِ؛ أي: هذا ما توعَدونَ في ذلك اليَوْم ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ وهو يَوْمُ القيامَةِ، وسُمِّي يَوْمَ الحِسابِ؛ لأنَّ النَّاس يُحاسَبونَ فيه على أعمالِهِم.

قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ إنَّ هذا؛ يعني: المُشار إليه؛ ما ذُكِرَ من نعيمِ الجَنَّةِ ﴿لَرِزۡقُنَا﴾ لَعَطاؤُنا، واللامُ في قَوْلِه: ﴿لَرِزۡقُنَا﴾ للتَّوْكيدِ، ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾: ﴿مِن﴾ حَرْفُ جرٍ زائدٌ لفظًا ومَعْنًى، نفاد: اسمٌ مجْرُورٌ لفْظًا بـ(مِن) في محَلِّ رفعِ مُبْتَدَأٌ مؤَخَّرٌ. ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انْقِطاعٌ، و(ما) هنا يتَّفِقُ فيها التَّميميُّونَ والحِجازِيُّونَ لِتَقَدُّمِ الخَبَرِ، ولا تكون ما حِجازِيَّةً إلا مع التَّرْتيبِ؛ لقَوْلِ ابْنِ مالِكٍ[1]:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ مَا دُونَ إِنْ   مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انْقطاع، والجُمْلَة حالٌ من (رِزْقُنا) أو خبر ثانٍ لـ(إن) أي: دائمًا أو دائِمٌ].

اختصارٌ شديدٌ من المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والجُمْلَة حال مِن (رِزْقُنا) وعلى هذا يكون المَعْنى ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انْقِطاع؛ دائمًا، أو نقول: خَبَرٌ ثانٍ لـ(إنَّ) هـذا لَرِزْقُنا، إنَّ هذا ما له مِنْ نفادٍ، ويكون التَّقْدير: (دائِمٌ)؛ إِذَن في الكَلام لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب.

---

(١) الألفية (ص:٢٠).

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرْآنَ الكريم ذِكْرٌ يُذكَـرَ به الله بتلاوَتِه، وذِكْرٌ يَتَذَكَّـر به الإِنْسَانُ معادَهُ ومَعاشَهُ، وذِكْرٌ يُذَكِّرُ به غَيْره، وقد ذكرنا هذا في أَوَّلِ السُّورَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بِشارَةُ المُتَّقينَ بأنَّ لهم حُسْنَ المآبِ؛ أي: المَرْجِع، وعلى العكس من ذلك غيرُ المُتَّقينَ لهم سُوءُ المآب؛ لأنَّ الله إذا حَكَم للشَّيء بِصِفَة من الصِّفات، فإنَّهُ يُحكَم له بِضِدِّه إذا انْتَفَتْ هذه الصِّفَة.

لو قال قائل: لماذا لا تقولون: إنَّهُ إذا انْتَفَـتْ هـذه الصِّفَة ولم تَثْبُـت الصِّفَـة المتضادَّة، فلا يستَحِقُّ الثَّناءَ المُثْبَت بالصِّفَةِ، ولا القَدْح الذي يكون بِضِدِّها؟

فالجَوَاب على ذلك أن نقولَ: لا شَكَّ أنَّ الأُمُـورَ طَرَفانِ ووَسَـطٌ، الطَّرَفـانِ مُتَضادَّانِ، والوَسَطُ بينهما، لكن قد دلَّ الكِتابُ والسُّنَّة على أنَّ التقوى وضِدَّها ليْسَتا طَرَفًا ووَسَطًا بل هما طَرَفانِ مُتقابلانِ، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢] فإذا ثَبَتَ للمُتَّقِينَ حُسْنَ المآبِ فلغَيْرِهِم سوءُ المآبِ، ولا نجعل هنا شيئًا وَسَطًا؛ لأنَّه لا وَساطَةَ بين الإيمانِ والكُفْرِ، والتَّقْوى والفُسُوقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على التقوى، وذلك بِذِكْر ثوابِها؛ لأنَّ الحَثَّ على الشَّيْءِ يكون بالأَمْـرِ به كما هو ظاهِرٌ، ويكون بالوَعيدِ على تَرْكِه والثَّناءِ على فِعْلِه، وطُرُقُ الحَثِّ على الشَّيْء مُتَنَوِّعَة، ومنها ذِكْرُ حُسْنِ المآبِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ الجنَّاتِ لهؤلاء، وأنَّها هي حُسْنُ المآبِ؛ لِقَوْلِه: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ولا شَكَّ أنَّ أَحسَنَ مآبٍ يَؤُوبُ إليه البَشَرُ هو الجنَّاتُ، فإنَّ فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، وكلُّ إِنْسَان مُؤْمِنٍ إنَّما يسعى إلى الوصول إلى هذه الغايَةِ العَظيمَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الجَنَّات دارُ إقامة؛ لِقَوْلِه: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ فالنَّاس مُقيمونَ فيها لا يَرْحَلون عنها، ولا يَبْغونَ عنها حِـوَلًا ففيها إقامتان: إقامَةٌ لا ارتِحالَ عنها، والإقامة الثَّانية لا يَبْغي المُقيمُ عنها حِوَلًا؛ يرى أنَّها مَحَلُّ إقامَةٍ وأنَّها أَشْرَفُ مكانٍ؛ وذلك لأَنَّه لو رأى أنَّ غَيْره أشْرَفُ منه لم يَتِمَّ نَعيمُه؛ لأَنَّه يرى أَنَّه قاصِرٌ، وهذا بخلاف أَهْل النَّار فَكُلُّ واحدٍ يرى أَنَّه لا أَحَدَ أَشَدُّ منه عَذَابًا؛ لأَنَّه لو رأى أن أحدًا أَشَدُّ منه عَذَابًا لتَسَلَّى به، لَكِنَّه بالعَكْسِ يرى أَنَّه أشدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

وأَهْلُ الجَنَّة لا يرى أَحَدُهم أنَّ أحدًا آخَرَ أكْمَلُ منه نعيمًا، على وجه يَفوقُه، بل يرى أَنَّه هو في أَكْمَل ما يكونُ من النَّعيمِ حتى لا يتنَغَّصَ عليه نَعيمُهُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ لِلْجَنَّةِ أبوابًا؛ لِقَوْلِه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: كَثْرَةُ الخَدَمِ المُسْتفادَة من قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ولم يَقُلْ: مَفْتوحةً، بل هي تُفَتَّحُ ويُسْتَقْبلونَ بها، كُلَّما دَنَوْا من غُرْفَةٍ فُتِّحَتْ لهم الأبوابُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أَهْلَ الجَنَّة يَطْلبونَ كُلَّ ما يَشْتَهونَ من الفَواكِهِ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ وفي سورَةِ الدُّخانِ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ لأَهْلِ الجَنَّة شَرابًا، يَدْعونَ فيها بِكُلِّ شرابٍ، وقد مَرَّ علينا في التَّفْسيرِ أنَّ أَنْواعَ الشَّرابِ أَرْبَعَةٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: ما في الجَنَّة من الأَزْواجِ المُطَهَّرَةِ العَفيفاتِ البالِغاتِ في الحُسْنِ غايَتَهُ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ قاصِراتُ الطَّرْفِ، خَيِّراتُ الأَخْلاقِ، طَيِّباتٌ

ليس فيهن نُشُوزٌ إطلاقًا؛ لِقَوْلِه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ في الدُّنْيا الزَّوْجَةُ تارةً تكونُ عندك، وتارة تَغْضَبُ وتذْهَبُ إلى أَهْلها، لكنْ في الجَنَّة زَوْجاتُهُم دائمًا عندهم، ليس هناك نُشُوز ولا غَضَبٌ، بل أخلاقٌ طَيِّبَةٌ على ما يَنْبَغي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كمالُ عِفَّةِ هؤلاء النِّساءِ لكَوْنِهِنَّ قاصِراتِ الطَّرْفِ على أزْواجِهِنَّ، لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجِهِنَّ، وفيها كمالُ جمالِ هؤلاء النِّساءِ؛ لأنَّهن يَقْصُرْنَ أطْرافَ أَزْواجِهِنَّ عليهن، فالزَّوْجُ لا ينْظُرُ إلى غَيْرها؛ لأنَّها قد مَلَأَتْ عَيْنَه، وسَرَّتْ قَلْبَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاء النِّساءَ أو هؤلاء الأَزْواجَ أتْراب مُتَساوياتٌ في السِّنِّ والخَلْقِ؛ بحيث لا تغارُ واحِدَة من الأخرى لكَوْنِها أجْمَلَ منها، أو أَسَنَّ منها، أو ما أشبه ذلك؛ لِقَوْلِه: ﴿أَتْرَابٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّهُم يُخاطَبونَ بما يَسُرُّهُم، ويُدْخِلُ السُّرور في قلوبِهِمْ؛ لِقَوْلِه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ عَكْسُ أَهْلِ النَّار فإنَّهُم يوبَّخونَ ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر:٥٠] وما أشبه ذلك، أَمَّا هؤلاءِ فيَدْخُل في قلوبهم السُّرورُ فيقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ به أَخَذْتُموه، ووَصَلْتم إليه، وجَنَيْتموهُ.

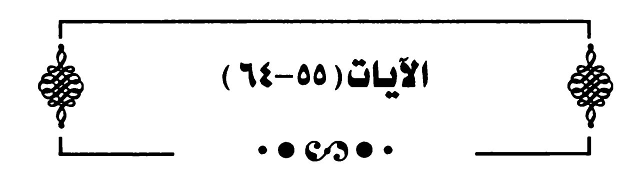
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إثْباتُ يَوْمِ القيامَةِ، وأنَّه يَوْمُ الحساب؛ لِقَوْلِه: ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: حَثُّ النَّاسِ على العَمَلِ؛ لأنَّه كُلَّما تذَكَّرَ الإِنْسانُ أنَّه سوف يُحاسَبُ عن عمله، فإنَّهُ سوف يَحْرِصُ ويَجْتَهِد في العَمَل حتى لا يُحاسَبَ على شيءٍ يكون عليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ التي وُعِدَ بها هؤلاء المُتَّقون فَضْلٌ من الله ومِنَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذا الرِّزْقَ لا يَنْفَدُ أبدًا، ولا يَنْقَطِع أبدًا؛ فالفاكِهَة في كُلِّ وقْتٍ، ولَحْمُ الطَّير في كُلِّ وقت، والشَّرابُ في كُلِّ وَقْت، والزَّوجاتُ في كُلِّ وَقت، وليس في الجَنَّةِ فَصْلُ صَيْفٍ ليس فيه فاكِهَةُ شِتاءٍ، ولا فيها فَصْلُ شتاءٍ ليسَ فيه فاكِهَةُ صَيْفٍ. بل كُلُّ شيءٍ ليس له نفادٌ.

• ● ۞ ● •



الآيات (٥٥-٦٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص:٥٥-٦٤].

• • • •

قال: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾: ﴿ هَٰذَا ﴾ مبتدأٌ، لا بدَّ له من خبرٍ، وخبَرُه محذوفٌ قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْلِه: [للمُؤْمِنينَ]، ولكنَّ الصَّحيحَ أن نُقدِّرَ: للمُتَّقينَ؛ لأنَّ الله قال: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ فالأَوْلى أن نقول: هذا للمُتَّقينَ، فما لغَيْرِهم؟

قال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ كلامٌ مُسْتأْنَفٌ ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ الطَّاغينَ: جَمْعُ طاغِيَة، والطَّاغي من تجاوَزَ الحدَّ، وَحَدُّ الإِنْسان أن يكون عبدًا لله مُمْتثِلًا لأَمْرِه مُجْتَنِبًا لِنَهْيِه؛ فمَنْ لم يَمْتثِلِ للأَمْرِ فهو طاغٍ، ومن ارتكَبَ النَّهْيَ فهو طاغٍ؛ قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٤٣].

فإن قال قائِلٌ: ما الشَّاهِدُ على أنَّ الطُّغْيانَ تجاوُزُ الحدِّ؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]. أي: لَمَّا تَجاوَزَ الماءُ حَدَّه.

﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: شَرَّ مَرْجِعٍ، و(شَرَّ) مَنْصوبَةٌ على أَنَّها اسْمُ إِنَّ مُؤَخَّر، ما هو شَرُّ المآبِ؟

قال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ هذا عَطْفُ بَيان ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وهِيَ نارُ جَهَنَّمَ، سُمِّيَتْ بهذا الاسْمِ لأَنَّها تتضَمَّنُ الجَهْمَةَ لسَوادِهَا؛ لأَنَّه ليس فيها نورٌ، ولِبُعْدِ قَعْرِها -والعياذُ بالله- فقد سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ ذات يَوْمٍ -وهو وأصحابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المدينةِ- وَجْبَةً؛ يعني وَقْعَةَ شَيْءٍ، فقال: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**»، قالوا: الله ورسوله أَعْلَمُ، قال: «**هَـذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِيـنَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»(١).

سبعون سنة! هو حَجَرٌ كبيرٌ له صَوْتٌ عَظيمٌ يَهْوي في النَّارِ؛ لأَنَّها بَعيدَةُ القَعْرِ جدًّا؛ ولِهَذا صارَتْ مُدْلَهِمَّةً -والعياذ بالله- سوداءَ.

وقيل: إنَّ لَفْظَ جَهَنَّمَ لَيْسَ عَرَبِيًّا، وإنَّ أَصْلَه في الفارسية: كِهْنام، ولَكِنَّه عُرِّبَ فصارَ جَهَنَّم، وعلى هـذا فلا يَرِدُ علينا أَنَّه مِنَ الجَهْمَة، وهو السَّوادُ والبُعْدُ، فيقال: جَهَنَّمُ اسْمٌ للنَّار، عَلَمٌ غَيْرُ مُشْتَقٍّ، وأَيًّا كان فهو اسْمٌ من أَسْماء النَّارِ، نعوذ باللهِ منها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال؛ لأن جَهَنَّمَ مَعْرِفَـةٌ، والمَعْرِفَـة تكون الجُمْلَـةُ بعدها حالًا. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يَدْخُلونَها]، لكن هذا لا يكفي، بل يَصْلَوْنَها:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها، رقم (٢٨٤٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُعَذَّبون بِصَلاها، وهو شِدَّةُ حَرِّها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: الفِراشُ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦]، وفي آيـة أخـرى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:٢٢]، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: هي؛ لأنَّه -والعياذ بالله- افِتـراشُها شديدٌ، ولِحافُها شَديدٌ، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] نعوذُ بالله.

﴿هَٰذَا﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: العَذابُ المَفْهومُ مِمَّا بَعْده ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾] اللامُ في قَوْلِه: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ للأَمْـر، والدَّليلُ على أنَّها لامُ الأَمْرِ ولَيْسـتْ لامَ التَّعْليلِ أنَّها سُكِّنَتْ بعد الفاءِ، ولامُ الأَمْرِ تُسكَّنُ بعد الفاءِ والواوِ وثُمَّ. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: فَلْيَكْتَووا بِحَرِّه، والاكتواءُ بِحَرِّه هو ذَوْقٌ، وذَوْقُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِه، فالطَّعامُ والشَّرابُ يَذوقُه الإِنْسَانُ بِمَذاقِ الفَمِ، والنَّارُ يَذوقُها بِحَـرارَتِها في أي مَوْضِعٍ من مواضِعِ الجِسْمِ، والبَرْدُ كذلك يَذوقُهُ بِلَسْعِهِ في أي مَوْضِعٍ من الجِسْمِ.

﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ قالَ المُفسِّـر: [أي: ماءٌ حارٌّ مُحْرِقٌ، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتَّخْفيـفِ والتَّشديدِ ما يسيلُ من صديدِ أَهْلِ النَّارِ] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾: مُبْتَدَأٌ، و﴿حَمِيمٌ﴾: خَبَـرٌ، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾: مَعْطوفٌ عليه، وتكونُ جُمْلَة ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُعْتَرِضَة بين المُبْتَدَأ والخَبَـر للمُبادَرة بإهانَتِهم؛ فإنَّ قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ لا شَكَّ أنَّه إهانَةٌ، فمِنْ أَجْلِ المبادَرَةِ قُدِّمَ هذا على الخَبَرِ؛ أي: قُدِّمَ قولُه: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ وأَصْلُ الكَلامِ على التَّرْتيبِ: هذا حَميمٌ وغَسَّاقٌ فَلْيَذوقوهُ.

انْظُرْ للشَّرابِ ﴿حَمِيمٌ﴾: ماءٌ حارٌّ، وليست حرارَتُه سَهْلَةً أو يسيرَةً؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] أَوَّلًا لا يَأْتيهِمْ هـذا الشَّرابُ بِسُهولَةٍ، إنَّما يأتيهم بَعْدَ أن يَعْطَشوا عَطَشًا شديدًا ثم يَسْأَلوا الله أن يُغيثَهُم مِنْ هذا العَطَشِ، وإذا أُغيثوا يُغاثوا بهذا الماءِ كالمُهْلِ يَشْوي الوُجوهَ، إذا دَنا من وُجوه

من يَشْربونَه شَواها، قال العُلَماء: تَتَساقَطُ لحُومُ الوَجْهِ، ثم إذا شَربوا في البُطُونِ قَطَّعَ أَمْعاءَهُم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [مُحَمَّد:١٥] فيُقَطِّعُ ظاهِـرَهُم وباطِنَهُم والعياذُ بالله.

قارِنْ بين هذا الشَّرابِ وبَيْنَ شَرابِ أَهْلِ الجَنَّة: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [مُحَمَّد:١٥] ومع ذلك يَشْربونَ ما يَشاؤُونَ، وهذه الأَنْهارُ لا تجري في أخاديدَ، ولا ضِمْنَ جُدْرانٍ تَمْنَعُ سَيَلانَ الماءِ، إنَّما تجري على وَجْهِ الأَرْضِ؛ قال ابن القَيِّمِ في النُّونِيَّة[1]:

أَنْهَارُهَا فِي غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ سُبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الْفَيَضَـانِ

والغَسَّاقُ أيضًا -والعياذُ بالله- بِمُجَرَّدِ ما تَسْمَعُ معناه تَشْمَئِـزُّ؛ صديدُ أَهْـلِ النَّارِ، الصَّديدُ الذي يجري من أَجْسامِهِم مِنِ احْتِـراقِها هذا أيضًا نوعٌ مِنْ شَرابِهِم، فصار شَـرابُهُم إما ماءً حارًّا يَشْوي الوُجُوهَ ويَقْطَعُ الأَمْعاءَ، وإمَّا صَديدَ أَهْلِ النَّار ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاخَرُ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالجَمْعِ والإفراد] ﴿وَءَاخَرُ﴾ مُفْرَدٌ و«أُخَرُ» جَمْعٌ، ففيها قراءتانِ سَبْعِيَّتانِ، ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: من جِنْسِـه، [أي: مِثْل المذكـورِ مِنَ الحَميمِ والغَسَّـاق ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أصنافٌ؛ أي عَذابُهُم من أَنْـواعٍ مُخْتَلِفَة].

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من جِنْسِه، ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أصنافٌ من العَذابِ يُعَذَّبون بها كما

---

(١) النونية (ص:٣٢٦).

أراد الله عَزَّوَجَلَّ، ويُهانونَ غايَةَ الإهانَةِ، يُقَرَّعونَ ويُوَبَّخونَ، ثم يُمَنَّوْنَ بالخُرُوجِ؛ تَرْتَفِعُ بهم النَّارُ حتى يَقْتَرِبوا من أبوابِها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠] وهذا من شِدَّةِ العَذَابِ.

لو أنَّ شَخْصًا مَحْبوسًا، وكان يُقَرَّبُ من البابِ، يَظُنُّ أنَّه سيخرج، فإذا به يُرَدُّ، فهذا أشَدُّ عَذَابًا عليه مِمَّا لو بَقِيَ في مكانِهِ، فهم يُنَوَّعُ عليهم العَذَابُ أنْواعًا عَظيمَة لا تَخْطُرُ بالبالِ، ولا تدورُ في الخَيالِ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾: أصنافٌ؛ أي: عَذَابُهم من أنْواعٍ مُخْتَلِفَة، ويقالُ لهم عند دُخولِهِمُ النَّارَ بأتباعِهِمْ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جَمْعٌ ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخِلٌ ﴿مَّعَكُمْ﴾ النَّارَ بِشِدَّةٍ، فيقول المَتبوعونَ: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي: لا سَعَةَ عَلَيْهِم؛ ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي: الأَتْباعُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: الكُفْرَ ﴿لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولَكُم النَّارُ].

أعوذ بالله ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] انْظُرْ كيف العداوةُ بينَ أَهْلِ النَّارِ؟! ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨] وهكذا المُجْرِمون في الدُّنْيا الذين يُوالِي بعضُهُم بَعْضًا سوف يكونون يَوْمَ القيامَةِ أعداءً؛ فلا وَلَايَةَ لأَحَدٍ في الآخِرَة إلا من كان مُتَّقِيًا، هؤلاء هم الذين تبقَى وَلايَتُهُم، وأَمَّا غير المُتَّقينَ فهم وإن كانوا أولياءَ في الدُّنْيا فإنَّ وَلايَتَهُم في الآخِرَة تزولُ نِهائيًّا.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفَوْجُ: الطَّائِفَة، والغالِبُ أنَّها تكون للطَّائِفَة الكبيرةِ ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخِلٌ بِمَشَقَّةٍ؛ لأنَّ الاقتحامَ لا بدَّ أن يكون هناكَ ازْدِحامٌ شديدٌ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١] أي: صَعَدَها بِشِدَّةٍ، هؤلاء أيضًا يَدْخُلونَ

النَّارَ بِزِحامٍ شديدٍ، فهو فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ معكم؛ أي: يقالُ لهم، إذا دخلوا النَّارَ، وهذا من قِيلِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضِهم لبعضٍ، أو مِن قِيلِ خَزَنَةِ جهَنَّمَ للقادَةِ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾: يَعْنونَ الأَتْباعَ، داخِلٌ معكم النَّارَ، فيقولُ القادَةُ والرُّؤَساءُ المَتبوعونَ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا نُريدُهُمْ، نَتبَرَّأُ منهم، ولا تَتَّسِعُ صُدورُنا ولا أَمْكِنَتُنا لهم، والمَرْحَبُ مأخوذٌ من الرَّحَبَةِ، وهي السَّعَةِ، فيقولون: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا نُرَحِّبُ بهم ولا نُريدُهُم، بل نحن نُنابِذُهُم غايَةَ المُنابَذَةِ.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاءِ الذين اقْتَحَموا معنا ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ كما صَلِيناها، فيُجيبُ أَتْباعُ هؤلاء الرؤساءِ المَتْبوعينَ: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾: ﴿بَلْ﴾ إِضْرابُ إبطالٍ، يعني: أَبْطَلُوا قَوْلَهُم.

﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يعني: قدَّمْتُمْ لنا الكُفْـرَ، وسَهَّلْتُم لنا سلـوكَ سُبُلِه، وزَيَّنْتموه في نُفوسِنا حتى تَبِعْناكُم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم النَّارُ؛ أعوذ بالله، كُلٌّ منهم الآن يَتبَرَّأُ من الآخر!

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا﴾ أي: الأَتْباعُ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [أي: مِثْلَ عَذابِهِ على كُفْرِهِ في النَّار].

﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: مَنْ قَدَّمَ لنا الكُفْرَ، وهم المَتبوعونَ ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ضِعْفًا يعني زائدًا على عَـذَابِ الأصْلِ؛ يعني: عَـذِّبْهم لِكَوْنِهِم كفَـروا، وعذِّبْهم لكَوْنِهم قَدَّمُوا لنا هذا الكُفْرَ، ولكن هذا ليس إليهم؛ فلِكُلِّ امْرِئٍ منهم ما عَمِلَ، وهؤلاء المَتبوعونَ هل أَجْبَروا الأَتْباعَ على اتِّباعِهِم؟

أبدًا لم يُجْبِـروهم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧-٤٨] حَكَمَ بَيْنَهم بعَدْلِه فجازى كُلَّ واحِدٍ منهم ما يَسْتَحِقُّ.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُواْ﴾ أي: كُفَّارُ مَكَّةَ وهم في النَّارِ] والصَّوابُ: أنَّ المرادَ بهم كُلُّ الكُفَّارِ.

الكُفَّارُ يَرَوْن أنَّ المُؤْمِنين كلَّهُم ضالُّون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢] وليس هـذا خاصًّا بكُفَّارِ مَكَّةَ؛ كلُّ الكُفَّارِ إلى اليَوْمِ يَرَوْنَ أنَّ المُؤْمِنيـن أشْـرارٌ ضالُّون، ويَصِفـونَهم بأنَّهم طُغـاةٌ مُفْسِدونَ في الأَرْضِ.

والحقيقةُ أنَّ الأَمْرَ بالعكس؛ الطُّغاةُ المُفْسِدونَ في الأَرْضِ الضَّالُّونَ الظَّالِمونَ المُعْتَدون هم الكافِـرونَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] فلا أَحَدَ أَشَدُّ فسادًا وعُدوانًا وظُلْمًا وطُغْيانًا من الكافرِ؛ لأنَّه يتَمَتَّعُ بنِعَمِ الله ويبارِزُ الله بالكُفْرِ به.

ثم يقول الكُفَّار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ كنا؛ أي: في الدُّنْيا ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ نَعَدُّهُم؛ يعني باعْتِقادِنا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: في الدُّنْيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلَمْ نَرهُم؟].

يقول بعضُهم لبَعْضٍ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ ما لنا لا نرى فُلانًا وفُلانًا الذين كُنَّا نَعدُّهُم من الأشـرارِ؟ هل نحن اتَّخَذْناهُم في الدُّنْيا سِخْرِيًّا؛ نَسْخَرُ بهم ونقول: أنتم الشَّرُّ، وأنتم الطُّغاة، وما أَشْبَهَ ذلك، وهم ليسوا كذلك؟

أم أنَّهُم كما تَصَوَّرناهُم في الدُّنْيا وعَدَدْناهُم من الأشـرار وأنَّهم الآن في النَّار، لكنَّ أَبْصارَنا زاغَتْ عنهم.

فانظر كيفَ الاهتمام؟! يقولون: هل نَحْنُ اتَّخَـذناهُم سِخْرِيًّا في الدُّنْيا وقلنا: إنَّهُم من الأَشْـرارِ وهم ليسوا منهم؟ هذا أوَّلًا، وإذا كانوا ليسوا منهم فلن يَدْخلوا النَّار، أم أنَّهُم كانوا أشْرارًا حَقيقَـةً، وأنَّ قَوْلَنا: إنَّهُم كانوا أشرارًا، كلامٌ جِـدٌّ، وهم الآن في النَّارِ، ولكن زاغَتْ عنهم أبصارُنا؟ والجَوَاب الأوَّلُ هو الحقيقِيُّ.

ولِهَذا قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ الهَمْزَةُ: للاسْتِفْهامِ الإنْكَارِيِّ، سقطـت لأَجْلِها هَمْـزَةُ الوَصْلِ؛ اسْـتِغْناءً عنها، واتَّخَـذْناهُم: فعلٌ ماضٍ، وفاعلٌ، ومفعولٌ به أوَّلُ، وسِخْرِيًّا: مفعولٌ به ثانٍ، [بِضَمِّ السِّينِ «سُخْرِيًّا» وكَسْرِها ﴿سِخْرِيًّا ﴾ أي: كُنَّا نَسْخَرُ بهم في الدُّنْيا، والياءُ للنَّسَبِ] فالسُّخْرِيُّ أقْوَى من السُّخْر، كما قيل في الخُصُوص: خُصُوصِيَّة، للدَّلالَة على قُوَّةِ ذلك، فافهمه، فإنَّهُ جَيِّدٌ.

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ [أي: أَمفْقودونَ هم ﴿أَمْ زَاغَتْ ﴾ مالَـتْ ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلم نَرَهُم؟].

والجَوَابُ أن يقالَ: إنَّكُم اتَّخَذْتُمُوهُم سِخْرِيًّا وسَخِرَتْم بِهِم، واسْتَهْزَأْتُم بهم، ووَصَفْتُموهُم بالعَيْب والشَّرِّ، وهم بُرآءُ منه.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ زَاغَتْ ﴾: مالَتْ ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلم نَرَهُم؟ وهم فُقَرَاءُ المُسْلمينَ؛ كَعَمَّارٍ وبَلالٍ وصُهَيْبٍ وسَلْمَانَ] هذا بناء على أنَّ القائلينَ كُفَّارُ مَكَّةَ، أَمَّا إذا قلنا بالعُمُومِ، فَكُلُّ زمانٍ له أَهْلٌ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي: المُشَارَ إليه من

كُلِّ ما ذُكِرَ مِن تَخاصُمِ أَهْلِ النَّار ﴿لَحَقٌّ﴾؛ أي: أَمْرٌ ثابِتٌ واقِعٌ، وهذا تأكيدٌ لخَبَرِ الله عَزَّوَجَلَّ، مع أنَّ خَبَرَ اللهِ كلَّه حَقٌّ وصِدْقٌ وثابِتٌ، والمراد بالحَقِّ هنا الصِّدْقُ؛ لأنَّه إخبارٌ عن أمْرٍ سيقَعُ.

وقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾: ﴿تَخَاصُمُ﴾ بَدَلٌ أو عَطْفُ بيانٍ؛ لِقَوْلِه: (حَقٌّ) والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّرَهُ خبرًا لمُبْتَدَأٍ محْذوفٍ فقال: [وَهُو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ كما تَقَدَّمَ] يَتخاصَمُ الأتباعُ مع المَتْبوعينَ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كمالُ القُرْآنِ في التَّعْليمِ والتَّبْليغِ، وأنَّه مَثانٍ؛ إذا ذُكِرَ المُتَّقونَ وثَوابُهم ذُكِرَ المُجْرِمون وعقابُهُم؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ الطَّاغون ضِدُّ المُتَّقينَ لهم شَرُّ مآبٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنْبَغي للدَّاعِيَة إلى الله أن تكونَ دَعْوَتُه تارةً بالتَّرْغيب، وتارة بالتَّرْهيبِ، بل الأَفْضَلُ أن يجْعَل دَعْوَته مُشْتَمِلَةً على التَّرغيب والتَّرْهيب؛ وذلك لأنَّها -أي: الدَّعْوَةَ- إذا كانت مُقْتَصِرَةً على التَّرغيبِ صارَتْ سببًا للأَمْنِ من مَكْرِ الله، وأنْ يتمادى الإِنْسَانُ في مَعصِيَةِ الله، ويرجو الله، وإذا كانت مشتمِلَةً على التَّرْهيبِ صارت سببًا للقُنُوطِ من رَحْمَةِ الله، واستبعادِ الرَّحْمَة.

وهذا ضَرَرٌ، بل يَنْبَغي أن يكونَ الدَّاعِيَة جامِعًا بين هذا وهذا؛ لِيَحْمِلَ النَّاسَ على الرَّجاءِ وعلى الخَوْفِ؛ ولهذا قال الإمامُ أَحْمَدُ: يَنْبَغي أن يكون خَوْفُه ورَجاؤُه واحِدًا، فأَيُّهُم غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه. وقال بعض أَهْلِ العِلْمِ: الرَّجاءُ والخَوْفُ كالجَناحَيْنِ للطَّائِرِ إن انْخَفَضَ أَحَدُهُما سقط الطَّائِرُ، وإن تساويا صار طَيَرانُه مُتَّزِنًا.

وقال بَعْضُ أَهْل العِلْم: يَنْبَغي للإِنْسَانِ عنـدَ فِعْلِ الطاعة أن يُغلِّبَ جانِـبَ الرَّجاءِ، وعند الهَمِّ بالمَعصِيَةِ أن يُغلِّبَ جانِبَ الخَوْفِ؛ لأَنَّه إذا فعَلَ الطَّاعَةَ فقد فَعَلَ سَبَبَ الرَّجاءِ، وإذا فعل المَعصِيَةَ فقد فَعَلَ ما يكون سَبَبًا للخَوْفِ.

وقال بعض العُلَماءِ: يَنْبَغي في حالِ الصِّحَّةِ أن يُغَلِّبَ جانِبَ الخَوْفِ، وفي حالِ المَرَضِ أن يُغَلِّبَ جانِبَ الرَّجاءِ حتى يموتَ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولَعَلَّ القَوْلَ الوَسَطَ هو أنَّ الإِنْسَانَ إذا فعل المَعصِيَةَ أو هَمَّ بها غلَّب جانِـبَ الخَوْفِ، وإذا فَعَلَ الطَّاعَةَ أو همَّ بها غلَّبَ جانِبَ الرَّجاءِ، وهذا قولٌ طَيِّبٌ، ولكن ليس قولُنا: أن يُغَلِّبَ جانِـبَ الرَّجاءِ أو الخَـوْف ألا يكون لديه شَيْءٌ من الطَّـرَفِ الآخَرِ، بل يجمع بين هذا وهذا، لكِنَّ الكَلام على التَّغْليبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الطَّاغينَ مآبُهُم شَرُّ مآبٍ، بخلافِ المُتَّقينَ فإنَّ مآلَهُم أَحْسَنُ مآبٍ؛ الطَّاغونَ مآلُهُم شَـرُّ مآبٍ؛ لأنَّ مآلَهُم إلى جهنم -والعياذ بالله- وقد ذَكَرَ الله تعالى من أَنْواعِ العُقُوباتِ في هذه الدار ما يكفي رَدْعًا للمُؤْمِنِ عن المَعصِيَةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مِن أَسْماءِ النَّارِ جَهَنَّمَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء يَصْلَوْنها؛ أي: يَقَعونَ في صَلاها؛ أي: حَرِّها الذي لا يُمْكِنُ أن يَبْـرَد أبدًا، لكن مع ذلك وَرَدَ أَنَّهُم يُطافُ بهم أحيانًا في زَمْهَريرٍ شَديدِ البُرُودَةِ، وأحيانًا في نارٍ شَديدَةِ الحرارَةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الثَّناءُ بالقَدْحِ على هذه الدَّارِ؛ أي: ذَمِّ هذه الدَّارِ، أَمَّا الجَنَّةُ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠] فمَدَحَ دارَ المُتَّقينَ، أَمَّا هذه فقال هنا: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ فأثْنَى عليها بالقَدْحِ والقُبْحِ والسُّوءِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أَهْلَ النَّارِ -والعياذ بالله- يَذوقونَه؛ أي: العَذَابَ، بين حَميمٍ وغَسَّاقٍ؛ أي: يُسْقَوْنَ ماءً حارًّا وصديدَ أَهْلِ النَّارِ الغَسَّاقَ -والعياذ بالله- والإِنْسَانُ منهم ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تَنْويعُ العَذَابِ للطُّغاةِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أصنافٌ مُتَنَوِّعَةٌ من العَذَاب، وهذه الأصنافُ مذكورةٌ في الكتاب والسُّنَّة؛ فمن أَحَبَّ أن يُراجِعَها فلْيُراجِعْها في الكُتُبِ المُؤَلَّفَة في ذلك.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَنازعونَ فيما بينهم ويتخاصَمونَ ويَتلاعَنونَ، كُلَّما دخل فَوْجٌ لعَنَ الثَّانيَ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨] وهنا يقول الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الأَتْباعَ والمَتبوعينَ من أَهْل النَّارِ كُلُّهُم يكونون في النَّار، فلا يُعْذَرُ هؤلاء بِتبَعِيَّتِهم للسَّادَةِ والكُبَراءِ، ولكن هذا ليس على إطلاقِهِ؛ فإنَّهُ قد دَلَّتِ النُّصوصُ على أنَّه لا يُعَذَّبُ أحَدٌ حتى تقوم عليه الحُجَّة، وعلى هذا فيُحْمَلُ الأَتْباعُ هنا على الأَتْباعِ الذين بَلَغَتْهُم الحُجَّة وبلَّغَتْهُمُ الرُّسُلُ، ولكن قالوا: إنَّا وَجَدْنا آباءنا على أُمَّةٍ؛ ولهذا قال تعالى في الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٦-٦٨] فدل هذا على أنَّ هؤلاء الأتباعَ قد قامت عليهم الحُجَّةُ؛ ولهذا يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يُكَلِّمُ بَعْضُهم بعضًا، ويَنْظُر بَعْضُهم إلى بعضٍ، وهم ليسوا أحياءً ولا أَمْوَاتًا، لَيْسوا أحياءً مُنَعَّمين، ولا أمواتًا مُسْتَرِيحِينَ، بل هم أحياءٌ مُعَذَّبونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَبَرُّؤُ التَّابعِ من المَتْبوعِ، وبالعكس كما دلت على ذلك آياتُ سُورَةِ البَقَرَةِ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَذَكَّرونَ ما جرى لهم في الدُّنْيا؛ لِقَوْلِه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ وكذلك أَهْلُ الجَنَّة يتذكَّرون ما كان لهم في الدُّنْيا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ يقول لصَحْبِهِ الذين معه في الجَنَّة ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ رأى قَرِينَهُ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ وهو يَسْمَعُ؛ هذا في أعلى عِلِّيِّينَ، وهذا في أسْفَلِ السَّافلينَ يَسْمَعُ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥١-٥٧] أي: من المُحْضَرينَ في العَذَاب كما أنت مُحْضَرٌ في العَذَاب.

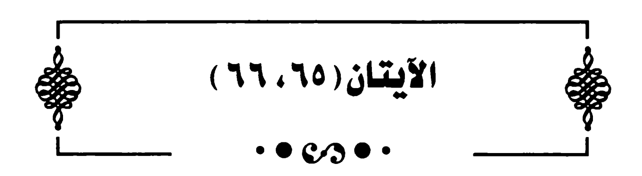
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: قُصُورُ عَقْلِ أَهْلِ النَّار؛ حيث قالوا: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ لأنَّهم إذا لم يَرَوْهُم الآن فهم إمَّا أنَّهُم ليسوا في النَّارِ، وإمَّا أنَّ هؤلاء قد زاغَتْ أبصارُهُم، وقد صرَّحوا بذلك في قَوْلِهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فيقال: إنَّ الواقِعَ أنَّكُم الآن مُقَصِّرونَ إمَّا في الدُّنْيا وإمَّا في الآخِرَة، إن كنتم اتَّخَذْتُمُوهُم سِخْرِيًّا فهذا تقصيرٌ في الدُّنْيا، وإن كانَتْ أَبصارُكُمْ زاغَتْ عَنْهُم فهذا

قصورٌ في الآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذا الخِصامَ الذي يَقَعُ بين أَهْل النَّارِ حَقٌّ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾.

ويَتَفَرَّعُ عن هذه الفائِدَة: أنَّه يَجِبُ على كُلِّ أَحَدٍ ألَّا يَغْتَرَّ بالسَّادَةِ والمَتْبوعِينَ، بل يكون هَمُّه نَفْسَه.

• ● ❁ ● •



الآيتان (٦٥، ٦٦)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص:٦٥-٦٦].

• ● ● •

ثم أمر الله رسولَه مُحَمَّدًا ﷺ أن يقولَ لكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ﴿قُلْ﴾ لا شَكَّ أنَّ الخِطابَ للرَّسُولِ ﷺ، وأنَّه من الخِطاب الخاصِّ به؛ لأنَّ الإنذارَ الذي هو إنذارُ الرِّسالَة خاصٌّ بالرَّسُولِ ﷺ.

وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ لكُفَّارِ مَكَّة] وَجْهُ التَّخْصيصِ أنَّ هذه السُّورَة مَكِّيَّةٌ قبل أن يهاجِرَ النَّبِيُّ ﷺ، فيكون الخِطابُ المُوَجَّهُ إليه بالإِعلامِ بأنَّه مُنْذِرٌ خاصٌّ بأَهْلِ مَكَّةَ، ولَكِنَّه يقال: إنَّ الأولى أن يَجْعَلَها عامَّةً، وأن يقال: العِبْرَة بعُمُومِ اللَّفْظِ لا بِخُصوصِ السَّبَبِ والمَكانِ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مُخَوِّفٌ بالنَّارِ الكُفَّارَ، فالإنذارُ بالنَّارِ للكُفَّارِ، والبِشارَةُ بالجَنَّةِ للمُؤْمِنين، لكِنَّ المقامَ هنا يقتضي الإنذارَ.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ هذا حَصْرٌ من أعْظَمِ أَنْواعِ الحَصْرِ؛ لأنَّه مَبْنِيٌّ على النَّفْيِ والإِثباتِ، والنَّفْي المؤَكَّد بـ(مِنْ) ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنَّ (مِنْ) حَرْفُ جَرٍّ زائِدٌ، والزائِدُ يُفيدُ زيادَةَ المَعْنى في القُرْآنِ الكريم.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: ما مِن مَعْبودٍ حَقٌّ إلا اللهُ، وإلا فهناك آلِهَةٌ تُعْبَدُ لكن

لَيْسَت بآلِهَة حقًّا، بل هي أَسْماءٌ سمَّاها أصحابُها، ما أنزل الله بها من سُلْطَانٍ؛ ولهذا لا يَعْبدونها العِبادَةَ الحقَّةَ، إذا أصابَهُمُ الضُّرُّ يَدْعونَ اللهَ وحده، وهم بِلِسانِ حالِهم يَشْهَدون بأنَّ هذه الأَصنامَ التي يَعْبدونَها لَيْسَتْ آلِهَةً.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: ما مِنْ إلهٍ حَقٍّ إلا اللهُ خالِقُ السَّمَواتِ والأَرْض عَزَّوَجَلَّ، الواحِدُ الذي لا شريكَ له، القهَّارُ الذي لا غالِبَ له، بل هو قاهِرٌ لخَلْقِه، والقهار هنا يَجوزُ أن يكون التَّضْعيفُ فيها للنِّسْبَة، ويجوز أن يكون التَّضْعيفُ فيها للتَّكْثيرِ فتكون صيغَةَ مبالَغةٍ، ويُمْكِن أن نقولَ: إنَّها للأَمْرينِ جميعًا، فالله تعالى من صفاتِهِ اللازِمَة له أنَّه قهَّارٌ، ولِكَثْرَةِ من يَقْهَرُهم من الجبابِرَة يَكْثُرُ قَهْرُه، فتكون هذه للنِّسْبَة وللتَّكْثيرِ الذي يُسَمَّى المبالَغَة.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: ﴿رَبُّ﴾ هذه بدَلٌ من ﴿ٱللَّهُ﴾ ويجوز أن تكون خَبَرًا لمُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ تَقْديرُهُ: هو ربُّ.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سبق الكَلامُ عليهما كثيرًا.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مِنَ المَخْلوقات العَظيمَةِ التي نَعْلَمُها والتي لا نَعْلَمُها، وقد سبق لنا أن بيَّنَّا أنَّ كَوْنَ الله تعالى يَجْعَلُ ما بين السَّمَوات والأَرْض قَسيمًا للسَّمَواتِ والأَرْضِ يَدُلُّ على عِظَمِ ما بينهما من المَخْلوقاتِ التي لم نَصِلْ إلى الآن إلى غايَتِها.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الغالِبُ على أَمْرِه] وهذا أَحَدُ معاني العزيزِ؛ لأنَّ العزيز له ثلاثَةُ معانٍ: العزيزُ بِمَعْنى ذي القَدْرِ والشَّرَفِ، والعزيزُ بِمَعْنى القَهْرِ والغَلَبَةِ، والعزيزُ بِمَعْنى الذي يَمْتَنِع أن ينالَهُ السُّوءُ، مأخوذ من أَرْضٍ عَزازٍ؛ أي: صُلْبَةٍ لا تُؤَثِّرُ فيها الفُؤوسِ.

إِذَن: العِزَّةُ لها ثلاثَةُ معانٍ: عِزَّةُ القَدْر، وعِزَّة القَهْرِ، وعِزَّةُ الامْتِناعِ؛ أي: يَمْتَنِعُ أن ينالَهُ السُّوءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: الكثيرُ المَغْفِرَة، ولنا أن نَجْعَلَها نِسْبَةً؛ أي: إنَّه موصوفٌ بالمَغْفِرَة دائمًا؛ فما أَكْثَرَ مَنْ يَغْفِرُ الله لهم! وما أَكْثَرَ الذُّنوبَ التي يَغْفِرُها الله عَزَّوَجَلَّ! وهنا قرن العِزَّة بالمَغْفِرَة فأكْسَبَ معنًى ثالثًا غَيْرَ العِزَّةِ والمَغْفِرَة، وهو أنَّه مَعَ عِزَّته وغَلَبَتِه وقَهْرِه، هو مع ذلك غفَّارٌ بخلاف من يتَّصِف بالعِزَّة من المَخْلوقينَ فإنَّهُ في الغالب تكونُ عِزَّته تَغْلِبُ مَغْفِرَتَه، أو منِ اتَّصَفَ بالمَغْفِرَة فتجِدُ عنده ضعفًا وليس عنده عِزَّةٌ، فإذا اجْتَمَعَتِ العِزَّةُ والمَغْفِرَة حصل من ذلك معنًى مُرَكَّبٌ من اجتماعهما، وهو أكْمَلُ ممَّا لو انفرد أحَدُهُما، ولا شَكَّ أنَّ غَلَبَةَ المَغْفِرَة على العِزَّة فيها نَقْصٌ، وغَلَبَةَ العِزَّةِ على المَغْفِرَة فيها نَقْصٌ؛ فإذا اجتمعا جميعًا صارَ هذا أكْمَلَ؛ أي: إنَّ عِزَّتَهُ وغَلَبَتَهُ وقَهْرَهُ لا تخلو من المَغْفِرَة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَمْرُ النَّبيِّ ﷺ بإعلان رسالَتِه؛ لِقَوْلِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنْبَغي في الكَلام مراعاةُ الحالِ؛ حيث إنَّ المقامَ هنا مقامُ تَهْديدٍ، فلِهَذا اقْتَصَرَ على الإنذارِ فقط، مع أنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَوْحيدُ الله تعالى بالأُلُوهِيَّة ونَفْيُها عما سواه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الأَسْماءَ لا تُغَيِّرُ المُسَمَّيَاتِ، فإن هناك من يُسَمَّى إلهًا ولَكِنَّه حقًّا ليس بإِلَهٍ.

ويَتَفَرَّعُ عن هذه الفائِدَة: أنَّنا لو سَمَّيْنا الشَّيْءَ المُحَرَّمَ باسمِ حلالٍ فإنَّهُ لا يتغيَّرُ الحُكْمُ فيه؛ ولِهَذا جاء في الحديث: «**أنَّه يَشْرَبُ الخَمْرَ أُنَاسٌ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**»(١) وهذا يدلُّ على أنَّ الأَسْماء لا تُغَيِّرُ المُسَمَّياتِ والحقائِقَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ الوَحْدانِيَّة لله في قَوْلِه: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على النَّصارى القائلين بأنَّ الله تعالى ثالِثُ ثلاثَةٍ.

ويَتَفَرَّعُ عن هذه الفائِدَة أيضًا: أنَّ دينَهُمْ كَذِبٌ، وأعني دينَهُمُ الذي يَدينونَ به الآن؛ لأنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُمْكِنُ أن يأتِيَ بآلِهَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ ولِهَذا يقول له الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْباتُ القَهْرِ التَّامِّ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا يَسْتَلْزِم للمُؤْمِنِ به أن يخاف من الله عَزَّ وَجَلَّ مِن قَهْرِه، ويَسْتَلْزِم أيضًا تَقْوِيَة المُؤْمِن الواثِقِ بالله في قَهْرِ أعدائه؛ لأَنَّكَ إذا وَثِقْتَ بأنَّ الله هو القهَّار، وأنَّ الله معك لكَوْنِك أتيت بالأوصافِ التي تَسْتَوْجِب مَعِيَّةَ الله لك، فإنَّ هذا يقوِّيكَ على عَدُوِّكَ، وتَعْلَمُ أنَّ هذا العَدُوَّ لا بدَّ أن يكون مَقْهورًا بقهر الله عَزَّ وَجَلَّ.

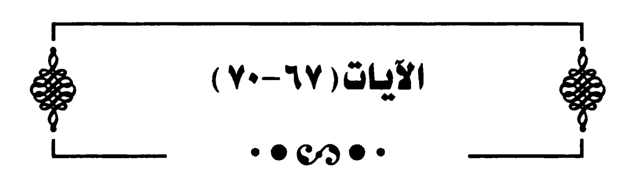
---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٢)، وأبو داود: كتاب الأشربة، باب في الداذي، رقم (٣٦٨٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٠)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ عُمُومِ رُبوبِيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ لأنَّ السَّمواتِ والأَرْضَ وما بينهما هي كُلُّ الكَوْنِ الذي نَعْلَمُ به، ولعَلَّ العَرْشَ والكُرْسِيَّ داخِلٌ في السَّمَوات من حيثُ العُلُوُّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إِثْباتُ اسْمَيْنِ من أَسْماءِ الله وهما: العَزيزُ والغفَّار، وإثباتُ ما تَضَمَّناهُ من الصِّفَة مُجْتَمِعَيْنِ ومُنْفَرِدَيْنِ، وهما أي: العِزَّةُ والمَغْفِرَةُ مُجتَمِعَيْنِ أقوى وأَشَدُّ وأَعْظَمُ في كمالِ العِزَّة والمَغْفِرَة.

• • ❁ • •



الآيات (٦٧-٧٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص:٦٧-٧٠].

•••

ثم يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ هو؛ أي: النَّبَأُ الذي أَنبأْتُكم به والذي جئْتُ به مُنْذِرًا؛ نبأٌ عظيمٌ، والنَّبأ بِمَعْنى الخَبَرِ، لَكِنَّه لا يكون إلا في الأَمْرِ الهامِّ؛ قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النَّبأ:١-٢] ووصَفَ الله هذا النَّبَأَ بأَنَّه عظيمٌ، وهو القُرْآنُ، وقد وصف الله القُرْآنَ بأَنَّه عَظيمٌ وكَريمٌ ومَجيدٌ؛ لأَنَّه يتَّصِفُ بهذه الصِّفاتِ، ومن أَخذَ به نال من هذه الأَوْصافِ بِقَدْرِ ما أخذ به.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ جُمْلَة اسْتِئْنافِيَّةٌ يُرادُ بها لَفْتُ الانتباهِ إلى فَداحَةِ ما يرتكبونه من جَريرَةِ الإِعْراضِ عن ذلك النَّبَأِ، وهو القُرْآن، وشِدَّةُ الشَّناعَةِ على هؤلاء المُكَذِّبينَ لِرَسولِ الله ﷺ فهم مع هذا النَّبَأِ العَظيمِ لم يُقْبِلوا عليه، بل أَعْرَضوا عنه، ولم يَلْتَفِتوا إليه، ولم يُقيموا له وزنًا.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ﴾ يعني: هـذا النَّبَأُ العَظيمُ لا يُمْكِن أن آتِيَ به من عِنْدِ نفسي؛ لأَنَّه ليس لي عِلْمٌ بالمَلَأِ الأَعْلى، يعني: المَلائِكَة؛ فهم مَلَأٌ لَكِنَّهم فَوْق، إذ إنَّ الأَصْلَ في مساكِنِهم السَّمَواتُ، ولكن يَنْزِلون إلى الأَرْضِ لأَداءِ الوَظائِفِ التي كُلِّفوا بها.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المَلائِكَةِ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنِ آدَمَ حين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]]، والصَّحيحُ أنَّ معنى الآيَةِ أعَمُّ مِمَّا قاله المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنِ آدَمَ، وفي الدَّرَجاتِ العُلى وغَيْرِها مِمَّا يَختَصِم فيه المَلائكَة، ويَرْجِعونَ فيه إلى الله.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾: ما ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ أي: أَنِّي ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الإِنذارِ]. نقول: إنَّما أفادنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (إنْ) هنا نافِيَةٌ، وهو أحَدُ معانيها؛ دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ﴾ أي: أَنِّي ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قوله؛ [أي: أَنِّي] تَفسيرٌ لـ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ لأنَّ أَصْلَه أنِّي، لكن دَخَلَتْ ما الكافَّةُ على (أنَّ) فأَبْطَلَتْ عملها، ثُمَّ لَمَّا دخلت عليها لَزِمَ أن يَنْفَصِلَ الضَّميرُ المتَّصِلُ؛ دَخَلَتْ (ما) على (أنَّ) ففَصَلَتْ بَيْنَ (أنَّ) والضَّميرِ، والضميرُ المُتَّصِلُ إذا وُجِدَ ما يَفْصِلُه عمَّا اتَّصَلَ به صارَ مُنْفَصِلًا، فهنا تكون ﴿أَنَا۠﴾ هي الياءَ في قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنِّي].

قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ هذه الصيغة تكون أشدَّ تأكيدًا للحَصْر؛ لأنَّ الحَصْرَ اسْتَفَدْناه من قوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ واستَفَدْناه أيضًا من قولِه: ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فحُصِرَ حالُ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنَّه نذيرٌ مُبينٌ، وهذا الحَصْر حَصْرٌ إضافِيٌّ؛ أي: إنَّما أنا في هذه المسألة خاصَّةً، وهو الوحْيُ، نذيرٌ مُبينٌ، وإلا فإنَّهُ بَشَرٌ يَنْسَى ويأكُلُ ويشربُ ويُبَشِّرُ، فالحَصْر إذَن إضافِيٌّ بحسَب السِّياق.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بيِّنُ الإِنْذارُ] والصوابُ: مُظهِرٌ، وليسَتْ من أبانَ اللازِمِ، بل هيَ من أبانَ المتَعَدِّي؛ لأنَّ كَلِمَةَ أبانَ تكونُ لازِمَةً، كما تقول:

أبانَ الصُّبحُ؛ أي: ظَهَرَ، وتكون مُتَعَدِّيَة، كما لو قُلْتَ: هذا مُبينٌ لِهَذا؛ أي: مُظْهِرٌ له، فالصوابُ: أنَّ ﴿مُبِينٌ﴾ هنا بِمَعْنى مُظْهِر.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: عِظَم ما جاء به الرَّسُولُ ﷺ من الوَحْيِ، وأنَّه نبأٌ عظيمٌ، وهذا كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ:١-٣].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه متى عَظُمَ هذا النَّبأُ العَظيمُ، عَظُمَ من يأخذ بهذا النَّبأ لأنَّه أَساسٌ ومِنهاجٌ وطريقٌ، فإذا عَظُم عَظُمَ الآخِذُ به؛ ولِهَذا كانت الأمَّة الإسلاميَّة عَظيمَةً مرموقةً مَهيبَةً حين كانت آخِذَةً به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: القَدْحُ فيمَنْ أعْرَضَ عن هذا النَّبَأِ العظيم؛ لِقَوْلِه: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ يعني كيف يليق بكم أن تُعْرِضوا عنه مع أنَّه نبأٌ عظيم؟!

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: نَفْيُ عِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ بالغَيْبِ سواءٌ كان مُسْتَقْبَلًا أم حاضِرًا ولَكِنَّه غائِبٌ عنه؛ لِقَوْلِه: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ نَفْي عِلْم بملأٍ موجود لَكِنَّه غائِبٌ عنه، فإذا كان لا يَعْلَمُ الغائِبَ الموجودَ، فالغائِبُ عنه المُنْتَظَر من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ المَلَأِ الأَعلى وهم المَلائِكَة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ عُلُوِّ مَرْتَبَةِ المَلائِكَة، كما أنَّ مكانَهُم كذلك عالٍ؛ لأنَّهم في السَّمَوات، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

وعُلُوُّ المَرْتَبَة فيهم اختَلَفَ العُلَماءُ هل هي أعلى من البَشَرِ الصَّالِحِين أم صالِحو البَشَرِ أعلى من المَلائِكَة وأَفْضَلُ؟

فمنهم من قال: إنَّ المَلائِكَة أفضَلُ، ومنهم من قال: إنَّ صالِحِي البَشَرِ أَفْضَلُ.

والنِّزاعُ هنا قليلُ الفائِدَة؛ لأَنَّنا نعْلَمُ أنَّ المَلائِكَة لهم خَصائِصُ لا يَلْحَقُهُم فيها البَشَر، وللبَشَرِ خَصائِص لا يَلْحَقُهُم فيها المَلائِكَةُ، فالتَّفْضيلُ على الإطْلاقِ لا يَصِحُّ؛ لأنَّ هؤلاء لَهُم مَيْزة وهؤلاء لهم مَيْزَة.

وقال شَيْخُ الإِسلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: إنَّ المَلائِكَةَ أَفْضَلُ باعْتِبارِ كمالِ البِدايَةِ؛ لأنَّهم خُلِقوا من نورٍ، والنورُ أَكْمَلُ وأَفْضَلُ من الطِّينِ والتُّرابِ، وإنَّ البَشَرَ أَفْضَلُ باعْتِبار النِّهايَةِ؛ لأنَّ البَشَر يكونون في رَحْمَةِ الله، والمَلائِكَة أَنْفُسُهم يدخلون عليهم من كُلِّ باب يُهَنِّئونَهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].

ولكنَّ الذي أرى أنَّه يَنْبَغي أن يقالَ: إنَّ التَّفْضيلَ ليس باعْتِبارِ البِدايَةِ والنِّهايَةِ بل باعْتِبارِ بعضِ الخَصائِصِ التي تكون لهؤلاء دون هؤلاء.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثْباتُ أنَّ المَلائِكَة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ذَوو عقول؛ لِقَوْلِه: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْباتُ المُناظَرَة والمُخاصَمَة بين المَلائِكَة، كما هي أيضًا تكون بين الرُّسُلِ وأَقْوامِهِم، وبينَ أَتْباعِ الرُّسُلِ بَعْضِهم مع بعض.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ الرِّسالَة للرَّسُولِ ﷺ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ والوَحْيُ يكون للرَّسُولِ إذا كان أُوحِيَ إليه أن يُنْذِرَ النَّاس ويُبَشِّرَ النَّاس، ولكنَّ الوَحْيَ يكون أحيانًا بالإِلهامِ؛ كما في قَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨] فهذا وَحْيُ إلهامٍ، وكما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] هذا أيضًا وَحْيُ إلهامٍ وليس وحي نُبُوَّةٍ وإِرْسالٍ.

---

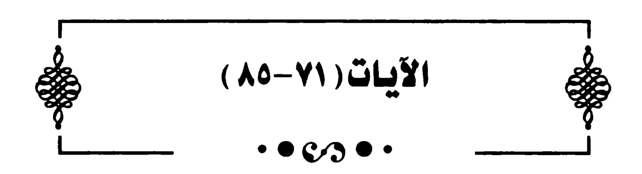
(١) الاختيارات العلمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٧٩).

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْبَاتُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نذيرٌ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ مُبِينٌ لِكُلِّ ما أَنْذَرَ به؛ لأنَّ مَعْنَى مُبِينٍ مُظْهِرٌ للحَقِّ والوَحْيِ الذي جاء به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يُمْكِنُ أن يكون في شريعة النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَيْءٌ مَجْهولٌ أبدًا، بل كُلُّ ما جاء به فهو بيِّنٌ، لكنَّ الجَهْلَ أَمْرٌ نِسْبيٌّ قد يكون المجهولُ شَيْئًا مُعَيَّنًا لبعض النَّاس، وهو بيِّنٌ مَعْلومٌ لأُناسٍ آخرينَ.

• • ❁ • •



الآيات (٧١-٨٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٧١-٨٥].

• • • •

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ﴾] فأفادنا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ ﴿إِذْ قَالَ﴾ مُتعلِّق بمَحذوف تَقْديرُهُ: اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ هو آدمُ، وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ بَشَرًا: مفعول بها لِـ﴿خَٰلِقُۢ﴾ لاستكمالِ شُروطِ العَمَلِ [﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أَتْمَمْتُه ﴿وَنَفَخْتُ﴾: أَجْرَيْتُ ﴿فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فصار حيًّا...] إلى آخره.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أَجْرَيْتُ] وكأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ أوَّلَ النَّفْخَ بالإجْراءِ، ولكنَّ هذا خلافُ ظاهِرِ الآيَة؛ فظاهِرُ الآيَة أنَّ الله تعالى نفخ فيه

من روحِهِ، وهذا النَّفْخُ نُثْبِتُه على ظاهِرِه، لكن بدون أن يكون مُماثِلًا لِنَفْخِ المَخْلوقِينَ، وتَفْسيرُهُ بالإجْراءِ تَفْسيرٌ باللازِمِ؛ لأنَّه إذا نَفَخَ فيه الرُّوحَ لَزِمَ أن تَجْرِيَ في البَدَنِ وتَسْرِيَ فيه.

وقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إضافَةُ الرُّوحِ إليه تَشْريفٌ لآدَمَ] يعني من رُوحي، ليس المرادُ من جُزْءٍ مني، ولكنَّ المرادَ من روحي؛ أي: من الأرواح التي خَلَقْتُها، وأضافها الله إلى نَفْسِه تشريفًا وتَعْظيمًا، كما أضاف البَيْتَ إليه في قَوْلِه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦] وكما أضافَ المساجِدَ إليه في قَوْلِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤] وكما أضافَ النَّاقَةَ إليه في قَوْلِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف:٧٣].

فالمضاف إلى الله إذا كان مَخْلوقًا فإنَّ إِضافَتَهُ إليه تكون من بابِ التَّشْريفِ والتَّعظيمِ، إذا كان هذا خاصًّا، أمَّا إذا كان عامًّا فهو من باب الشُّمُولِ والعُمُومِ؛ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والرُّوحُ جِسْمٌ لطيفٌ يحيا به الإنْسَان بِنُفُوذِهِ فيه] لو قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يحيا به الكائِنُ الحَيُّ لكان أعَمَّ؛ لأنَّ الإنْسَان له روحٌ، والبهائِمُ لها روحٌ، وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جِسْمٌ لطيفٌ] أَمَّا كَوْنه جِسْمًا فلأنَّه ثبت في القُرْآنِ الكريم أنَّها تُقْبَضُ وتُتَوَفَّى، وثبت في السُّنَّة أنَّها تُكَفَّنُ؛ تُلَفُّ في الكَفَنِ إمَّا من الجَنَّة أو النَّار[1]، وهذا يدلُّ على أنَّها جِسْم، لَكِنَّه جسم لطيف لا يُرى بالعَيْنِ، إذا حلَّ في الجَسَدِ حَيِيَ، وإذا فُقِدَ من الجِسْم صار الجَسَدُ جمادًا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ونحن نشاهِدُ مِمَّا يصنَعُه الآدمي ما يكون مثلَ هـذا، إذا كان عنـدك سالِـبٌ ومُوجَـبٌ في الكهرباء واتصل بَعْضُهما بِبَعْضٍ يسـري التَّيَّارُ الكَهْرُبائِيُّ في المِصْباحِ الكَهْرُبائِيِّ فيُضِيءُ، والتَّيَّارُ الكَهْرُبائِيُّ شيءٌ لا يُرى بالعَيْنِ، وإذا فُقِدَ أو قُطِعَ التَّيَّار أظلم المصباحُ.

هذا وهو من صُنْعِ البشـر، فكيف بالأُمُورِ الخارِقَـة التي لا يعلمها إلا الله؟! ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥]. وهذا الذي فَسَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرُّوحَ به هو أَحْسَنُ ما قيل في تَفْسيرِ الرُّوحِ.

يقول الله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ قَعُوا: فعْلُ أَمْرٍ، والوقوع معناه: خِـرُّوا على الأَرْض ساجدينَ، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُجودَ تَحِيَّةٍ بالانْحناءِ] أَمَّا قوْلُه: سُجودَ تَحِيَّةٍ، فلا شكَّ أنَّ هذا هو المرادُ، يعني لا سُجُودَ عِبادَةٍ، وأَمَّا قوْلُه: بالانحناء ففيه نَظَرٌ؛ لأنَّ السُّجُود هو الوُقوعُ على الأَرْضِ، وهو ظاهِرُ الآيَة، ولكن يقال: إنَّ هذا السجود تحيَّة كان جائِزًا، ولَكِنَّه نُسِخَ بعد ذلك ﴿سَـٰجِدِينَ ﴾ مَحَلُّها من الإعراب حالٌ من الفاعل في قَعُوا.

قال الله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [فيه تَأْكيـدانِ] وهما: كُلُّ، وأَجْمَعون ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو أبو الجِنِّ كان بين المَلائِكَةِ] قوله: هو أبو الجِنِّ دليلـه قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ [الكهف:٥٠] والدَّليلُ على أنَّه من الجِنِّ، قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠].

إذن: فالجِـنُّ ذُرِّيَّةُ الشَّيطـانِ، والإنْسُ ذُرِّيَّةُ آدم؛ نعـوذ بالله من الشَّيْطـانِ الرَّجيمِ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ كان بين المَلائِكَة] ولم يَقُل المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان من المَلائِكَة؛ لأنَّ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠].

إذَنْ: هو كان بَيْنَهُم، ومن كان بينَ النَّاس فهو مِنَ النَّاسِ، قال النَّبي ﷺ: «**إنَّ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»[1] فهذا إِبْليسُ كان مع المَلائِكَة يتعَبَّـدُ بعبادَتِهم فصَحَّ أن يَشْمَلَهُ الخِطابُ المَوَجَّهُ إلى المَلائِكَة؛ ولِهَذا لامه الله على عَدَمِ السُّجُود، فدلَّ على أنَّ الخِطابَ كان شاملًا له.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [في عِلْم اللهِ]، قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في علم الله] بناءً على أن (كان) تدُلُّ على المُضِيِّ، ولَكِنَّه قد مرَّ علينا أن (كان) قد تكون مَسْلوبَةَ الدَّلالَة على الزَّمانِ، ويكونُ المُرادُ بها الاتِّصافَ بِخَبَرِها، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦] المَعْنى اتَّصَف بالرَّحْمَةِ.

إِذَن: نقول في هذه الآية ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: واتَّصَف بالكُفْرِ، ولا حاجة أن نقول: كان في عِلْمِ الله؛ لأنَّنا نقول: إنَّ (كان) هنا مَسْلوبَـةُ الدَّلالَةِ على الزَّمَن فالمرادُ بها مُجَرَّدُ الاتِّصافِ.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ الفاعِلُ في قال هو الله؛ لأنَّه قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ قال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ يعني: أيُّ شيءٍ مَنَعَكَ؟ وهذا الاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخِ والتَّعَجُّبِ؛ يعني: كيف تَمْتَنِع لمن خَلَقْتُه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٠)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب الصدقة على بني هاشم، رقم (١٦٥٠)، والترمذي: كتاب الزكاة، باب ما جاء في كراهية الصدقة للنبي ﷺ وأهل بيته ومواليه، رقم (٦٥٧)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب مولى القوم منهم، رقم (٢٦١٢)، من حديث أبي رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بِيَدَيَّ، فالله تعالى خلق آدم بِيَدَيْهِ، وهذا شَرَفٌ له، وأَمَرَ المَلائِكَة، وكان بينهم إِبْليسُ، بالسُّجُودِ له تشريفًا له، فما الذي منعك أن تَسْجُد؟

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في تَفْسيرِ قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ [أي: تَوَلَّيْتُ خَلْقَه، وهذا تَشْريفٌ لآدَمَ، فإنَّ كُلَّ مَخْلوقٍ تَوَلَّى اللهُ خَلْقَه].

عفا الله عنك أيُّها المُفسِّر، يقول: [تَوَلَّيْتُ خَلْقَهُ] فرارًا من إثباتِ اليَدِ لله، ولا شَكَّ أنَّ هذا تَحْريفٌ، وأجاب عن الإضافَةِ في قَوْلِه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بأنَّ هذا تَشْريفٌ لآدَمَ، وإلا فَكُلُّ مَخْلوقٍ فإنَّ الله قد تَوَلَّى خَلْقَه.

وبناءً على كلام المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لا يبقى لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْلٌ على سائر المَخْلوقاتِ ما دُمْنا نُفَسِّر ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: تَوَلَّيْتُ خَلْقَه فإنَّ الله تولَّى خَلْقَ بني آدَمَ، وخلق الإِبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ وغير ذلك، فلم يَبْقَ لآدَمَ فَضْلٌ على أي أَحَدٍ، بل لم يبقَ لآدَمَ فَضْلٌ على الشَّيْطانِ الذي أبى أن يَسْجُدَ؛ لأنَّ الشَّيْطانَ تولَّى خَلْقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا نقولُ إنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أَخْطَأَ في هذا، وأنَّ مَعْنى الآيَة: أنَّ الله تعالى خلقَ آدمَ بِيَدِهِ، وخَلَقَ غَيْرَ آدَمَ مِنَ الشَّياطينِ والمَلائِكَةِ بِكَلِمَتِهِ؛ أي: بِقَوْلِ كُنْ، أَمَّا آدَمُ فَبِيَدِهِ، وهذا هو وَجْهُ المِيْزَة والخَصيصَةِ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أنَّ الله خَلَقَه بِيَدِه.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [الآنَ عَنِ السُّجُودِ؟ اسْتِفْهامٌ للتَّوْبيخِ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ المُتكَبِّرين، فتكَبَّرْتَ عن السُّجُود] مع الذين مَنْزِلَتُهم فوق؛ لأنَّ الذي يأبى إما أن يكون في مكانٍ أَرْفَعَ فيكون مستحِقًّا للإباءِ، أو يكون مُسْتكْبِرًا وموضِعُه دونٌ، فيجعل نَفْسَه في مَحَلٍّ عالٍ، والله يقول له: هل أنتَ مُسْتكْبِرٌ أو أَنَّكَ عالٍ في مَرْتَبَةٍ أعلى من آدَمَ، بل أعلى ممَّنْ أَمَرَك، ما الجَواب؟

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المُتكبِّرِينَ، فتكَبَّرْت عن السُّجُودِ لِكَوْنِك منهم] أي: من العالينَ، وأَمَّا قولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ العالين هم المُتكبِّرون فإنَّهُ يؤدِّي إلى أَلَّا يكونَ فَرْقٌ بين المُتقابلينِ؛ لأنَّه قال: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ولم يَقُلْ: من المُتكبِّرين؛ ولذلك يُعْتَبَرُ تفْسيرُ المُتعالينَ بالمُتكبِّرينَ خطأً، بل ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: الذين عَلَتْ مَنْزِلَتُهم بحيث لا يُوجَّه إليهم الأَمْرُ بالسُّجود لمن هو دونهم.

فإباءُ الشَّيْطانِ عن السُّجودِ لآدم إما أن يكونَ لِوَصْفٍ يَسْتَحِقُّه، وهذا يدلُّ عليه ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أو لِوَصْفٍ لا يَسْتَحِقُّه ولَكِنَّه استكبر، ورأى نَفْسَه كَبيرًا، وهذا في قَوْلِه: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾.

قال الشَّيْطانُ جوابًا على سؤال الله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من آدَمَ، وهذه دَعْوى، وكلُّ إِنْسَانٍ يُضيفُ الشَّيْءَ إلى نفسه فإِنَّهُ مُدَّعٍ، وهذه قاعِدَة في الفِقْه، والمُدَّعِي عليه البيِّنَةُ.

أتى إِبْليس ببيِّنَتِه، فقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ ولهذا نقول الجُمْلَة هنا اسْتِئْنافِيَّةٌ لبيان وَجْهِ الخَيْرِيَّة ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ سبحان الله! الذي يُخْلَقُ من النَّارِ خَيْرٌ من الذي يُخْلَقُ من الطِّينِ، مع أنَّ النَّار التي خُلِقَ منها الشَّيْطانُ لَيْسَتْ هي نارًا مُضيئَةً، إنَّما هي ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرَّحمن:١٥] أي: النَّارُ التي تكون في أعلى اللَّهَبِ بين الدُّخانِ وبين النَّارِ المُضيئَةِ، حَمْراءُ مُعْتِمَةٌ، إنَّهُ اللَّهَبُ المُخْتَلِط بسوادِ النَّارِ، هذا المَخْلوقُ من هذه النَّارِ أَيكونُ خيرًا من المَخْلوقِ من الطِّينِ البارِدِ النَّافِعِ؟

سبحان الله! هذا قلبٌ للحقائقِ؛ ولِهَذا نقول: هذه دَعْوى مُسْتَنِدَة إلى بَيِّنَة زائِفَة باطِلَة؛ الدَّعْوى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ والبَيِّنَة: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ وهذه ليْسَتْ بَيِّنَة، هذه حُجَّة عليه وليست حُجَّة له، وقد ذكَرَ أَهْل العِلْمِ في هذا المقامِ بيانَ أنَّ ما خُلِقَ منه آدَمُ خيرٌ مِمَّا خُلِقَ منه إِبْليسُ.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ قيل: من الجَنَّة، وقيل: من السَّمَواتِ، والمَلائِكَة كُلُّهم في الجَنَّة في السَّمَواتِ ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: من السَّمَواتِ هو أَقْرَبُ لِلَّفْظِ؛ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ رجيمٌ؛ أي: مَرْجومٌ؛ فهي فَعيلٌ بِمَعْنى مفعولٍ، ومعنى مَرْجومٍ؛ أي: مَطْرودٍ مُبْعَد، كما يُبْعَدُ الإِنْسَانُ إذا رُجِمَ، ومن المَعْلـوم أنَّ الرَّجُل إذا أَرَدْنا أن نُبْعِدَه كثيـرًا صِحْنا به أوَّلًا، فإذا هَرَبَ أَتْبَعْناه الحجارة فكان هذا أَشَدَّ إبعادًا.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ حاقَّةٌ عليك لَعْنَةُ اللهِ؛ أي: طَرْدُه وإبعادُهُ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يَوْمِ الجَزاءِ، وبعد يَوْمِ الدينِ لا تزول اللَّعْنَة لَكِنَّها إذا امْتَدَّتْ إلى يَوْمِ الدين فمعناه أنَّه قانِطٌ من رَحْمَـة الله، لا يُمْكِن أن يُرْحَمَ، والذي تبقى معه اللَّعْنَة إلى يَوْم الدين لا يُمْكِن أن تَنالَهُ الرَّحْمَةُ.

قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: النَّاسُ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

طَلَبَ من الله أن يُنظِرَه إلى يَوْمِ بَعْثِ النَّاسِ، فهل أجابه الله إلى طلبه؟

أجابه الله إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلومِ؛ قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقْتَ النَّفْخَةِ الأُولَى] أي: قَبْلَ البَعْـثِ؛ لأنَّ النَّاس لا يُبْعَثـونَ إلا في النَّفْخَةِ الثَّانِيَـة، لَكِنَّهم يُصْعَقونَ في النَّفْخَةِ الأولى، وهو أي: الشَّيْطانُ إِنَّما يريد أن يبقى حتى لا يَبْقى من بني آدَمَ أَحَدٌ؛

لأَنَّه صار في نَفْسِه غِلٌّ وحِقْد عظيم على آدَمَ وذُرِّيَّتِه، كيف أُمِر أن يَسْجُدَ له؟ وكيفَ حُكِمَ بكفره لَمَّا أَبَى؟

صار في نفسه غِلٌّ وحِقْد، فسأل الله أن يُبْقِيَه إلى يَوْمِ البَعْثِ، فأجابه الله أن يَبْقى إلى يَوْمِ القيامَةِ المَعْلومِ، وإجابَةُ الله إياه لِحِكَمٍ عَظيمَة نَذْكُرها إن شاء الله مع الفَوائِد.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يُحْتَمَلُ أن تكون الباءُ لِلْقسِم، ويُحْتَمَلُ أن تكون لِلاسْتِعانَةِ، فإن قلنا: إنَّها للقَسَمِ فقد أقسم بعِزَّة اللهِ، واختياره الإقْسامَ بالعِزَّة؛ لأنَّ العِزَّة فيها الغَلَبَة، فأَقْسَمَ بِوَصْفٍ لله يكون به الغَلَبَة، وإن قلنا: إنَّها لِلاسْتِعانَة فظاهِرٌ أنَّ الاستعانَةُ بعِزَّة الله التي إذا أعان اللهُ بها العَبدَ غَلَبَ.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللامُ الواقِعَة في جَواب القَسَمِ في قَوْلِه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ تُؤَيِّدُ أنَّ الباءَ هنا للقَسَمِ؛ لأنَّ هذا هو جَوابُ القَسَم، وأُغْوِيَنَّهُمْ؛ أي: أَسْلُكُ بهم طَرِيقَ الغَيِّ، وهو خلافُ طريقِ الرُّشْد ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ أي: من بني آدَمَ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أَخْلَصْتَهُم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر:٤٢].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ الحَقُّ: مُبْتَدأ لأنَّه مُتَضَمِّنٌ معنى القسم بدليلِ أنَّه أُخْبِرَ عنه بجَوابِ القَسَمِ وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقد أَعْرَبه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: [بِنَصْبِهِما، ورَفْعِ الأَوَّلِ ونَصْبِ الثَّاني].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ فنَصْبُهُ بالفعل بعده؛ أي: إنَّ ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ مفعولٌ مقدَّمٌ لِأَقولُ؛ أي: لا أَقولُ إلا الحقَّ، وتقديمُ المفعول أفاد الحَصْرَ، [وَنَصْبُ الْأَوَّلِ؛ قِيلَ: بِالْفِعْلِ الْمَذْكُورِ، وَقِيلَ: عَلَى الْمَصْدَرِ؛ أَيْ: أُحِقُّ الْحَقَّ، وَقِيلَ: عَلَى نَزْعِ حَرْفِ الْقَسَمِ؛ وَرَفْعُه عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفُ الْخَبَرِ؛ أَيْ: فَالْحَقُّ مِنِّي، وَقِيلَ: فَالْحَقُّ قَسَمِي وَجَوَابُ الْقَسَمِ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾].

إعراباتٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِنَصْبِها؛ نقول: الثَّاني نَصْبُه بالفِعْلِ بَعْده وهو واضِحٌ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾؛ لأنَّ الفِعْل بعده لم يَسْتكْمِل مفْعولَه، ولم نَجِدْ مفعولًا له إلا الحَقَّ الذي سَبَقَ.

إِذَن: (الْحَقَّ) الثَّانِيَة مَنْصوبَـةٌ بـ(أَقولُ) على كُلِّ حـالٍ، والخـلافُ في الأولى؛ الأولى إمَّا مَنْصوبَةٌ وإمَّا مرفوعةٌ:

نَصْبُها فيه أَوْجُهٌ:

قيل: بالفِعْلِ المذكورِ؛ أي: فالحـقَّ أقولَ والحـقَّ أقولُ، فيكون الحـقَّ الأُولى والثَّانية مَنْصوبَةً بـ(أقولُ)، كما لو قلت: زيدًا وعَمْرًا ضربتُ، فزيدًا وعمرًا مَنْصوبان بِضَرْبَتُ.

إذن: (الحَقَّ)، و(الحَقَّ) مَنْصوبانِ كلاهما بـ(أقولُ).

وقيل على المَصْدَرِ أي: فأُحِقُّ الحقَّ، وعلى هذا فيكون مَصْدَرًا عاملُه مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: فأُحِقُّ الحَقَّ.

وقيل: على نَزْعِ حَرْفِ القَسَـمِ؛ يعني: فبالحَقِّ أُقْسِـمُ؛ لأَنَّه إذا نُزِعَ الخـافِضُ نُصِبَ المَخفوضُ؛ ولِهَـذا يَرِدُ كثيـرًا قولُهُم: مَنْصوبٌ بنَزْعِ الخافِضِ؛ هـذه ثلاثـة أوجه.

ورفع (الحقُّ) الأولى على أنَّه مُبْتَدَأٌ مَحذوفُ الخَبَر؛ أي: فالحَقُّ مِنِّي، وهذا ضعيفٌ.

وقيل: فالحَقُّ قَسَمِي، وهذا أَقَلُّ ضَعْفًا من الأَوَّلِ.

والذي يظْهَرُ لي أَنَّه لا حاجَةَ إلى هذا، والأَحْسنُ أن نقول: الحقُّ: مُبْتَدَأ ضُمِّنَ معنى القَسَمِ، وأُجيبَ بِقَوْلِه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وصار في جَوابِ القَسَمِ كفايةٌ عن خَبَرِ المُبْتَدَأ، واسْتُغْنِيَ بجَوابِ القَسَم عن خَبَرَ المُبْتَدَأ كما يُسْتَغْنَى بجَوابِ القَسَمِ عن جوابِ الشَّرْطِ فيما إذا اجْتَمَعَ شَرْطٌ وقَسَمٌ.

قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المراد الجِنْسُ؛ ولِهَذا قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِذُرِّيَّتِك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: النَّاسِ] الذين أَقْسَمْتَ أن تُغْوِيَهُم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. ولِهَذا كانت النَّارُ دارًا لِصِنْفَيْنِ من المَخْلوقاتِ فقط، وهما الجنُّ والإنْسُ، فالمَلائِكَةُ ليسوا من أَهْلِها، والوُحُوشُ والحَشَراتُ وغَيْرها لَيْسُوا من أَهْلِها، لا يدخل النَّارَ إلا صِنْفانِ من المَخْلوقاتِ، وهما النَّاس والجِنُّ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِثْباتُ الكَلامِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ وإثباتُ أنَّ كلامَهُ بصوت مسموعٍ تَسْمَعُه المَلائِكَةُ في هذه القِصَّة، وإثباتُ أنَّه بحَرْفٍ؛ أي: بِحُروفٍ مُتَتابِعَةٍ يَتْبَعُ بَعْضُها بعضًا؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وكلُّ هذا تأكيدٌ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، وفي هذا إثباتُ أنَّ الكَلام يتعَلَّقُ بِمَشيئَتِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ الخَلْقِ لله تعالى وأنَّه مُتَعَلِّقٌ بِمَشيئَتِه؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: سَأَخْلُقُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْباتُ أنَّ أَصْلَ بني آدم هو الطِّينُ؛ ولِهَذا جاءت طبائِعُ بني آدَمَ وألوانُهُم مُخْتَلِفَةً كاختلافِ الأَرْضِ، أو كاختلاف تُرْبَةِ الأَرْضِ؛ فيها السَّهْلُ واللَّيِّنُ، والأَحْمَر والأَبْيَض والأَسْوَد، والحَزْن والصَّعْب؛ لأنَّهم خُلِقُوا من هذه التُّرْبَة، فصار اختلافُهُم كاخْتلافِ الأَصْلِ الذي خُلِقوا منه.

وقلنا هنا: إنَّ في هـذه الآيَة إثباتَ أنَّ بني آدم خُلِقُوا من الطِّيـنِ، وفي آيات أخرى أنَّهُم خُلِقوا من التُّـرابِ، وفي آية ثالِثَةٍ من صَلْصالٍ كالفَخَّارِ، ولا مُنَافَاةَ بين هذه الآياتِ؛ لأنَّ التُّرابَ أَصْلُهُ طينٌ، والطِّينُ أَصْلُ الصَّلْصالِ الذي كالفَخَّارِ، فالتُّرابُ يصيرُ طينًا وحينَ يَمْكُثُ مُدَّةً يَتَحَجَّر فيكون صَلْصالًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ الأَفْعالِ لله تعالى؛ لِقَـوْلِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ وأنَّ أَفْعالَـهُ تتعلَّقُ بِمَشيئَتِه؛ لأن (إذا) شَرْطِيَّة تُفيدُ المُسْتَقْبَل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى أَتَمَّ خَلْقَ آدَمَ فَسَوَّاه كمـا قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَشْريفُ الرُّوحِ التي نُفِخَتْ في آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وهذا تَشْريفٌ مِن وَجْهَيْنِ:

الأَوَّل: أنَّ الله هو الذي نَفَخَها ولم يَأْمُر أَحَدًا من المَلائِكَة بِنَفْخِها.

والثَّاني: أنَّ الله أضاف هذه الرُّوحَ إلى نَفْسِه المقَدَّسَة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ العِبادَة طاعَةُ اللهِ على أي وَجْهٍ كانَـتْ، حتى وإن كانَـتْ مُحَرَّمَةً في وقت من الأَوْقاتِ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فالسُّجُود لغَيْرِ الله عَلامَةُ شِرْكٍ، لكنْ لَمَّا أمر الله به صار طاعَةً، والاسْتِكْبارُ عنه كُفْرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: جوازُ تعليق الأَمْرِ بالشَّرْطِ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: إذا جاز تَعْليقُ الأَمْرِ بالشَّرْطِ، فإنَّ المأْمُورَ به يُمْكِن أن يُنَفَّذَ فيه الشَّرْطُ؛ ولِهَذا قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لضُباعةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ، وقد اشْتَكَتْ إليه عند إرادةِ الحَجِّ، قال: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي**»[1]، «**فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ**»[2].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المَلائِكَةَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ذَوو عُقولٍ يَصِحُّ تَوْجيهُ الخِطابِ إليهم وائْتِمارُهُم؛ لِقَوْلِه: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ المَلائِكَةَ كُلَّهُم سجدوا؛ لأنَّ الآيَة عامَّةٌ مُؤَكَّدٌ عُمُومُها بِمُؤَكِّدَينِ؛ وهما: كُلٌّ وأجمعون في قَوْلِه: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جوازُ تَوَجُّه الأَمْرِ (الخِطاب) إلى العُمُومِ، وإن كان فيهم مِن غَيْرِ جِنْسِهم؛ لِقَوْلِه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإن إِبْليسَ بلا شَكٍّ أنَّه مِن غَيْرِ المَلائِكَة أصلًا ونِهايَةً، لَكِنَّه كان فيهم، فصَحَّ أن يتوَجَّهَ الخِطابُ إليه، وهذا ظاهر؛ لو أنَّكَ أَمَرْتَ جَماعَةً بالسُّجُود، وفيهم من ليس منهم، ولَكِنَّه على صِفَتِهِم، ويَعْمَل بعملهم، فتخَلَّفَ لا بدَّ أن تلومَهُ؛ لأنَّ الخِطابَ مُوَجَّهٌ للجَميعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الاسْمَ قد يَحْمِل معنى المُسَمَّى؛ لأن إِبْليس يبدو أنَّه اسْمٌ عربي من الإِبلاسِ، وهو اليَأْسُ؛ لأنَّه أَيِسَ من رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ، ورُدَّ بأنَّه لو كان عَرَبِيًّا لانْصَرَفَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز اشتراط المحرم التحليل بعذر المرض، رقم (١٢٠٧)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب مناسك الحج، باب كيف يقول إذا اشترط، رقم (٢٧٦٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: ذَمُّ الاسْتِكْبارِ عن أمر الله؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾؛ لأنَّ الاسْتِفْهامَ في قَوْلِه: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ للتَّوْبيخِ وذَمِّ الاسْتِكْبارِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الاسْتِكْبارَ عَن أَمْرِ الله كُفْرٌ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ جزاءً لاسْتِكْبارِهِ كان من الكافرين، وفَرَّعَ بعض العُلَماء على هذا أنَّ تارِكَ الصَّلاةِ يكون كافرًا؛ لأن إِبْليسَ كَفَرَ لأَنَّه تَرَكَ سَجْدَةً، فما بالُكَ بالذي يَتْرُكُ سَجَداتٍ ورُكوعاتٍ وقِيامًا وقُعودًا، وهذا ليس بَعيدًا؛ أي: إنَّ الاسْتِدْلالَ بهذه الآيَة على كُفْرِ تارِكِ الصَّلاةِ ليس بِبَعيدٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: تَوْبيخُ إِبْليسَ لِتَرْكِ السُّجودِ لِمَن شرَّفه الله عَزَّوَجَلَّ وأَمَرَه بالسُّجودِ له؛ لِقَوْلِه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كلامَ الله تعالى يتعلَّقُ بِمَشيئَتِهِ؛ حيث صدر هذا القَوْلُ بعد اسْتِكْبار إِبْليسَ وتَرْكِه السُّجودَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ اليَدينِ لله تعالى؛ لِقَوْلِه: ﴿بِيَدَيَّ﴾ وهذه صيغَةُ تَثْنِيَةٍ تُفيدُ أنَّ لله يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ تَليقانِ بِجَلالِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: شَرَفُ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من حيث إنَّ الله خَلَقه بِيَدَيْهِ وفَضَّلَه على غَيْره بهذا، إلا أنَّ أَهْلَ العِلْمِ يقولونَ: إنَّ الله غَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ وكَتَبَ التَّوْراةَ بِيَدِهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على أَهْلِ التَّعْطيلِ الذين قالوا: إنَّ المُرادَ باليَدِ النِّعْمَةُ أو القُوَّةُ، وذلك أنَّ النِّعْمَةَ أو القُوَّة لا تأتي بصيغَةِ التَّثْنِيَة؛ لأنَّ صيغة التَّثْنِيَة تدل على الحَصْرِ، وقُوَّةُ الله غَيْرُ مَحْصورَةٍ، ونِعَمُهُ أيضًا غير مَحْصورَة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: أنَّ يَدَ اللهِ لا تُماثِـلُ أَيدِيَ المَخْلوقيـنَ؛ لأنَّ الله أضافها إلى نَفْسِه، والمُضافُ يكون حسَب المُضافِ إليه، فكما أنَّ ذاتَ الله مُقَدَّسَة لا تُماثِلُ ذَواتِ المَخْلوقِينَ، كذلك صِفاتُه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ: اسْتِعْمالُ الحَصْرِ، أو كما يقولون: السَّبْرُ والتَّقْسيمُ في المُناظَرَةِ والمُجادَلَة؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ وقد سبق تَفْسيـرُها بأن المَعْنى: هل أنت اسْتَكْبَرْت في نَفْسِك، وأنت لَسْتَ أَهْلًا للعُلُوِّ، أو كُنْتَ عالِيًا في أَصْلِكَ حتى تَمْتَنِعَ عن السجود، أم أنت أَكْبَرُ وفي مرتَبَةٍ عالِيَةٍ أعلى من آدَمَ حتى تَمْتَنِعَ عن السُّجود؟

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ: تَنْزِيلُ الأشياءِ مَنازِلَها؛ كقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؛ لأنَّ العالِيَ إذا كان عالِيًا على غَيْره فإنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يُنَزَّل حتى يكون أَنْزَلَ من غَيْره، بل كُلُّ أَحَدٍ يُنَزَّل في مَنْزِلَتِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُونَ: بيانُ الدَّعْوَة الكاذِبَة التي ادَّعاها إِبْليسُ في قَـوْلِه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ الإِنْسَانَ قد يَعْمى عن الحَقِّ فَيَسْتَدِلُّ بما هو حُجَّةٌ عليه، يَظُنُّ أَنَّه حُجَّةٌ له؛ لِقَوْلِه: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ مَن قدَّم العَقْل على السَّمْع فإنَّما هو مُتَّبعٌ لخُطُواتِ الشَّيْطانِ؛ لأنَّ الشَّيْطان قدَّم ما يَدَّعِي أنَّه عَقْلٌ على السَّمْع فأخطأ في ذلك، فهكذا كُلُّ من قدَّمَ العَقْلَ على السَّمْع سواء في العِلْمِيَّاتِ وهي عِلْمُ العَقائِدِ، أو في العَمَلِيَّاتِ فإنَّهُ مُشابِهٌ لإِبْليسَ، مُتَّبعٌ لخُطُواتِهِ، واعلم أنَّ كلَّ بَلِيَّةٍ تَقَعُ من تَحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، والاسْتِكْبارُ عن عِبادَةِ الله وغَيْر ذلك فأَصْلُه من إِبْليسَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ وَالعِشْرُونَ: إِقْرارُ إِبْليس بأنَّ الله هو الخالِقُ؛ لِقَوْلِه: ﴿خَلَقْتَنِى﴾، ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أن إِبْليسَ كان قد أقَرَّ بانْحطاطِ مَنْزِلَتِهِ عن الرُّبُوبِيَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿خَلَقْتَنِى﴾ والمَخْلوقُ لا يُمْكِنُ أن يكون رَبًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ إِبْليسَ أَعْلَمُ بِحقائِقِ صِفاتِ الله تعالى من كثيرٍ من أَهْل التَّعْطيلِ، فالذين فَسَّروا اليَدَ بالقُوَّة هنا لو كان تَفْسيرُهُم صحيحًا لقال إِبْليسُ: يا رَبِّ وأنا خَلَقْتَني بِيَدَيْكَ؛ لأنَّ الله خلق إِبْليسَ بِقُوَّتِهِ كما خلقَ آدَمَ، لكِنَّ إِبْليسَ فَهِمَ أنَّ المرادَ باليَدِ غيرُ القُوَّة؛ ولهِذا لم يَنْقُضْ فَضيلَةَ آدَمَ بأَنَّه هو خُلِقَ بِيَدِ الله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أنَّ إِبْليسَ في اسْتِكْبارِه وإبائِهِ صار مُسْتَحِقًّا للطَّرْدِ والإِبعادِ؛ ولهِذا قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثُونَ: أنَّ إِبْليسَ لَمَّا أُخْرِجَ أُبْلِغَ بأَنَّه مَرْجومٌ، والرَّجْمُ زيادةٌ على الطَّرْدِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّ إِبليسَ مَلْعونٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي آيَةٍ أُخْرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر:٣٥].

فهل نقول: إنَّ اللَّعْنَةَ المُطْلَقَةَ في قَوْلِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ هي المُقَيَّدَةُ في قَوْلِه هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ أو نقولُ: إنَّ اللَّعْنَةَ هناك أعَمُّ؛ فعلى إِبْليسَ لَعْنَةُ اللهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعينَ، يحتمل هذا وهذا، يُحْتَمَل أن نأْخُذَ بالمُطْلَق؛ لأَنَّه أعَمُّ، ويُحْتَمَلُ أن نَحْمِلَ المُطْلَقَ هناك على المُقَيَّدِ هنا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّنا لا ندعو على إِبْليسَ باللَّعْنَةِ؛ لأَنَّه قد اسْتَحَقَّ هذه

اللَّعْنَة بِأَمْرِ الله أو بِخَبرِ الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ فلا حاجَةَ إلى أن تقول: إِبْليسُ لَعنَهُ اللهُ؛ لأنَّه مَلْعونٌ.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الشَّيْطانُ يَتَعاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِذَا قِيلَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ**»[1] قال: إنَّ مثل ذلك إذا دُعِيَ عليه باللَّعْنَة والتَّقْبيح وما أشبه ذلك، فإنَّهُ يتعاظَمُ في نفسه؛ أي: كأنَّه لم يُقدَّرْ عليه ذلك، فإذا كان قد قُدِّرَ عليه فلا حاجَةَ أن أَدْعُوَ الله عليه، ولكِنْ أَسْتَعْمِلُ ما أمرني الله به في قَوْلِه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

فإن قيل: أليس النَّبِيُّ ﷺ قال لإِبْليسَ لَمَّا جاءه في الصَّلاةِ بِشِهابٍ من نارٍ لِيَجْعَلَه في وَجْهِهِ، قال: «**أَعوذُ باللهِ مِنْكَ**» ثلاثَ مراتٍ، ثم قال: «**أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ**»[2].

فالجَوَابُ: بلى، لكن الرَّسُولَ قَيَّدَها فقال: «**أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ**».

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ: إِثْباتُ الجزاء؛ لِقَوْلِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ والدِّينُ هنا بِمَعْنى الجزاءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّ الله أجابَ طَلَبَ إِبْليسَ ودعاءَه لكِنْ لا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بلْ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ويَوْمُ الوَقْتِ المَعْلوم، هو يَوْمُ مَوْتِ النَّاسِ أَجْمَعينَ حين يُنْفَخُ في الصُّورِ فَيُصْعَقونَ جَميعًا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٦٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي، رقم (٤٩٨٢)، عن أبي تميمة الهجيمي، عن ردف النبي ﷺ، أو من حدثه [في رواية أبي داود: أبو مليح] عن ردف النبي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (٥٤٢)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّ اللهَ قد يُقَدِّرُ أسبابَ الشَّرِّ لِحِكْمَةٍ، وذلك بإجابَةِ دعاءِ إبليسَ أن يُنْظِرَه إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلومِ، وإِبْليسُ لا شَكَّ أنَّه مَبْدَأُ كُلِّ شَرٍّ، ولكنَّ الله تعالى أبقاه لِحِكْمَةٍ عَظيمَةٍ، ولولا بقاءُ إبليسَ ما وُجِدَ عاصٍ في الأَرْضِ، وإذا انتفى العِصْيانُ صار النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، ولم يكن الإيمانُ مَزِيَّةً، ولم يكن جهادٌ ولا أَمْرٌ بالمَعْروف ولا نَهْيٌ عن المُنْكَر، ولو كان النَّاسُ أُمَّةً واحِدَة لتَعَطَّلَ كثيرٌ من شعائِرِ الإسلامِ، فكان من الحِكْمَةِ بقاءُ إِبْليسَ، وبقاءُ ما يدعو إليه إِبْليسُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: مَعْرِفَة إِبْليسَ بالله؛ حيث أَقْسَمَ بعِزَّة اللهِ أنْ يُغْوِيَ بني آدمَ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّ من أسبابِ الإعانَةِ أن يَسْتَعينَ الإِنْسَانُ بما يُناسِبُ المَقامَ من أَسْماءِ الله وصفاتِهِ؛ لأنَّه لم يَقُلْ: فَبِمَغْفِرَتِكَ لأُغْوِيَنَّهُم، لو قال: فَبِمَغْفِرَتِكَ لم يُناسِبِ المَقامَ؛ لأنَّه يريد أن يَتَسَلَّطَ والسُّلْطَةُ يُناسِبُها من الصِّفاتِ العِزَّةُ دونَ المَغْفِرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أنَّ إِبْليسَ وَعَدَ مُتَوَسِّلًا بعِزَّة الله أن يُغْوِيَ جميعَ بني آدم.

ويَتَفَرَّعُ عن هذه الفائِدَة: أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ من إِبْليسَ ووَساوِسِه.

فإذا قال قائِلٌ: ما الذي يُعْلِمُني بِوَساوِسِ الشَّيْطانِ؟

الجَواب سَهْلٌ: كُلُّ شيءٍ يَأْمُرُكَ بِمُنْكَرٍ فهو من إِبْليسَ، وكُلُّ ما يُثَبِّطُكَ عن الخير فهو من إِبْليسَ، فاحذر؛ فإذا وَجَدْتَ في نَفْسِك تأَخُّرًا في الخير فاسْتَعِذْ بالله من الشَّيْطانِ الرَّجيمِ، وإذا وَجَدْتَ في نَفْسِكَ إِقْدامًا على الشَّرِّ فاسْتَعِذْ بالله من الشَّيْطانِ

الرَّجيمِ، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: مَزِيَّةُ عبادِ الله تعالى المُخْلَصينَ؛ حيث سَلِمُوا من إغْواء إبْليسَ.

الْفَائِدَةُ الأَرْبَعُونَ: أنَّه كُلُّ من كان لله تعالى أَعْبَدَ كان أشَدَّ عِصْمَةً من الشَّيْطان ووَساوِسِه؛ لأنَّه اسْتَثْنَى من إغواءِ بني آدم عبادَه المُخْلَصينَ، والمعلَّقُ بِوَصْفٍ يَقْوَى بقُوَّةِ ذلك الوَصْفِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالأَرْبَعُونَ: أنَّ الله تعالى يَمُنُّ على من يشاء من عباده فيُخْلِصُهُم له؛ لِقَوْلِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالأَرْبَعُونَ: أنَّ قَوْلَ الله تعالى كلَّه حقٌّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ قَدَّمَ المَعْمولَ لإفادةِ الحَصْرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالأَرْبَعُونَ: أنَّ كُلَّ ما قدَّره الله تعالى فهو حَقٌّ، سواء كان ملائمًا للبَشَرِ أو غَيْرَ مُلائِمٍ؛ وَجْهُ ذلك أنَّ كُلَّ شَيْءٍ قدَّرَهُ الله كائِنٌ بِقَوْلِه: كُنْ، وكُنْ قَوْلٌ، فإذا كان كُلُّ ما قاله الله حقًّا لَزِمَ أن يكون كُلُّ ما قضاه حقًّا، وهو كذلك؛ ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الخَيْرُ كُلُّه بِيَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالأَرْبَعُونَ: أنَّ الشَّيْطانَ في جَهَنَّمَ؛ لِقَوْلِه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالأَرْبَعُونَ: أنَّ الله تعالى وَعَدَ جَهَنمَّ بِمَلْئِها.

ويَتَفَرَّعُ عن هذه الفائِدَة: الحَذَرُ الشَّديدُ من أن يكون الإِنْسَانُ مِن أَهْل جهَنَّمَ،

---

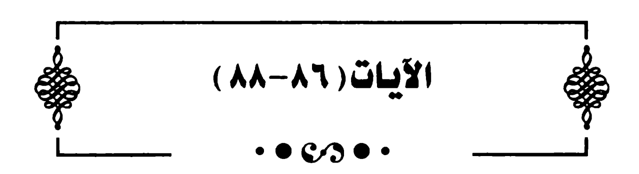
(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نعوذ بالله مِنها، وقد ثَبَتَ في الصَّحيحَيْنِ: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتقُولُ: قَطْ قَطْ»[1].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ وَالأَرْبَعُونَ: أنَّ للشَّيْطانِ أَتْباعًا؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ فإذا قيل: من أَتْباعُهُ؟ قيل: المُسْتكْبِرون عن عِبادَةِ الله؛ لأن أَعْظَمَ مَيْزَةٍ يَتَمَيَّزُ بها الشَّيْطان أنَّه مُسْتكْبِر عن طاعَةِ الله، فكُلُّ من اسْتكْبَر عن طاعَةِ الله فإنَّهُ من أَتْباعِ الشَّيْطانِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، رقم (٦٦٦١)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيات (٨٦-٨٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٦-٨٨].

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الخِطابُ للرَّسُولِ ﷺ ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما جِئتُ به وعلى تَبْليغِه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من: زائِدَةٌ، وأَجْر: مجْرُورٌ لفظًا مَنْصوبٌ محَلًّا على أنَّه مفعولٌ به ثانٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾.

واعلم أنَّ سأَلَ إن تَعَدَّتْ بـ(عن) فهي بِمَعْنى الاسْتِفْهامِ، وإنْ تعدَّتْ بِنَفْسِها نَصَبَتْ مفعولين، فهي بِمَعْنى طَلَبِ العَطاءِ؛ فإنَّ قولَكَ: سأَلْتُه عن كذا، يعني: الاسْتِفْهامَ، وإذا قُلْتَ: سَأَلْتُهُ كذا، فهو طَلَبُ العطاء، وهنا سأَلَ طَلَبُ عَطاءٍ، وعلى هذا فإنَّ ﴿أَجْرٍ﴾ محلُّها النَّصبُ، وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جُعْلٍ] تَفسيرٌ لأَجْرٍ، يعني لَسْتُ أَطْلُبُ منكم أن تُعْطوني دراهِمَ، أو تعطوني أرزَاقًا، أو تُزَوِّجوني بناتِكُم، أو تُسْكِنوني قُصُورَكُم على تبليغِ الرِّسالَة، ولكِنَّه ﷺ إنَّما يَسْأَلُ الأَجْرَ من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المُتَقَوِّلينَ القُرْآنَ من تِلْقاءِ نفسي؛ أي: وما أنا من المُتقَوِّلينَ، ولكِنْ عُدِلَ عن المُتَقوِّلينَ إلى المُتكَلِّفينَ؛ لأنَّ القُرْآنَ لا يُمكِن أن يأتِيَ بِمِثْله البَشَرُ حتى لو تكَلَّفَ الإنْسانُ وبَذَلَ الجُهْدَ، فإنَّهُ لا يُمْكِن أن يأتِيَ بِمِثْله، ولَمَّا كان هذا القُرْآن لا يأتي بمثْلِهِ البَشَرُ صار من أتى به مُتكَلِّفًا لو كان جاء به من عِنْده، فهو يقول:

أنا لا أَتَقَوَّلُ القُرْآن لا عَنْ يُسْرٍ ولا عن كُلْفَةٍ.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ [أي: ما القُرْآنُ]. ﴿إِنۡ﴾ فَسَّرَها المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ(ما)، وقد ذكرنا علامَةَ (إن) التي بِمَعْنى (ما) أن يأتِيَ بعدها (إلا).

[﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما القُـرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكۡرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ للإِنْسِ والجِنِّ العُقَلاءِ دونَ المَلائِكَة] وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دون المَلائِكَةِ]، إن أراد بإخراجِ المَلائِكَة أنَّهم لا يُكَلَّفونَ بالعَمَلِ به، فقد يكون مُسَلَّمًا، وإن أراد أنَّهُم لا يَتَذَكَّرونَ به ولا يَتَقَرَّبونَ به، فهذا غيرُ مُسلَّمٍ؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس:١١-١٦] والمرادُ بِهِمُ المَلائِكَة.

وقوله: ﴿ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّمَ معنى الذِّكْر في أوَّلِ السُّورَة، وتَقَدَّم قريبًا ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ [ص:٤٩] وهذه الثَّالِثَة، والمَعْنى أنَّه ذِكْرٌ بِنَفْسِه وشَرَفِهِ وذِكْرٌ بالوَعْظِ به.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ يا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿نَبَأَهُۥ﴾ خَبَـرَ صِدْقِه ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ أي: يَوْمَ القيامة] قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ جعَلَ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الضَّمِيرَ في (تَعْلَمُنَّ) عائدًا إلى كُفَّارِ مَكَّة بناءً على أنَّ الخِطابَ المذْكورَ في هذه السُّورَةِ لأَهْلِ مَكَّة؛ لأنَّها مَكِّيَّةٌ، ولكِنْ قد ذكـرنا أنَّ العِبْـرَة بالعُمُومِ لا بِخصـوصِ المكانِ أو السَّبَبِ، والخِطابُ لجميعِ النَّاسِ.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ فإنَّ هـذا النَّبأَ الذي أَنْبأَ الله به بواسِطَةِ هـذا القُرْآنِ الكريمِ سَيَعْلَمُه النَّاسُ كُلُّهُم، وذلك ما أخْبَرَ به عما يكونُ يَوْم القيامة، فإنَّ هذا القُرْآن أخْبَرَ عمَّا يكونُ يَوْمَ القيامَةِ، وهذا سَيَعْلَمُه النَّاسُ كُلُّهُم بعد حين.

وهناك أَشْياءُ أَخْبرَ عنها القُرْآن مَضَتْ وانْقَضَتْ، فهذه عَلِمَهَا بعد حينٍ مَن

سَبَقَ هذه الحَوادِثَ وأَدْرَكَهَا، وهناك حوادِثُ ستأتي يَعْلَمُها بعد حين مَن يُدْرِكُها، وأَمَّا الذي يُدْرِكُه جميع النَّاس فهو ما يكون يَوْمَ القيامةِ، قال: ﴿بَعْدَ حِينِۭ﴾ [أي: يَوْمَ القيامَةِ، وعلِمَ بِمَعْنى عَرَفَ]، قال: عَلِمَ بِمَعْنى عَرَفَ؛ لأَنَّه تعدَّى إلى واحِدٍ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وعَلِمَ إذا تعدَّت إلى واحد فهي بِمَعْنى عَرَفَ، كما تقول: عَلِمْتُ المسأَلَةَ؛ يعني: عَرَفْتَها، قال: [واللامُ قَبْلَها: لامُ قَسَمٍ مُقَدَّر؛ أي: واللهِ] لَتَعْلَمُنَّ نَبأَهُ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله تعالى أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أن يُعْلِنَ بأنَّه لا يَسْأَلُ على الرِّسالَةِ أَجْرًا؛ أي: أجرًا دُنْيَوِيًّا، وأَمَّا أَجْرُ الآخِرَة فلا شَكَّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَرْجوه؛ لأَنَّه هو الدَّالُّ على الخَيْرِ، الآمِرُ به؛ ولهذا مُنِعَ ورَثَةُ الرُّسُلِ من أن يَرِثوا شيئًا من أَمْوالِهِم خَوْفًا من أن يقال إنَّما اكْتَسَبَه الرُّسُلُ من أجل الرِّسالَة؛ قال النَّبِيُّ ﷺ: «لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[1] بتَنْوينِ الضَّمِّ، أَمَّا قَوْلُ الرَّافِضَة: صَدَقَةً، بتنوينِ النَّصْبِ: (لا نُورَثُ ما تَرَكْنَا صَدَقَةً) فهذا تحريفٌ لَفْظِيٌّ ومعنوي؛ وذلك لأَنَّ ما تُرِكَ صَدَقَةً لا يُورَثُ من الأَنْبِياء ولا مِن غَيْرِهم، لو أوصى الإِنْسَانُ بِشَيْءٍ يُجْعَلُ صَدَقَةً بعد موته نُفِّذَ ولم يُورَثْ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢] إلا أنَّ ما زاد على الثُّلُثِ يكون راجِعًا إلى اخْتيارِ الوَرَثَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَسْأَلُ النَّاسَ أَجْرًا على دَعْوَةِ الخَلْقِ إلى الحَقِّ، وهل هذا خاصٌّ به أو عامٌّ له وللأُمَّةِ؛ أي: إنَّه يَحْرُمُ على الإِنْسَان أن يَأْخُذَ شيئًا على تَبْليغِ الشَّريعَة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث»، رقم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الجَوَاب: أَنَّه متى وَجَبَ الإِبْلاغُ حَرُمَ أَخْذُ الأَجْرِ عليه؛ لأَنَّه لا يجوزُ للإِنْسَانِ أن يَأْخُذَ أَجْرًا على قيامِهِ بالواجِبِ، أَمَّا إذا كان لَيْسَ بواجِبٍ، فلا بأس أن يأْخُذَ أجرًا؛ لأَنَّه يكون تَطَوُّعًا؛ إن شاء فعل وإن شاء لم يَفْعَلْ.

فإذا قال: أنا لا أَحْبِسُ نفسي إلا بأَجْرٍ.

قلنا له: لا حَرَجَ ما دام الإبلاغُ ليسَ بواجِبٍ، ويدلُّ لِهَذا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ**»[1] لكنْ متى وَجَبَ تعليمُ القُرْآنِ على شَخْصٍ فإِنَّ أَخْذَه أُجْرَةً على هذا التَّعليمِ يكون حَرامًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صادِقٌ فيما أَخْبَرَ به من الوَحْيِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإِشارَةُ إلى أنَّ من النَّاس من يتقوَّلُ على الله، فيدَّعي أنَّه رسولٌ، وهو ليس كذلك، وحينئذٍ نقولُ: مَنِ ادَّعى الرِّسالَةَ فإن جاءَ بآيَةٍ تَدُلُّ على صِدْقِهِ فهو رسولٌ، وإلا فليس برسولٍ، هذا قَبْلَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ أَمَّا ما بعدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فمَنِ ادَّعى الرِّسالَةَ فهو كاذِبٌ؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] فمَنِ ادَّعى الرِّسالَةَ، وأنَّ الله تعالى أرسله بعد مُحَمَّدٍ ﷺ فهو كاذِبٌ مُرْتَدٌّ عن الإسلامِ ويَجِبُ قَتْلُه، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَنْزِلُ آخِرَ الزَّمانِ بِصَفَتِهِ رَسولًا؛ لأَنَّه كان رَسُولًا قبلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثم هو أيضًا لا يأتي بِشَيْءٍ جديدٍ، بل يأتي بِشَيْءٍ أقرَّه النَّبِيُّ ﷺ وأخبر به من قَبْلُ، وهو أنَّه يَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، ويَكْسِرُ الصَّليبَ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ، ولا يَقْبَلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم، رقم (٥٧٣٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

إلا الإسلامَ[١] يعني أنَّ أَخْذَ الجِزْيَةِ من غير المسلمين لإِقْرارِهِم على دِينِهِم له أَمَدٌ في الشَّريعَة الإسْلامِيَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا القُرْآنَ الكريمَ ذِكْرٌ للعالَمِينَ عُمُومًا يتذَكَّرونَ به، لكن لا ينتفِعُ به إلا المُؤْمِنونَ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، وهذا عامٌّ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧] وهذا خاصٌّ إذا جعلنا الهُدى بِمَعْنى التَّوْفيقِ، وإذا قلنا: الهِدايَةُ هِدايَةُ الإِرْشادِ صار عامًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ آياتِ النَّبِي ﷺ تأتي مُتتابِعَةً؛ منها ما عُلِمَ في عَهْدِه، ومنها ما عُلِمَ بعد ذلك، ومنها ما لا يُعْلَمُ إلا يَوْم القيامة، والذي يُعْلَمُ يَوْمَ القيامة يكون مَعْلومًا لِكُلِّ أَحَدٍ، والذي يُعْلَمُ في وقته يكون مَعْلومًا لمن أَدْرَكَه ولمن أتى مِن بَعْدِه، وكذلك نقول في الذي يأتي بعد الرَّسُولِ ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الله تعالى تكَفَّلَ بأنْ يُعْلِمَ النَّاسَ صِدْقَ نَبَأِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ فإن هذه الجُمْلَةَ خَبَرِيَّةٌ مؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: اللَّامِ والقَسَمِ المُقَدَّر ونونِ التَّوْكيد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾.

وإلى هنا انْتَهَتْ هذه السُّورَةُ الكريمَةُ، ونَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يُعيدَنا عَوْدًا حَميدًا مُسْتَزيدينَ من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ والعِلْمِ؛ إنَّهُ جَـوادٌ كريم، والحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ، وصلَّى الله وسلَّم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعينَ.

[تم تَفْسيرُ سُورَةِ ص، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ]

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة

• ● ۞ ● •

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة

فهرس آيات السورة

الآية ... الصفحة

• • ۞ • •